مجلد ٣ — عدد ٩

يونيه ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير
طه حسين

سكرتير التحرير
حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى
٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك
يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »
١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

الثمن بمصر : ١٠ قروش



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

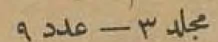
طه حسين

مجلد ٣



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصرى



رجب ١٣٦٥ يونيه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ٩

من القاهرة إلى بيروت

أرأيت إلى الظلمة الحالكة التى تغمر الكون ، وتطبق على الفضاء ، وتجثم على كل شىء ، ويومض مع ذلك بين طبقاتها المتراكبة المتكاثفة برق ضئيل نحيل خاطف لا يكاد يظهر حتى يستخفى ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة العميقة المتكاثفة ، التى تلح على كل شىء حتى تضطر كل شىء إلى سكون متصل طويل هو النوم ، أو شىء يشبه النوم ، وحتى تكون كل حركة فيها حلماً ، أو شيئاً يشبه الحلم ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة البغيضة التى توشك أن تكون صورة للعدم الأبدى ، إن أمكن أن تكون للعدم الأبدى صورة ، والتى يجاهد فيها هذا البرق الخاطف ليمس الأشياء والأحياء بشىء من نور ، كما تجاهد القوة الخفية فى هذا العدم السرمدى لتشيع فى الأشياء شيئاً من وجود ؟

تصور هذا النحو من الظلمة كما تشاء أو كما تستطيع ، وقدِّر أنها هى التى كانت تكتنف نفسى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل حين كنت أتهيأ للسفر . ولم أكن أعرف علة لهذه الظلمة التى كانت تكتنف نفسى وتملأ ضميرى ، وتأخذ عقلى من جميع أقطاره . فلم يكرهنى أحد على هذه الرحلة ، ولم يفرضها علىّ ظرف من الظروف ، وإنما أقبلت عليها عن رضا ، وأزمعتها عن اختيار . وهمّ المتصلون بى أن يصرفونى عنها ، فلم ألق إليهم سمعاً ولا بالا . وإنما مضيت فى الاستعداد لهذه الرحلة ، لا أتردد ولا أقف عند عقبة من

العقبات ، أو مشكلة من المشكلات ، حتى إذا أصبحت أمراً واقعاً لا سبيل إلى العدول عنه أو التردد فيه ، ضاقت بها نفسى أشد الضيق ، وامتلأ لها قلبى حزناً ، وأقبلت عليها كارهاً لها أشد الكره ، مكرهاً عليها أشد الإكراه .

كان حزناً كاملا شاملا عميقاً ، يتخلله بين حين وحين ، شعاع ضئيل سريع ، من أمل أجده ولا أحققه . وكنت على ذلك أتهيأ للسفر ، نشيطاً عظيم النشاط ، آمر وأنهى ، وأسمع وأقول ، وأستقبل وأزور ، وأخضع فى أثناء هـذا كله وعلى رغم هذا كله ، لهذا الحزن العريض العميق، ولهذا الأمل الضئيل السريع ، كأنما كانت حياتى الشاعرة حلماً من هذه الأحلام التى تقطع راحة النوم . حتى إذا انتصفت الساعة الخامسة ، وانطلق القطار بعد هذه اللحظات الحلوة المرة ، التى يبسم فيهـا الوجه ويعبس فيها القلب ، ويكون فيها وداع المودعين وشكر المشيعين ، أويت إلى نفسى فى زاوية من زوايا « البولمان » ، أريد أن أفكر ، وأن ألتمس علة لهذه الظلمة القاتمة التى كانت تأخذ نفسى من كل وجه ، فلم أجد سبيلا إلى التفكير ولا إلى التعليل . وهممت أن أشارك من كان معى فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، فلم أجد سبيلا إلى القول ، كما لم أجد سبيلا إلى احتمال الصمت ؛ فقضيت هذه الساعات القصار الطوال ، بين القـاهرة والإسكندرية ، فى قلق غريب ، لا أمنح نفسى ولا أمنح من حولى من العنـاية ، إلا أقلهـا وأيسرها ؛ لأنى لم أكن قادراً على تدبير إرادتى ، وتنظيم سيرتى مع نفسى ومع الناس . وكذلك دخلت الإسكندرية مع الليل ، وشاركت فى بعض الحديث ، وفى الجلوس إلى المائدة ، وفى الإصابة من الطعام ، وأنفقت الليـل لا أدرى أكنت فيه نائماً أم يقظان ؛ فلم أفقد الشعور بنفسى لحظة ، ولم أتبين مع ذلك جلية نفسى لحظة ، وإنما كنت شيئاً يشبه الأداة المسخرة المسيرة التى تعمل فى دقة ونظام ، دون أن تحقق عملا أو دقة أو نظاماً . وكذلك أنفقت وجه النهار من غد ، وكذلك خلصت من هذه الجماعات التى كانت تزدحم حول السفينة ازدحاماً منكراً ، وتصطخب اصطخاباً بشعاً . وكذلك قلت وسمعت ، ورضيت وسخطت ، وابتسمت وعبست ، دون أن أحقق من هذا كله شيئاً ، ودون أن أجد لشىء من هذا كله ذوقاً ؛ حتى إذا تأذن صائح السفينة فى المودعين أن قد آن لهم أن ينصرفوا ؛ لأن السفينة مبحرة بعد حين ، ثابت إلىّ نفسى كلها ، أو ثبتُ أنا إلى نفسى كلها ، وإذا أنا أجـد ما كنت أفتقد ، وأعلم ما كنت

أجهل ، وأتبين أن مصدر هذه الظلمة العريضة المتكاثفة ، ومبعث هذا الحزن الثقيل الملح ، ليس إلا شيئاً واحداً ، هو أني أفارق مصر في وقت لم تكن النفس تطيب فيه عن فراق مصر . في وقت يحتاج المصري فيه إلى أن يشعر بوجوده الوطني قوياً كاملا مسيطراً على عقله وقلبه ، مدبراً لعمله ونشاطه ، ملاحظاً لكل ما يقال ، ولكل ما يعمل ، ولكل ما يتناوله النشاط الفردي والاجتماعي . أليس كل شيء في مصر يفرض على المصريين في هذه الأيام ، هذه الملاحظة الدقيقة اليقظة التي لا يفوتها شيء ، أو التي تحاول ألا يفوتها شيء ؟ أليس مصيرها السياسي موضوعاً للأخذ والرد ، معرضاً لأن يقرر في وقت قريب أو بعيد إلى أجل طويل أو قصير ؟ أليس مصيرها الاجتماعي موضوعاً للخصام والجدال ، معرضاً لأن يخطو إلى أمام خطوات تقصر أو تطول ، أو لأن يرجع أدراجه أمداً بعيداً أو قريباً ؟ أليست الحياة المصرية كلها تُمْخَضُ في هذه الأيام مخضاً عنيفاً كما يمخض اللبن في القربة ، دون أن يتحقق أحد النتيجة الممكنة لهذا المخض العنيف ؟ أليس طبيعياً مع هذا كله أن يقيم المصري في مصر ، متنبهاً يقظاً ، ملاحظاً ما استطاع الملاحظة ، عاملا ما استطاع العمل ، محاولا ما وجد إلى المحاولة النافعة سبيلا ؟ بلى ! ولكنه السأم الذي يصيب بعض النفوس حين تضيق بما حولها من هذا السخف الذي لا ينقضي ، ومن هذا الكلام الكثير الذي لا يغني ، ومن هذا الخصام العنيف الذي لا يجدي ، ومن هذا النشاط المختلط الذي لا يفيد ، ومن هذا المكر الخفي الذي يفسد كل شيء ، ومن هذا الإخلاص الجلي الذي لا يُصلح شيئاً ، ومن هذا الكيد اليقظ الذي يستأثر بالخير ، ومن هذه الصراحة النائمة التي تورِّط في الشر وتعرِّض للأذى ، ولا تغني عن أصحابها ولا عن الوطن شيئاً . أجَلْ ! هو هذا السأم الذي يجده بعض النفوس من هذه الحياة المصرية التي يمكر بها الماكرون ، ويعجز عن إصلاحها الناصحون ، والتي يقاد فيها الشعب إلى غير ما يريد ، ويساس فيها الوطن على غير ما يحب . هو هذا السأم الذي يملأ النفوس في بعض الأحيان ضيقاً وسخطاً ، ويدفعها إلى أن تود لو تجد من هذه الحياة الثقيلة مخرجاً يتيح لها الراحة الموقوتة من هذا العناء الثقيل البغيض ، الذي يشقى به أصحابه أعظم الشقاء ، دون أن يكون شقاؤهم هذا مغنياً عنهم أو عن غيرهم شيئاً

هو هذا السأم الذى كان يأخذ نفسى بين حين وحين، ويدفعنى إلى أن أتمنى الراحة من هذه الحياة الثقيلة الفارغة، أتيحت له الفرصة ذات يوم، فبلغ بى ما أراد. تمنيت فى ذات يوم أن أستريح قليلا من هذه الحياة الجوفاء الممضة، ولم ينقض النهار حتى كنت أُدعى إلى فرنسا. فشككت غير طويل، ثم أجبت إلى ما دعيت إليه، ثم صممت، ثم مضيت لا أقبل مشورة ولا أحفل بصعوبة. حتى إذا لم يبق فى القوس منزع، ولا إلى التردد سبيل، تمادت نفسى تذكر الواجب، وتذكر الحق، وتذكر العمل، وتأسى على ما قدمت، وتتمنى أن تستأنف التفكير، وتنقض ما أبرمت. ولكن هيهات! سبق السيف العذل، ولا بد مما ليس منه بد. وهذه السفينة تترك الإسكندرية موجهة إلى بيروت لتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا؛ فلنصبر النفس على ما يجب أن نصبرها عليه، ولنَحْيَ مع أهل السفينة حياتهم هذه الجديدة التى قد نجد فيها شيئاً من سلو وفضلا من عزاء.

ولكن حياة السفينة على ما فيها من جِدّة وطرافة، وعلى ما فيها من اضطراب واختلاط، لم تتح للنفس سلوًّا ولا عزاء، وإن كانت قد جلَتْ بعض هذه الظلمة المتكاثفة، وألقت بين نفسى وبين الحزن العريض البغيض حجاباً رقيقاً، لا أكاد أفكر فيه حتى يزول، وإذا أنا أستحضر مصر كما تركتها: مفاوضات تجرى من وراء ستار؛ وانتخابات تجرى ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبَله العذاب؛ وخصومات تتصل حول ما كان وحول ما هو كائن وحول ما يمكن أن يكون وحول ما يجب أن يكون؛ وبؤس يلح حتى يضيق بنفسه ويبتئس بطبيعته، وحتى يشقى الشقاء نفسه لشدة ما يمعن فى طبيعته؛ ونعيم ينتشر وينتشر حتى يضيق به أصحابه، وحتى يلتمسوا الراحة منه، بين حين وحين، بتكلف شىء من هذه الحياة الخشنة التى تريحهم بالجوع من التخمة المتصلة، وبالظمأ من الكظة المهلكة، وبالشظف من اللين الذى يفسد النفوس ويضنى الأجسام. وأستحضر مصر كما يراها الطارئون عليها والزائرون لها من الأجانب بلداً غريباً غير مألوف، له وجهان: وجه باسم يغرى ويدعو إلى الفتون، ووجه عابس يملأ النفوس ضيقاً وسخطاً وإشفاقاً: رخاء يثير حسد الحاسدين وطمع الطامعين، وشقاء يثير الرحمة فى القلوب التى لا تعرف الرحمة، والرثاء فى

النفوس التي لم تتعود الرثاء . ترَفٌ وشظف يسعيان في طريق واحدة ، ويمشيان في شارع واحد ، ويبتسمان للحياة ابتسامتين تتشابهان في ظاهر الأمر ، وتختلفان في حقيقة الأمر : إحداهما تستقبل الحياة ساخرة منها مزدرية لها ، والأخرى تستقبل الحياة راغبة فيها متهالكة عليها . والنيل يجرى مع ذلك للناعمين والبائسين جميعاً ، لم يخلق لفريق منهم دون فريق . والشمس مع ذلك ترسل ضوءها وحرارتها للناعمين والبائسين جميعاً ، لم تؤمر بأن تؤثر بهما فريقاً دون فريق . والهواء مع ذلك يملأ الفضاء ويتنفس فيه الناعمون والبائسون جميعاً ، لم يُكَلَّفْ أن يبيح التنفس فيه لفريق دون فريق . الأرض وحدها هي التي خرجت عن هذه القاعدة ، وامتنعت على هذا النظام ، فآثرت بما تحمل من الخير فريقاً من الناس دون فريق ، ولكنها رضيت آخر الأمر أن تكون كالماء والهواء والشمس ، حرة عادلة ، مسوية بين سكانها حين يدركهم الموت : تمنح كل واحد منهم هذه الحفرة الضئيلة التي يأوى إليها ليستريح ويريح ، لا تفرِّق بينهم في ذلك قليلا ولا كثيراً . نعم ! كان أيسر شيء يكفى لأن يرفع هذا الحجاب الرقيق عن نفسى فأستحضر مصر كما هي ، وأذكر أنى راحل عنها في وقت لا ينبغى أن يرحل فيه المصريون عن وطنهم ، وإذا أنا أعود إلى تلك الظلمة العريضة المتكاثفة وإلى ذلك الحزن البغيض العميق . على أنى كنت أتجنب ما استطعت رفع هذا الحجاب ، وأمعن ما استطعت في مشاركة السَّفْر في حياتهم هذه الضيقة المختلطة الفارغة .

وقد كانت هذه الحياة غريبة حقًّا ، لم أعرفها من قبل على كثرة ما ترددت بى السفن بين الشرق والغرب . فنحن في أعقاب الحرب لم نصل بعد ، ولست أدرى متى نصل ، إلى الحياة اليسيرة المألوفة . ولا يكاد أحدنا يستقبل النهار أو يستقبل الليل متى خرج عن حياته التي ألفها ، حتى يرى ما يثير في نفسه العجب حيناً ، والسخط حيناً ، والرضا حيناً آخر . وقد كان أول عهدنا «بالشمبوليون» في هذه الرحلة مثيراً لهذه العواطف جميعاً ، ولعواطف أخرى لا تكاد تحصى ، فضلا عن أن يفكر كاتب في تسجيلها . فهذه السفينة التي ألفناها أنيقة مترفة ، قد فقدت كل أناقة وكل ترف ، لكثرة ما عملت في البحر والمحيط أثناء الحرب ، ولكثرة ما تعرضت له من تغيير لتصبح ملائمة لنقل الجند ، بعد أن كانت مقصورة أو كالمقصورة على نقل المترفين من أصحاب الثراء . قد فقدت زينتها كلها

أو أكثرها، وأصبحت سفينة كغيرها من السفن، حسبُها أن تقل المسافرين لتنقلهم من ثغر إلى ثغر، وهى مع ذلك قد احتفظت بشىء ضئيل، ضئيل جداً، من بقايا هذه الزينة، فأصبحت أشبه شىء بالأطلال، ولكنها أطلال حية متنقلة ليست ثابتة ولا مستقرة. وكانت زينة «الشمبوليون» من الطراز المصرى القديم، أليس اسمها يكفى للدلالة على ذلك! فقد ذهب كثير من هذه الزينة وبقيت منها ملامح ضئيلة، وأصبح هناك ائتلاف موسيقى بين هذه الأطلال المتحركة المتنقلة بين الثغور، وهذه الأطلال الثابتة المستقرة فى المعابد والقبور. كل شىء هنا وهناك يصور البلى، ويدل على عبث الزمان بالأشياء والأحياء، ويعيد فى الذاكرة قول الشاعر العباسى القديم:

يا دارُ غيَّركِ البِلَى ومَحَاكِ ... يا ليتَ شِعْرِى ما الذى أبلاكِ!

ونحن نعلم أن المعابد المصرية وغيرها من الآثار قد أبلاها مر الغداة وكر العشى، وأن زينة الشمبوليون قد أبلاها نقل الجند على ما يكون بينهم من اختلاط واضطراب، وأبلتها ضرورات الحرب التى لا تحفل بالعرف ولا تحفل بالزينة، وإنما تحفل بشىء واحد هو التغلب على المصاعب والإفلات من الموت.

وفى الشمبوليون كما فى كثير غيرها من السفن روعة مؤثرة، تأتى من هذا التناقض الغريب بين هذه الزينة البالية المهملة التى كأنها الأطلال، وبين هذه القوة العظيمة التى تملؤها حياة ونشاطا وتمكنها من مغالبة البحر والريح؛ لأن أدواتها متينة كل المتانة، رصينة كل الرصانة، شديدة البأس عظيمة المراس، قادرة على مغالبة الطبيعة، والثبات للعواصف والأنواء. زينة بالية تنمحى شيئاً فشيئاً، وأداة قوية تزداد بين حين وحين قوة وبأساً، والناس يضطربون بين هذين المتناقضين، يأسون لهذا الجمال الشاحب الذى يوشك أن يزول، ويُعْجَبون بهذه الأداة القوية التى تغالب الموج والريح. على أن هؤلاء الناس أنفسهم يثيرون فى النفس كثيراً من الخواطر المتناقضة، ففيهم الغنىّ الذى لا يستطيع أن يحصى ثروته، وفيهم المعدم الذى لا يجد ما ينفق، وفيهم متوسط الحال، كما يقال. وأولئك وهؤلاء سواء حين يصطخب الموج، وحين تعصف الريح، وحين ترقص السفينة بين اصطخاب الموج وعصف الريح. وهم سواء كذلك فى الخضوع لهذه الضرورات التى فرضتها الحرب من الاكتفاء بالقليل والخضوع للنظام والإذعان

لما لم يتعودوا أن يذعنوا له . هذا الرجل المترف الذى تجرح خديه خطرات النسيم ويدمى بنانه لمس الحرير مضطر إلى أن يقنع بحياة خشنة كلها شظف وغلظة، ليس له غرفة يستأثر بها ، وليس له سرير يأوى إليه ، قد يسعده الحظ فيظفر بمضجع رقيق يعلقه فى السقف هنا أو هناك ، ويأوى إليه إذا جنه الليل فينام فيه نوماً متقطعاً ، مترجحاً فى نظام إن سكنت السفينة ، مترجحاً فى اضطراب إن لعبت الأمواج بالسفينة أو عصفت بها الريح . حتى إذا أرسل الفجر سهمه الفضى الضئيل تدلى من مضجعه ذاك الرقيق وضمه إليه كما يضم إليه مايحمل من متاع . وقد لا يتاح له هذا المضجع الرقيق ، وإذا هو هائم فى السفينة يصعد حيناً ويصوب حيناً ، يلتمس لنفسه أشباراً يمد عليها جسمه حين يجهده الإعياء . وقد يلتمس شبراً أو شبرين يجلس فيهما ، أو قل يُقْعِى فيهما إقعاء قد عطف أعلاه على أسفله واستسلم للقضاء وانتظر أن يزوره النوم ، وجعل النوم يداعبه مداعبة بغيضة يدنو منه لينأى عنه ، وإذا هو كما يقول الشاعر القديم :

لا يذوق النوم إلا غرارا   مثل حسو الطير ماء الثِّماد

وليس كل الناس فى السفينة قادراً على أن يصيب حاجته من الطعام؛ فقوم يتاح لهم الجلوس إلى المائدة ، وقوم يسعون بآنيتهم إلى حيث يلقى لهم فيها خليط من الطعام يقيمون به الأود ويصدون به عن أنفسهم ألم الجوع . وقسمة الحظوظ بين هؤلاء الناس لم تجر على نظام مقرر ولا على قاعدة مألوفة ، وإنما هى قوة غريبة عمياء قد قسمت الحظوظ بين هؤلاء الناس كما أرادت هى لا كما أراد المنطق ، ولا كما أراد النظام ، ولا كما أراد ما دفعوا من المال . وليس لهم خيار بعد أن أبحرت السفينة ، فهم مضطرون إلى أن يقبلوا ويذعنوا . لهم أن يجهروا بالسخط وأن يضمروه ، ولكن إعلان السخط أو إسراره لا يغير من حظهم شيئاً . وهم قد قبلوا ذلك وأذعنوا ، وهم قد جهروا بالسخط وخافتوا به وأسروه فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم جميعاً سمعوا وأطاعوا ، ولم يخطر لواحد منهم أن يخالف عما كان يصدر إليه من أمر .

وقد كانت الأوامر تصدر إليهم جملة وتفصيلا ، لا من طريق المنشورات التى تعلق مكتوبة هنا وهناك كما ألفنا فى أوقات السلم ، ولكن من طريق الصائح العام الذى يعلن الأوامر بواسطة مكبر الصوت ، فيسمعها المسافرون جميعاً على اختلاف

طبقاتهم ومنازلهم فى وقت واحد ، ويأخذ كل واحد منهم بين هذه الأوامر ما يعنيه ، فيسمع ويطيع راضياً أو ساخطاً ، ولكنه سامع مطيع على كل حال. وكذلك أنفق المسافرون يوما كاملا مضطربين فى هذه الحياة المضطربة بين هذه العواطف المختلطة ، إلا السفينة فإنها لم تضطرب ولم تتردد ، وإلا عمال السفينة فإنهم لم يضطربوا ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمروا أن يمضوا لا يحفلون بأحد ولا يحفلون بشئ إلا بالواجب الذى ينبغى أن يؤدوه . حتى إذا بلغت السفينة «حيفا» من الغد كان المنظر الذى يبعث فى النفس ألماً أى ألم وغضباً أى غضب ورثاء أى رثاء وبغضاً أى بغض وحباً أى حب أيضاً . فقد كانت السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شئ ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن من فقدت كل شئ ، ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأساً، ورضا وسخطاً ، ولذة وألماً . وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء . ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فسلطين . وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعُدّة وبالبأس والقوة، ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التى تُكرَه على إيوائهم إكراها . وهؤلاء البائسون يهبطون من السفينة فى نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين ، أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين ، أم كان يصور هذا كله فى وقت واحد . لست أدرى ! ولكنى أعلم أنه كان يملأ النفوس غيظا وحنقا ورحمة ورثاء ، حتى عمال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به مبغضين له ، يجهرون بالشكوى من تحكم المنتصرين الذين يسخِّرون سفينة فرنسية لشئ يملأ صدور العرب حرجا وضغينة دون أن يستطيعوا إباء وامتناعاً . أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصانع المنتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش !

وقد انجلت هذه الغمرة آخر الأمر ، ورفع هذا الحمل الثقيل عن الصدور ، وأبحرت السفينة من حيفا إلى بيروت ، وقد شاع فيها وفى أهلها شئ من المرح

يشبه مايجده النائم حين يزول عنه الكابوس أو حين تؤمنه اليقظة من حلم بغيض منكر مخيف .

ولم تشرق الشمس من غد حتى كانت الحياة كلها ابتساماً رائقاً رائعاً حين أقبلت السفينة على بيروت ، فإذا السماء الصافية تبسم للأرض المشرقة ، وإذا الجبل الشامخ الرصين يبسم للبحر الهادئ الرزين ، وإذا الأحياء المستقرون على الأرض يبسمون للأحياء المقبلين من البحر ، وإذا هؤلاء السَّفْرُ أنفسهم قد امتلأت قلوبهم غبطة وفاضت وجوههم بهجة وبِشْراً . أليسوا مقبلين على الراحة بعد الجهد ، وعلى النعيم بعد البؤس ، وعلى اللين والخفض بعد الشدة والشظف ! كل شئ كان رضا ، وكل شئ كان ابتساما ، إلا هذه القلوب الخبيثة التى لا تعرف الصفو الخالص ولا النعيم النقى البرىء ، وإنما تفسد كل شئ بما تدبر من كيد ، وما تضمر من شر ، وما تنظم من مكروه . فلم يكن جميع الذين هبطوا من السفينة يستقبلون حياة نقية بقلوب نقية . كان فيهم من يفكر تفكيراً بريئاً فى راحة بريئة ، وكان فيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً فى راحة خبيثة كان فيهم من يبتغى حياة هادئة وادعة فى لبنان الهادئ الوديع ، وكان فيهم من أعد للشر عدته فهو يريد أن ينتفع هنا وهناك ، يريد أن يبيع ويشترى ، يريد أن يسرق ويختلس ، يريد أن يغير نقداً بنقد ، وأن يفيد من هذا التغيير قليلا أو كثيراً ، يجهر بذلك حيناً ويخافت به حيناً ويخفيه فى أعماق نفسه فى أكثر الأحيان . وكذلك اندفع أهل السفينة إلى الأرض ، وتلقاهم أهل بيروت ، وجرت الأمور بين أولئك وهؤلاء كما تجرى بين الناس حين يلتقون فى كل مكان .

مزاج من الخير والشر ، وخليط من الطهر والإثم . والأبرياء والغافلون يرون هذا كله ولا يستطيعون له تغييراً ، بل لا يستطيعون حديثاً عنه أو خوضاً فيه ، وإنما يرون وينكرون ، ويقول بعضهم لبعض أو يقولون لأنفسهم إنما هى الحياة تجرى كما تستطيع ، وإنما هى طبيعة الإنسان لا تستطيع أن تخلص للخير وحده ، ولا أن تخلص للشر وحده ، وإنما هى مضطرة إلى أن تضطرب بين هذا وذاك ، يدفعها العقل إلى الخير فترغب فيه وقد تصيب منه ، وتدفعها الغريزة إلى الشر فتتورط فيه وقد تغرق فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان .

وقد زرت بيروت مرات كثيرة ، ولكنى لم أر أهلها يبسمون للحياة فى

صراحة، ويسعدون بها فى صراحة، ويستقبلونها فى رضا وأمن وأمل، كما رأيتهم هذه المرة. ولم لا؟ ألم يظفروا بما لم يظفر به كثير غيرهم من هذه الحرية السياسية، ومن هذا الاستقلال التام الذى تحلم به الشعوب المستضعفة وتتحرق قلوبها شوقا إليه؟ لم لا يستقبل اللبنانيون سفينتنا هذه مرحبين بها باسمين لها؟ ألم تلمّ بثغرهم العظيم لتجلى المحتلين عن أرض لبنان؟ ومع ذلك فقد كان ابتهاج اللبنانيين على عمقه وقوته هادئاً كل الهدوء وقوراً كل الوقار متوثباً مع ذلك، يشعر بأن القوم لا يستقبلون استقلالهم على أنه نعمة سيقت إليهم، ولا على أنه فوز كسبوه بعد الجهد والجد والعناء، ولكن على أنه المرحلة الأولى من طريق طويلة طويلة جدًّا، عسيرة عسيرة جدًّا؛ لأنها طريق الواجب الذى يفرض على الشعب المستقل أن يثق بنفسه وأن يعتمد عليها فى احتمال التبعات الثقال التى لا تحصى. فليس الاستقلال لعباً ولا لهواً، وليس الاستقلال منحة تهدى ولا نعمة تتاح، وليس الاستقلال إخلاداً إلى الراحة واستمتاعاً بالحياة، وإنما الاستقلال ثقة بالنفس واعتماد عليها، وبذل للجهد ونهوض بالعبء، وإقدام على العمل فى غير أناة ولا تباطؤ ولا كسل: إقدام على العمل لإسعاد البائس وإطعام الجائع وتعليم الجاهل، وإنصاف المظلوم، وإقرار العدل، وتحقيق المساواة. واللبنانيون يشعرون بهذا كله، ويقدرون هذا كله، ويروضون أنفسهم على النهوض بهذا كله. وهم من أجل ذلك لا يكاثرون ولا يفاخرون، ولا يتحدثون عن الاستقلال حديث الغافل المتهاون، وإنما يتحدثون عنه حديث الرجل الذى يملأ قلبه الرضا ويملأ قلبه الحزم والعزم والثقة، ويملأ قلبه فى الوقت نفسه الحذر والاحتياط. فهم يتحدثون إليك حديثاً فيه حلاوة الرضا، ولكن فيه مرارة الصرامة والجد. وهم من أجل ذلك يلقون فى نفسك صوراً جديدة غير التى ألفتها منهم حين كنت تزورهم قبل هذا العام.

آنست ذلك عند صفوتهم من الشيوخ والشباب، كما آنست ذلك عند عامتهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم؛ فلم أملك أن تمنيت للبنان كل ما يتمنى لنفسه، وأن تمنيت لمصر كما يتمنى لها لبنان هذا اليوم الذى تشعر فيه بالسعادة الراضية الحازمة، وبالأمل الواثق المطمئن.

وقد أنفقنا فى بيروت يومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعودنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المرحة الخصبة التى تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً، وإنما هو

رجل يعيش فى وطنه وبين أهله، لا يجد فى ذلك مشقة ولا جهداً، ذلك إلى هذا المتاع العقلى الذى يجده المصرى المثقف حين يلقى اللبنانيين المثقفين. وقد كادت هذه الزيارة تكون صفواً كلها، لولا أنى سألت عن صديق لبنانى أديب كانت له فى نفسى كما كانت له فى نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة. سألت عنه لأنى كنت أريد أن أسعى إليه. قلت لصاحبى: كيف حال الأستاذ عمر فاخورى؟ فقال فى هدوء حزين: لقد دفناه أمس يا أستاذ. هنالك أخذ النَّـدِيُّ كله وجوم طويل لم نقل فى أثنائه شيئاً، وإنما قالت قلوبنا فى أثنائه كل شىء. وما عسى كنا نستطيع أن نقول، وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان، وهذا الحزن الذى يفنى القلوب، ويضاعف ثروة العقول. لم أقل شيئاً ولم يقل أصحابى شيئاً، وإنما اتخذت لهذا الأديب اللبنانى العظيم قبراً فى ناحية من نواحى قلبى، كما اتخذ اللبنانيون له قبوراً فى قلوبهم، وكما احتفروا له قبراً فى مكان ما من أرض لبنان.

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

بريطانيا وحوض البحر المتوسط

لم يكن الإنجليز السكسون يوما من الشعوب التى سكنت حوض البحر المتوسط ، وليس لهم فى هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوربية أو الشرقية التى لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة فى الهند على أن تكون لها السيادة فى هذا البحر . وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة جيوش وأساطيل وقواعد ومطارات فحسب ، فقد توافر لفرنسا من هذه الوسائل فى البحر المتوسط أكثر مما توافر لبريطانيا ، وكان لإيطاليا منها فى بدء الحرب الأخير شىء كثير ، ولكن الدولتين لم تفيدا من ذلك فتيلا . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان إغلاقه ، إحداهما عند قناة السويس شرقاً ، والأخرى عند جبل طارق غرباً . وإنما تكون السيادة للدولة التى تملك مفتاحى البوابتين أو أحدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكتف بالقبض على مفتاحى البوابتين ، بل أنشأت على طول طريق البحر محطات أو نقطاً بوليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة فى البحر وتلوذ بها عند الحاجة . وفى امتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص فى سياسة بريطانيا إزاء الموقف الدولى العام .

أما معقل جبل طارق فاحتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة «أترخت» التى انتهت بها حرب الوراثة الأسبانية . وكانت انجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا وأسبانيا ضدها ، بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على أسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، إمعانا فى إيلام عدوتها أسبانيا من جهة ، ولكى تشرف منها من جهة أخرى على طريقى الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط ، وطريق رأس الرجاء الصالح . وكانت انجلترا فى ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها فى الهند ، فأنشأت شركة الهند الشرقية وباتت الملاحة بين انجلترا وأملاكها فى الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطة فكان فى سنة ١٨٠٠ وكان نابليون بونابرت قد لفت بحملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربى والجغرافى ، وإلى عظم شأن الطريق البرى إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر ، ولم تجد صعوبة فى الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين ، وكانوا قد احتلوها وهم فى طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطة فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٦ وتحولت إليها طرق الملاحة المهمة بين الشرق والغرب ، لم تر انجلترا بدًّا من إنشاء محطة قريبة من منطقة القناة تشرف منها على أملاك تركيا فى شرقى البحر المتوسط . وكانت روسيا تعمل جاهدة فى ذلك الوقت على إضعاف تركيا وطردها من أوربا ؛ فانبرت انجلترا للذود عنها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا فى مقابل ذلك أن نزلت لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية فى مصر فى أواخر عهد الخديوى إسماعيل ، وقامت الثورة العرابية ، فدخلت انجلترا فى شؤون مصر المالية أولاً ، واشترت نصيب مصر فى أسهم قناة السويس ، ثم ما لبثت أن انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت من يومئذ تسيطر على القناة .

ولما ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعى القومى فى شعوب الشرق الأوسط العربى ، رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب ، لتقوى مركزها فى الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربى عن كثب .

والسياسة التقليدية التى سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تناهض النفوذ البريطانى فى ذلك البحر . وعلى هذا الأساس ظلت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعى روسيا فى التسلط على المضايق والتسرب منها إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط . ولم تفتر عزيمة انجلترا وتسترخ قواها إلا فى إبان الحرب العالمية الأولى حين أراد الحلفاء أن يضمنوا بقاء روسيا إلى جانبهم ، فمنتها انجلترا وفرنسا بالقسطنطينية والمضايق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، وكان ذلك بمقتضى

معاهدة سرية عقدت فى لندن بين الدول الثلاث سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك فمحت فيما محت هـذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضاً حالت انجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراكش ، حتى لا يتعرض مركزها فى جبل طارق لأى خطر ، وفضلت أن تـكون أسبانيا الدولة الضعيفة نسبياً هى صاحبة النفوذ فى تلك المنطقة التى تواجه جبل طارق ، وفيها ثغران خطيران ، هما سبتة وطنجة . وقد أفلحت انجلترا فى جعل طنجة ميناء دوليًّا محايداً لا يجوز تحصينه أو تسليحه . وتطبيقاً لهذه السياسة أيضاً كانت وقفة انجلترا فى الماضى إلى جانب تركيا ضد محمد على الـكبير حين آنست منه رغبة فى محالفة فرنسا ، وكان لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملا خطيراً فى تهديد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط لو انضم إلى فرنسا . واقتضت هذه السياسة أيضاً أن تعمل انجلترا قدر طاقتها على إضعاف النفوذ الفرنسى فى مصر والقناة ، حتى لا يفلت من يدها مفتاح البوابة الـكبرى التى اصطنعتها الهندسة الفرنسية وتحكمت بها فى الملاحة بين المحيطين الاطلنطى والهندى . وما فتئت انجلترا تعمل والظروف تؤازرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ، وما لبثت هذه أن ارتبطت مع انجلترا فى سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير . ولو أن اتفاقاً مثل هذا كان قد تم فى القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلا من انجلترا لتعرضت سيادة انجلترا فى البحر المتوسط لأعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التى اتبعتها انجلترا فى حوض البحر المتوسط إنجيلا آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التى تعاقبت على الحكم على اختلاف أراء رجالها ومذاهبهم السياسية . ففى عهد حكومة « الهويج » أو الأحرار القـدماء أيام الوزير پالمرستون استولت انجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة بريم ، وكلاهما تتحكمان فى مدخل البحر الأحمر من ناحيـة المحيط الهنـدى ، وما البحر الأحمر فى حقيقة الأمر بعد شق القناة ، إلا امتداد للبحر المتوسط . وفى عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلى (بيكنسفيلد) احتلت انجلترا جزيرة قبرص . وفى عهـد وزارة الأحرار برياسة غلادستون احتل الانجليز مصر ، وأخذ المصريون يجلون عن السودان تمهيداً لإعادة فتحه بأيدى المصريين والانجليز معاً .

وظلت انجلترا معتزة بمركزها فى البحر المتوسط ، لا يؤرقها همٌّ فاشى ولا يقضّ مضجعها كابوس نازى حتى أوشك فجر القرن العشرين أن ينبلج ، وعندئذ اختفى الخطر الروسى الذى كان وحده الشغل الشاغل للسياسة الانجليزية . فقد انهزمت روسيا أمام اليابان برًّا وبحراً فى سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا تتحدى انجلترا وتحل محل روسيا فى مناهضاتها للسيادة البريطانية . وحاول الإمبراطور وليم الثانى أن يمكن لألمانيا فى جزء من مراكش أسوة بفرنسا أو إيطاليا التى كانت تنصب شباكها وقتئذ لاحتلال طرابلس ، ولكن السياسة البريطانية كانت واقفة بالمرصاد ، فخبطت مساعى ألمانيا ولم تفد شيئاً من زيارة الإمبراطور لميناء طنجة عام ١٩٠٥ ، ولا من إرسالها إحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادير سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تنشب فى هاتين الأزمتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع انجلترا إلى نجدة فرنسا وإعلان عزمها صريحاً على منع ألمانيا من النزول بقواتها فى أى جزء من أرض إفريقية الشمالية . ولما أخفقت سياسة ألمانيا فى البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها فى إنجاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسى ، وكادت ألمانيا تصل إلى مبتغاها لو لم تنشب الحرب العالميه الأولى .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط سوى خطر سلاح الغواصات الألمانية ، وكان خطراً داهماً حقًّا فاجأت به ألمانيا العالم لا فى البحر المتوسط وحده بل فى المحيط الاطلنطى أيضاً ، وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها فى عرض البحار والمحيطات . وقد اضطرت انجلترا أمام هذا الخطر أن تحول ملاحتها من البحر المتوسط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن تشدد النكير على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحرى على موانيها .

وكان خطر سلاح الغواصات من جانب ألمانيا وتنفيذ مبدأ الحصر البحرى من جانب بريطانيا على المحاربين والمحايدين جميعاً من أهم المسائل التى استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، فما كادت بشائر النصرّ تلوح فى جانب الحلفاء على أثر انضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رءوس الملأ مبادئه

الأربعة عشر الشهيرة . وكان مما أعلنه فى النقطة الثالثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع فى الحرب وفى السلم إلا إذا كان الحصر البحرى نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولى .

ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أى نقد أو اعتراض من جانب الحلفاء عند ما كانت رحى الحرب تدور ، فإن شروط الصلح قد أغفلته فلم تشر إليه بشىء ؛ وذلك لتمسك انجلترا بذلك الحق الذى تستمده من تفوقها البحرى الذى يتيح لها فى زمن الحرب فرصة مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التى ترد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة .

ولما كانت انجلترا حريصة على التمسك بهذا الحق ، لاعتمادها الكلى فى موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ، ولاضطرارها فى مقابل ذلك إلى تصدير مصنوعاتها إلى الخارج ، ولأن الأسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء إمبراطوريتها الواسعة — فإن الدول المجتمعة فى مؤتمر السلم لم تجد مسوغاً لإثارة الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على مبدأ حرية البحار لا سيما أن تقرير مبدأ حرية البحار لا يهم الدول إلا فى أثناء الحرب ؛ وعلى ذلك وضعت معاهدة ڤرساى وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا البحرية لا فى البحر المتوسط ولا فى غيره من البحار .

وخرجت انجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد زادت مسئوليتها فى البحر المتوسط زيادة كلفتها دما غالياً ونفقات طائلة فى سبيل صيانته والذود عنه ؛ فقد حملت على عاتقها مهمة الانتداب على فلسطين رغم تعقد شؤونه بسبب مشكلة الوطن القومى لليهود ، وجعلت من ميناء حيفا وطرابلس نهايتين لأنابيب البترول الذى تنتجه العراق من آبار الموصل وكركوك — الأولى لإمداد السفن الانجليزية ، والثانية لإمداد السفن الفرنسية ، وكان هذا أهم ما أفادته انجلترا من انتدابها فى المشرق .

أما فيما عدا ذلك فلم تجن انجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية تعد من أعقد وأشد ما واجهه العالم من مشكلات الشرق الأوسط . ولو قد بر الحلفاء بوعودهم للعرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى فأقاموا اتحاداً عربياً مستقلا يجمع بين فلسطين وغيرها من الدول العربية المجاورة ، لما تفاقم خطر مشكلة الصهيونيين إلى الحد الذى نراه الآن ؛ لأن

اليهود الذين عاشوا مع العرب جيراناً وأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون أن يتفاهموا مع العرب رأساً على شروط إقامتهم دون حاجة إلى حشرهم حشراً فى ذلك الإقليم الضيق المجدب من الأرض، حتى أضحت فلسطين أضعف وأخطر حلقة فى مجموعة دول الشرق الأوسط.

وظلت الحال كذلك فى حوض البحر المتوسط حتى اكفهر جو السياسة الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيا وعصبة الأمم بهجومها على أثيوبيا، وباتت الحرب متوقعة بين إيطاليا وبريطانيا. ولكن موسلينى كان على يقين بأن بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب أوربية لم تتخذ لها عدتها، وبأن الرأى العام البريطانى الجانح إلى السلم لا يرضى أن يخوض غمار حرب طاحنة من أجل سبب ثانوى فى أهميته كالحبشة.

وعلى ذلك مضى موسلينى فى مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات الاقتصادية ولا بالتهديدات الجوفاء التى كانت تتناقلها الصحف إذ ذاك، كحشد الأسطول الإنجليزى فى ميناء الإسكندرية، وإمكان إغلاق القناة فى وجه إيطاليا. وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول فى النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع وقيام الإمبراطورية الإيطالية فى الحبشة.

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الإنجليز على الهاوية التى تردت فيها سياسة التأمين الجمعى التى ابتدعتها عصبة الأمم، فأدركوا أنه لا سبيل إلى تفادى الحرب المقبلة حتما إلا بالاستعداد لها؛ فقد كشفت الأزمة الغطاء عن ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة فى الجو والبحر؛ إذ تضاعف عدد غواصاتها إلى أربعة أمثاله، كما تضاعفت عدد مدمراتها، هذا فضلا عن السفن الحربية الصغيرة الخفيفة التى أنشأتها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل فى البحار الضيقة، وفضلا عن تحصينها جزيرة پنتللاريا بين مالطة وصقلية وساحل تونس.

وزادت الحال حرجا فى البحر المتوسط عند ما قامت الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين تؤيدهم إيطاليا وألمانيا، والجمهوريين تشد أزرهم فرنسا وروسيا، وكان البحر المتوسط مسرحا لعبت فيه القوى البحرية دوراً هاما، فاستطاعت إيطاليا أن تحتل جزيرتى ميورقا وابيزة من جزر البليار التابعة لأسبانيا. وقيل فى ذلك الوقت إنها تعتزم الاحتفاظ بميورقا حتى تقطع على فرنسا

خط مواصلاتها مع أملاكها فى إفريقية الشمالية . وكذلك احتلت ألمانيا ميناء فرول فى شمالى أسبانيا الغربى ، وحصنت ميناء سبته على ساحل مراكش الأسبانية فى مواجهة جبل طارق .

وعلى ذلك لم يبق شك فى أن توازن القوى فى البحر المتوسط قبيل الحرب الأخيرة قد اختل ، وأن سيادة بريطانيا فى هذا البحر أو على الأقل فى القسم الغربى منه قد أصبحت مهددة بأعظم الأخطار . ولم يعد ثمة شك فى أنه إذا قامت الحرب ، فإن فرنسا ستشغل بمصيرها فى أوربا وتترك بريطانيا وحدها تضطلع بمهمة الدفاع عن مراكزها فى البحر شرقا وغربا . وهيهات للأسطول البريطانى وحده أن ينال من قوى المحور مجتمعة فى بحر ضيق كالبحر المتوسط .

وفعلا ما كادت تندلع نيران الحرب وتنضم إيطاليا إلى حليفتها ألمانيا بعد كارثة فرنسا حتى أصبح حوض البحر المتوسط فى عزلة شبه تامة وخاصة فى قسمه الغربى ، واضطرت بريطانيا أن تحول خطوط ملاحتها حول رأس الرجاء الصالح ، واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور فى صيف سنة ١٩٤٣ ولقد كان لانهزام فرنسا ، وقيام حكومة فيشى بالاتفاق مع ألمانيا أثر كبير فى ضياع النفوذ البريطانى فى حوض البحر المتوسط ؛ إذ خسرت بريطانيا أسطول حليفتها القديمة فرنسا وأصبح الطريق إلى مصر واليونان ممهداً أمام إيطاليا . وما لبثت ألمانيا أن انقضت على البلقان فاكتسحت أمامها يوغوسلافيا واليونان ، ثم هاجم جنودها كريد من الجو واستولوا عليها فجأة بفضل تفوقهم فى الطيران ، وباءت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحرى الموقت على الأسطول الإيطالى فى موقعتى تارنتو وماتپان .

واستغل الألمان تفوقهم الظاهر فى البحر المتوسط فأنزلوا على سواحل ليبيا طائراتهم ودباباتهم وجيوشهم وعتادهم ، وزحفوا شرقاً مطاردين أمامهم القوات الإنجليزية . وكانت آلهة النصر فى ذلك الوقت تؤثر الألمان وترفرف فوق رءوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتلر وسط هالة من المجد يفاضل بين خطتين كلتاهما تدفعه إلى عرش السيادة العالمية ، إذ كان عليه أن يختار بين اختراق تركيا إلى آسيا ، ومهاجمة روسيا من الغرب .

وشاءت الأقدار التى لا تغلب أن يختار روسيا — تلك التى أذلت نابليون من قبل ، فأمر فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جبهة يبلغ طولها ألف ميل .

ثم لم يمض بعـد ذلك إلا أشهر حتى دخلت أمريكا الحرب ودارت معركة العلمين ، وكانت الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر ، فنزلت جيوش الحلفاء فجأة على سواحل إفريقية الشمالية من كازابلانكا ورباط على الأطلنطى ومن وهران والجزائر على البحر المتوسط ، وضاعفت أمريكا وانجلترا عملهما فى إنتاج الطائرات والدبابات وفى مكافحة الغواصات حتى فاق إنتاجهم ما كانت تستطيعه ألمانيا وأتباعها ، وكانت الحرب قد سلخت قرابة أربعة أعوام .

ثم جاءت فترة خشى معها الحلفاء أن تضع ألمانيا يدها على الأسطول الفرنسى الرابض أمام ميناء تولون فى البحر المتوسط . وفجأة انقلب أمير البحر الفرنسى دارلان على حكومة ڤيشى فأمر بضم الأسطول إلى جانب الحلفاء ، ولكن الضباط البواسل ترددوا بين سياستين كلتاهما شر ، فآثروا الموت على العار والاستسلام ، وأغرقوا الأسطول .

وبذلك استطاع الحلفاء أن يوالوا انتصاراتهم على طول ساحل إفريقية الشمالية ؛ فكان إيزنهور الأمريكى القائد الأعلى لجيوش الحلفاء يقف من مراكش شرقاً وألكسندر ومونتجمرى يطويان فيافى طرابلس غرباً ، حتى قضوا فى النهاية على قوات المحور عند تونس وبنزرت ، وأصبح الوثوب إلى جزيرتى پنتلاريا وصقلية ومنها إلى إيطاليا حقيقة متوقعة ، وقد كان منـذ شهور قليلة حلماً لا يصدقه العيان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمرين على جانب عظيم من الأهمية : أولهما أن الجزر فى البحر المتوسط معاقل وحصون لا تغلب ، وأن إخضاعها أمر محفوف بأشد الأخطار وبالغ منتهى الصعوبة ؛ فقـد ثبتت جزيرة مالطة أمام هجمات الأعداء المتوالية ، كما ثبت الألمان فى جزيرة كريد ، والطليان والألمان فى جزر الدوديكانيز ، ولم يستطع أحد الجانبين بلوغ مأربه حول هذه القلاع الرواسى ـ أما الأمر الثانى فاستخدام الطائرات لتكمل عمل الغواصات ؛ فقد ظهر أن تنسيق الجمع بين السلاحين فى بحر ضيق المسالك كثير الخلجان كالبحر المتوسط لا بد أن يتيح لصاحبه تفوقاً ظاهراً بدت آثاره جلية فى أثنـاء الحرب . وكان تفوق انجلترا فى شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التى ساعدت الحلفاء على الاحتفاظ بسواحل بلاد الشرق وإحباط مساعى الألمان فى آسيا .

من ذلك كله يتضح أن القول بأن البحر المتوسط مع قناة السويس هو بمنزلة

الشريان للإمبراطورية البريطانية وصف مبالغ فيه كثيراً ؛ فالشريان إذا انقطع أو بتر انعدمت الحياة . وقد برهنت الحربان العالميتان الماضيتان على استطاعة الإمبراطورية البريطانية أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن استعمال هذا الشريان مدة بلغت فى الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات . ذلك لأن هناك طرقاً أخرى تربط انجلترا بأملاكها وحلفائها ، وأهمها طريق رأس الرجاء الصالح ، وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط فى بدء افتتاح القناة .

وتتلخص الصعاب التى تواجهها بريطانيا فى حوض البحر المتوسط ، عدا ما ذكرنا ، فى أن أسبانيا لم تنس جبل طارق ، وأنه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على احتلال انجلترا لهذه القلعة الحصينة ، فإن الشعور الوطنى فى أسبانيا لا يستسيغ الاحتلال الأجنبى لجزء من أرض الوطن . ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوماً ما .

أما قناة السويس فإن عقد الشركة سينتهى فى سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح القناة ملكا لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التى حفرت فيها . ومع أن القناة طريق بحرى حر لجميع الدول فى السلم وفى الحرب ، فلا بد من تقرير هذه القاعدة فى معاهدات الصلح التى ستبرم قريباً حتى يزول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المنعقدة سنة ١٩٣٦ والتى انفردت فيها بريطانيا بميزة الدفاع عن القناة إلى جانب مصر . على أنهم مع ذلك يزعمون أن بريطانيا تفكر فى حفر قناة أخرى تصل بين العقبة فى شرق الأردن وغزة فى فلسطين ، حتى لا تتعرض مصالحها للخطر متى آلت القناة لمصر . وإنا لنستبعد إمكان تحقيق هذا الزعم ، لا لضخامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مسوّغ ، بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الأطلنطى التى تقول إن الصلح كفيل بأن يمكن للناس جميعاً أن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق . ومعنى هذا أن تكون المضايق والمسالك المائية جميعاً تحت رقابة مجلس الأمن ، فلا يعقل أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها . على أن مصر ستكون متى آلت إليها القناة حارسة لها بتوصية من مجلس الأمن وبرضاء بريطانيا وسائر أعضاء هيئة الأمم المتحدة .

وليس فى مالطة الآن أثر للحركة التى كانت ترمى إلى الانضمام إلى إيطاليا . وأما فى جزيرة قبرص فالسكان موالون للإنجليز ، ولكن الكثرة العظمى منهم تود الانضمام إلى اليونان أمهم الكبرى . وكذلك الشأن فى رودس وجزر الدوديكانيز التى كانت تابعة لإيطاليا ، ففيها أقليات من الأتراك ، ومعظم السكان يونانيون جنساً ولغة وديناً .

ولكن يبدو أن روسيا منذ اختل التوازن السياسى فى حوض البحر المتوسط بخروج الطليان من مضمار التنافس البحرى ، قد بدأت تحاول تصحيح الميزان وتطالب لنفسها بقواعد فى البحر المتوسط ؛ فقد ضاقت روسيا ذرعا بتجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة ، وتريد أن يكون لها منفذ إلى البحر المتوسط وقواعد فى مختلف أنحائه باسمها أو باسم حليفاتها . فإذا تشبثت تركيا بمفتاح البوابة الجانبية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على إقصاء روسيا عن الوصاية فى ليبيا أو رودس أو جزر الدوديكانيز ، فأكبر الظن أن روسيا ومعها أمريكا والدول الصغرى لن تهدأ لها ثائرة حتى ترى مفاتيح بوابات هذا البحر قد حطمت ، ومنافذه جميعاً قد أصبحت محايدة وحرة للجميع فى السلم وفى الحرب .

محمد رفعت

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

ميثاق الأمم المتحدة هو الدستور الجديد للعلاقات الدولية الذى صدر بمدينة سان فرنسيسكو فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه لسنة ١٩٤٥ بتوقيع مندوبى إحدى وخمسين دولة بعد مناقشة دامت ثلاثة أشهر لمقترحات دمبارتون أوكس التى كان قد أعدها ممثلون للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين خلال مباحثات جرت قرب مدينة واشنطن بين الحادى والعشرين من أغسطس والسابع من أكتوبر لسنة ١٩٤٤ .

وهو مكون من مئة وإحدى عشرة مادة ، وزعت على تسعة عشر فصلا تتقدمها ديباجة . وقد تضمنت الديباجة تقرير إنشاء هيئة دولية تسمى « الأمم المتحدة» كما تضمنت عهوداً قطعها الموقعون عن«شعوب هذه الأمم» على أنفسهم إنقاذاً للأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، وتوكيداً للإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية ، ودفعاً بالرقى الاجتماعى قُدُماً ، ورفعاً لمستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح ، وأخذاً للأنفس بالتسامح والعيش معاً فى سلام وحسن جوار ، وضما للقوى فى سبيل الاحتفاظ بالسلم والأمن الدولى ، وكفلا لعدم استخدام القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة ، وتوحيداً للجهود فى سبيل ذلك جميعاً .

وعالجت الفصول مقاصد الهيئة ومبادئها ، وعضويتها ، وفروعها ، وجمعيتها العامة ، ومجلس الأمن ، وحل المنازعات حلا سلميًّا ، وما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان ، والتنظيمات الإقليمية ، والتعاون الدولى الاقتصادى والاجتماعى ، والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ، والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى ، ونظام الوصاية الدولى ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة ، وأحكام متنوعة ، وتدابير حفظ الأمن فترة الانتقال ، وتعديل الميثاق ، وتوقيعه والتصديق عليه .

وينطوى الميثاق فى عمومه على فكرة التضامن العالمى فى سبيل إقرار الطمأنينة واطراد التقدم عن طريق التزامات ترتبط بها أعضاء الهيئة الدولية الجديدة . وقد قام نقاش فى لجنة المشاكل القانونية بمؤتمر سان فرنسيسكو حول الاسم الذى يطلق على «الأدوات» التى تحدد تلك الالتزامات ، وإن كان الأمر قد أصابها عن طريق غير مباشر ؛ لأن النقاش كان قد دار لمناسبة تسجيل المعاهدات ونشرها ، وكان قد دار حول تحديد المعاهدات التى يجب تسجيلها . فأشار البعض إلى وجوب قصر التسجيل على المعاهدات السياسية . وأُخذ على ذلك أن كثيراً من المعاهدات التى تبدو فى ظاهرها اقتصادية محضة تنطوى على أغراض سياسية . وانتهى رأى اللجنة إلى الاطلاق فى وصف المعاهدات ، وفضلت اللجنة عبارة « المعاهدات والاتفاقات الدولية » . وهذا الشمول فى التعبير هو الذى سنأخذ به نحن أيضاً فى هذا البحث .

ولقد ورد ذكر المعاهدات والاتفاقات فى أكثر من مادة من مواد الميثاق ، وفى أكثر من فصل من فصوله ؛ لأنه نظر إليها من عدة نواح ؛ فلاحت فيه متنوعة ، وأصبحت دراستها بالنسبة لأحكامه محل تنسيق وتبويب أوثر أن تكون طريقة عرضى لها هى طريقة التمييز بالموضوع .

والواقع أن ميثاق الأمم المتحدة قد ميز بين المعاهدات والاتفاقات الدولية من حيث مواضيعها ووزعها على ستة أنواع — : الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية ، والاتفاقات الخاصة بأعمال أزاء الدول المعادية ، واتفاقات الوصاية ، واتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى ، واتفاقات التنظيمات الإقليمية ومعاهدات الدفاع عن النفس .

أما الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية ، فهى التى يضعها المجلس الاقتصادى والاجتماعى مع التوكيلات التى تدعو هيئة الأمم المتحدة ذاتها إلى إجراء مفاوضات بين الحكومات التى تضطلع بمقتضى نظمها الأساسية بتبعات دولية واسعة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بذلك من الشؤون قصد إنشائها تهيئةً لشروط الاستقرار والرفاهية الضرورية لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم تقوم على احترام المبدأ الذى يقضى للشعوب بحقوق متساوية ويجعل لها تقرير مصيرها ، وذلك بتحقيق مستوى أعلى للمعيشة ، وتوفير أسباب الاستخدام المتصل لكل فرد ، والنهوض بعوامل التطور والتقدم الاقتصادى

والاجتماعى ، وتيسير الحلول للمشاكل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والصحية وما يتصل بها ، وتعزيز التعاون الدولى فى شؤون الثقافة والتعليم ، ونشر احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا .

وقد قضت المادة السادسة والخمسون من الميثاق بتعهد جميع الأعضاء بأن يتخذوا ما يجب عليهم من عمل مفرد أو مشترك بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة لإدراك المقاصد التى تعقد تلك الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية لأجل العمل فى سبيل تحقيقها ، كما نصت المادة الستون على أن مسئولية تحقيق هذه المقاصد إنما تقع على عاتق الجمعية العامة كما تقع على عاتق المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى ظل سلطان هـذه الجمعية العامة بمقتضى أحكام واردة فى الفصل العاشر من فصول الميثاق .

وأما الاتفاقات الخاصة بأعمال إزاء الدول المعادية فهى تلك التى تقرر إجراءات أو تدابير تتخذ ضد أية دولة كانت فى الحرب العالمية الثانية من أعداء أية دولة موقعة على الميثاق . والواقع أن أحكام الميثاق قد أطلقت هذه التدابير من القيود الحظرية ، فنصت المادة السابعة بعد المئة على أنه « ليس فى الميثاق ما يبطل أو يمنع أى عمل إزاء دولة كانت فى أثناء الحرب العالمية الثانيـة معادية لإحدى الدول الموقعة على هذا الميثاق إذا كان هذا العمل قد اتخذ أو رُخِّص به نتيجة لتلك الحرب من قِبَل الحكومات المسئولة عن هذا العمل » ، كما استثنت المادة الثالثة والخمسون من عدم جواز قيـام التنظيمات الإقليمية بأعمال القسر بدون إذن مجلس الأمن « التدابير التى تتخذ ضد أية دولة من دول الأعداء أو التدابير التى تكون فى التنظيمات الإقليمية قد قصد بها منع سياسـة العدوان من جانب دولة من تلك الدول » ، وإن كان هذا الاستثناء قد قيد باعتبار التوقيت ؛ إذ مضت المادة تقول : « وذلك حتى يحين الوقت الذى قد يعهد فيه إلى الهيئة بناء على طلب الحكومات ذات الشأن بمسئولية منع أى عدوان آخر من واحدة من تلك الدول » .

واتفاقات الوصاية هى التى تخضع بمقتضاها أقاليم معينة لنظام الوصاية الدولى الجديد الذى يهدف أساسيا إلى العمل على ترقية أهالى تلك الأقاليم فى شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتى أو

الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التى تعرب عنها بكل حريتها وطبقاً لما قد ينص عليه فى شروط كل اتفاق من تلك الاتفاقات ، وكذلك إلى كفالة المساواة فى المعاملة فى الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والتجارية لجميع أعضاء «الأمم المتحدة» وأهل الأقاليم المشمولة بالوصاية . على أن تكون هذه الأقاليم واحدة من ثلاث فئات : المشمولة الآن بالانتداب ، والتى قد تقتطع من دول الأعداء نتيجة للحرب العالمية الثانية ، والتى تضعها فى الوصاية بمحض اختيارها دول مسئولة عن إدارتها ، وعلى ألا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة ؛ إذ يجب — على حد نص المادة الثامنة والسبعين — أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة فى السيادة .

ويجب أن يشمل اتفاق الوصاية ، فى كل حالة ، الشروط التى يدار بمقتضاها الإقليم المشمول بالوصاية وأن يعين السلطة التى تباشر الادارة فيه .

ويجوز أن يحدد فى أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذى ينطبق عليه نظام الوصاية بعضه أو كله ؛ على أن تحقق الأهداف الأساسية لهذا النظام بالنسبة لشعب هذه المساحة ، وعلى أن يباشر مجلس الأمن ذاته جميع وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة للمناطق الاستراتيجية بما فيها الموافقة على شروط اتفاقات الوصاية وتغييرها أو تعديلها مستعيناً فى ذلك بمجلس الوصاية . أما فيما يختص بالمساحات التى لم ينص على أنها مساحات استراتيجية فإن الجمعية العامة هى التى تتولى مباشرة وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة لها مستعينة بمجلس الوصاية فى ظل سلطانها .

ولعل أهم أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية بالنسبة لميثاق هيئة الأمم المتحدة هو نوع اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى . وهيئة الأمم المتحدة إنما تتميز عن « عصبة الأمم » بتنظيمها الوسائل الفعالة لحفظ السلم والأمن الدولى الذى عهدت به لأهم فرع من فروعها وهو مجلس الأمن .

وقد نصت الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من ميثاق « الأمم المتحدة » على أن أعضاءها يعهدون إليه « بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته

التى تفرضها عليه هذه التبعات » . كما نصت المادة الخامسة والعشرون على تعهد أعضاء «الأمم المتحدة» بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها . وحرمت المادة الثانية عشرة على الجمعية العامة ذاتها أن تقدم أية توصية فى شأن نزاع أو موقف يكون منظوراً أمامه إلا إذا طلب هو منها ذلك .

وقد نظم الميثاق التبعات الملقاة على مجلس الأمن ، إذ جعله « مسئولا بمساعدة لجنة أركان حرب عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح ، وإذ جعل له أن يفحص أى نزاع أو موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعا لكى يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولى ، كما جعل لكل عضو من الأمم المتحدة أن ينبهه إلى أى نزاع أو موقف من هذا النوع ، بل جعل « لكل دولة ليست عضواً فى الأمم المتحدة أن تنبهه إلى أى نزاع تكون طرفا فيه » ، وإذ خصه بأن يوصى بما يراه ملائماً من الاجراءات وطرق التسوية فى أية مرحلة من مراحل النزاع أو الموقف الشبيه به ، كما ترك له هو بنص المادة التاسعة والثلاثين من الميثاق أن «يقرر ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملا من أعمال العدوان» ، وخوله بمقتضى المواد التالية دعوة المتنازعين للأخذ بما يراه ضرورياً أو مستحسناً من تدابير مؤقتة ، أو تقرير ما يجب اتخاذه من التدابير التى لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، أو أن يتخذ كما ورد فى نص المادة الثانية والأربعين — إذا رأى أن هذه التدابير لا تفى بالغرض أو ثبت أنها لم تف به — «بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولى وإعادته إلى نصابه » ؛ على أن يكون وضع الخطط اللازمة لاستخدام هذه القوات المسلحة من نصيبه هو بالذات بمساعدة لجنة أركان الحرب « وهى لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن — الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا والصين — ومسئولة تحت إشراف المجلس عن التوجيه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرفه ، ولها فى سبيل هذا التوجيه الاستراتيجى أن تنشىء لجانا فرعية إقليمية إذا خولها ذلك مجلس الأمن بعد التشاور مع التوكيلات الإقليمية صاحبة الشأن » .

وهذه القوات التى توضع تحت تصرف مجلس الأمن هى محل هذا النوع من

المعاهدات والاتفاقات التى سميناها «اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى» ، وقد نظمت ملابساتها وأوضاعها بمقتضى أحكام المواد الثالثة والأربعين والتاسعة والأربعين والخامسة والأربعين والرابعة والأربعين والسادسة بعد المئة

وقد قررت الفقرة الأولى من المادة الثالثة والأربعين مبدأ تعهد « جميع أعضاء الأمم المتحدة فى سبيل المساهمة فى حفظ السلم والأمن الدولى أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن طبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى ، ومن ذلك حق المرور» . وفرضت المادة الخامسة والأربعون أن يكون «لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوتها ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين » وقد نصت الفقرة الثالثة من هذه المادة الثالثة والأربعين على أن « تجرى المفاوضة فى الاتفاق أو الاتفاقات المذكورة بأسرع ما يمكن بناء على طلب مجلس الأمن ، وتبرم بين مجلس الأمن وبين أعضاء « الأمم المتحدة» أو بينه وبين مجموعات من أعضاء «الأمم المتحدة» ، وتصدّق عليها الدول الموقعة وفق مقتضيات أوضاعها الدستورية» . كما وضعت المادة السادسة بعد المئة نظاماً مؤقتا يعمل به «إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين معمولا بها على الوجه الذى يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء فى احتمال مسئولياته» ، وهو نظام التشاور يجرى فيما بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا ويجرى بينهن وبين سائر أعضاء الأمم المتحدة ، كلما اقتضت الحال للقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التى قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولى» .

وإلى جانب هذه الأحكام فإن المادة التاسعة والأربعين تنص على أن« يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التى قررها مجلس الأمن » ، كما تنص المادة الرابعة والأربعون على ما يتعادل مع مبدأ التضافر هذا من ضرورة دعوة العضو ، الذى يطلب إليـه مجلس الأمن — إذا ما قرر استخدام القوة — تقديم القوات المسلحة وفاء بالالتزامات التى ارتبط بها عن طريق اتفاق من اتفاقات حفظ السلم والأمن العالمى ، إلى أن يشترك فى القرارات

التى يصدرها المجلس فى ذلك الصــدد إذا لم يكن العضو المذكور ممثلا فيه .

ثم تجىء التنظيمات الإقليمية ، ولا يحول الميثاق دون معالجتها ومن الأمور المتعلقة بحفظ السلم والأمن الدولى ما يكون العمل الاقليمى صالحا فيها ومناسبا مادامت هذه التنظيمات وأنواع نشاطها متلائمة مع مقاصد « الأمم المتحدة » ومبادئها . ولـكن الميثاق حدد هذه المعالجة التى يعترف للتنظيمات الاقليمية بالقيام بها ، إذ قصرها على «تدبير الحل السلمى للمنازعات المحلية» قبل عرض هذه المنازعات على مجلس الأمن ، سواء أصدرت تلك المعالجة من تلقاء نفس المنظمة أو بناء على طلب المجلس ، وإن كان قد احتفظ لنفسه بحق استخدام تلك التنظيمات فى ظل سلطانه كلما رأى ذلك ملائما فى أعمال القسر ، مع حرص المادة الثالثة والخمسين من الميثاق على النص على أنه « لا يجوز القيام بأى عمل من أعمال القسر بمقتضى التنظيمات الاقليمية أو على يد التوكيلات الإقليمية بدون إذن مجلس الأمن » إلا فى حالة التدابير التى تتخذ ضد دولة من دول الأعداء على حد ما أشرنا إليه من قبل ، وذلك كله على أن « يحاط مجلس الأمن فى كل وقت إحاطة تامة بما يجرى من الأعمال أو يزمع القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولى » كنص المادة الرابعة والخمسين .

على أن الاتفاقات الاقليمية التى أورد الميثاق بخصوصها تلك الأحكام الواضحة الدقيقة فى مواده لا تحظى بتعريف يحددها ويعين معالمها . وقد لاحظت مصر هذا النقص ، فضمنت ملاحظتها على مقترحات دمبرتون أوكس مطالبة بإيضاح ما يجب أن يتوافر فى التنظيمات الاقليمية من عنصرى التجاور الجغرافى واشتراك المصالح ، وتقدم وفدها فى مؤتمر سان فرنسيسكو فعلا باقتراح إضافة فقرة جديدة إلى فقرات المادة ٥٢ من الميثاق يكون نصها :

« تعتبر اتفاقات إقليمية الهيئات الدائمة التى تضم فى منطقة جغرافية معينة عدداً من الدول تجمع بينها روابط التجاور والمصالح المشتركة والتقارب الثقافى واللغوى والتاريخى والروحى ، وتتعاون جميعاً على حل ما قد ينشأ من منازعات حلا سلميا وعلى حفظ السلم والأمن فى منطقتها وحماية مصالحها وتنمية علاقاتها الاقتصادية والثقافية . »

ولـكن لم يحظ هذا التعديل بموافقة اللجنة المختصة . وحتى دول أمريكا

اللاتينية التى كانت قد قدمت اقتراحا فى نفس المعنى نزلت عنه وصوتت ضد الاقتراح المصرى . وكانت حجة الولايات المتحدة فى دفع هذا التعديل أن كل تعريف تضييق ، وأنه مع التسليم بما فى التعريف المصرى من الضبط ودقة الوصف فإنه يخشى أن يخرج من التنظيمات الإقليمية ما قد يجب أن يدخل فيها .

ويتصل باتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى وباتفاقات التنظيمات الاقليمية أوثق الاتصال نوع أخير من أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية ، هو نوع معاهدات الدفاع عن النفس التى ورد ذكرها فى المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق ونصها :

« ليس فى هذا الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعى للدول ، فرادى أو جماعات ، فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى . ويبلغ المجلس فوراً التدابير التى اتخذها الأعضاء بمباشرة حق الدفاع عن النفس . ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فى سلطة المجلس ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولى أو إعادته إلى نصابه . »

وقد كان هذا النوع من المعاهدات هو الآخر محل مناقشة فى لجان مؤتمر سان فرنسسكو ، وكان لمصر موقف بصدده كذلك .

ذلك أن حق الدفاع الجماعى قد بسط أثناء المناقشات على مواثيق المعاونة العسكرية وبوجه خاص على المعاهدات المعقودة بين الاتحاد السوفيتى وكل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . فطلبت مصر إيضاح مدى حق الدفاع الجماعى ، وبينت أنه إذا كان هذا الحق يشمل المحالفات العسكرية فإن من الضرورى ن يقصر نطاقه على مواثيق المعاونة العسكرية التى تعقد بين دول متجاورة ليصح عليها وصف التنظيمات الاقليمية . وهنا صرحت الولايات المتحدة بأنه كان المقصود أصلا أن حق الدفاع الجماعى لا ينصرف إلا إلى التنظيمات الإقليمية بالمعنى الصحيح . إلا أنه أثناء المفاوضات بسط نطاقها بحيث شمل المحالفات العسكرية التى تقرر الهيئة الجديدة أنها تتلاءم مع الميثاق .

وبتقريب هذا البيان الذى نقلناه حرفيًّا من تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى المنعقد فى سان فرنسسكو والمقدم للبرلمان المصرى فى شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ ، بتقريب هذا البيان من نص المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق تكون معاهدات الدفاع عن النفس خاضعة صحتها لتوافر الشروط التالية :

أولا — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .

ثانياً — ألا تكون أحكامها نافذة إلا فى حالة الاعتداء الفعلى بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .

ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند نفاذها موقوتاً إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى .

رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التى يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .

خامساً — أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق .

تلك هى أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية المتصلة بهيئة الأمم المتحدة ، وتلك هى أحكام ميثاق الأمم المتحدة فى صدد قيامها ونفاذها . وإن هذه الأحكام لتنطق بالاتجاه الدولى الجديد ، اتجاه التعاون العالمى والتضافر فى سبيل المشاركة السلمية عن طريق الهيئة الجديدة وتحت إشرافها ، وإخضاع العلاقات بين الشعوب والأمم فرادى وجماعات لاعتبار التفاهم المتبادل الخالى من كل ضغط فى الحظيرة الدولية ، وعدم الانفراد فى معالجة غير الشؤون الداخلية البحتة ، أو على حد تعبير الفقرة السابعة من المادة الثانية من الميثاق « عدم تدخل الأمم المتحدة فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » ، وكذلك عدم السماح لدولتين أن تحددا بينهما علاقات تتصل بالسلم والأمن الدولى فى غير نطاق الميثاق ودون علم مجلس الأمن ، وبعض الأحايين دون إذنه . وهى لا تعترف مثلا بمساحات استراتيجية تتصل بها أكثر من دولة واحدة إلا فى الأقاليم المشمولة بالوصاية ليس غير ، وهى أقاليم يطبق عليها نظام دولى تشرف عليه « هيئة الأمم

المتحدة ». ومنصوص على عدم تطبيقه على أعضاء هذه الهيئة المتساوين في السيادة .

وقد شاء الميثاق أن يؤكد ذلك الاتجاه الجديد ويقضى على ما قد يقوم بين الالتزامات الناشئة عنه والتزامات غيره من الأدوات الدولية من تعارض، كما حرص على أن يراقب ما قد يعقد بين بعض الدول من اتفاقات تخالف أحكامه، فنص فى مادته الثالثة بعد المئة على أنه « إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به، فأبعده بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق» . ونص فى مادته الثانية بعد المئة على أن كل معاهدة وكل اتفاق دولى يعقده أى عضو من أعضاء الأمم المتحدة بعد العمل بالميثاق يجب أن يسجل فى أمانة الهيئة وأن تقوم بنشره بأسرع ما يمكن. وليس لأى طرف فى معاهدة أو اتفاق دولى لم يسجل أن يتمسك بتلك المعاهدة أو ذلك الاتفاق أمام أى فرع من فروع الأمم المتحدة» .

وكانت مصر قد تقدمت فى صدد تعارض الالتزامات باقتراح النص فى صلب المادة المتعلقة به على «أن المعاهدات السابقة التى تتنافى مع الميثاق تعتبر ملغاة أو واجبة التعديل» . واحتدمت المناقشة فى هذه المسألة وطالت أكثر مما حدث فى غيرها من المسائل، وانتهى الأمر بصياغة المادة الثالثة بعد المئة على ذلك النحو الذى يؤدى فى عموم أسلوبه إلى تحقيق الاقتراح المصرى فى خصوصه « وما دامت العبرة بالالتزامات المترتبة على الميثاق فإن ما يتعارض معها من التزامات سابقة أو لاحقة لا يكون له شيء من الاعتبار » .

على أن مصر لم يفتها عند مناقشة اختصاصات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة أن تثير الموضوع عن طريق اقتراح تخويل هذه الجمعية حق التوصية بناء على طلب أى عضو لاعادة النظر فى المعاهدات التى أصبحت غير قابلة للتطبيق . وانقسمت الآراء أزاء الاقتراح المصرى بين مؤيد ومعارض ومحايد . وحاولت الولايات المتحدة إقامة التوازن بين اتجاهى التأييد والمعارضة، وأعلنت أن النص على تسوية أى موقف تسوية سلمية أياً كان منشؤه يجب ألا يحمل على معنى نفى حق الجمعية فى إعادة النظر فى المعاهدات، بل إذا نشأ عن قيام معاهدة ما موقف ترى الجمعية أنه يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم فللجمعية أن تشير بما تراه فى هذه الظروف . وطلبت بلجيكا إثبات هذا

التفسير فى المحضر ، وأيدتها مصر فى هذا الطلب الذى يحقق ما طلبت على اعتبار أنه يكفل إعادة النظر فى المعاهدات .

وبعد ، فلعلنا بهذا البحث أن نكون قد ساهمنا فى إنارة الطريق أمام الذين يتلمسون الآن فهم القواعد التى تقوم عليها معاهدة فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة .

محمود عزمى

أحلامى الضائعة

أين أحــلامى التى أبدعتُها
من هوى نفسى ، وأشواق فؤادى ؟
قــد تهاوت كورود غضَّة
ألقتِ الريح بها فى كل واد !
فإذا الدنيا — وكانت جنــةً —
أصبحتْ صحراء غرقى فى الســواد
يا لهـا من محنــةٍ قاسـية
أذهلتْ قلبى وألْوتْ برشادى !

أنظرى أحــلامَ قلبى . . . إننى
صرت أحيا بين آلامى وحيــدا
فى ربيع العمر . . . فى فجر الصِّبا
قد دفنتُ الأُنس فى قلبى وليــدا
وأصــاب العقمُ نفسى ! ويحهــا
لا أراها تُبـدع اليوم جـديدا !
ليت شـعرى ما بقائى ، وأنا
لم أزل أحــيا على الدنيـا شريدا ؟

كيف أحيا بعد أن ضاعت سُدًى
هذه الأحلام من عمرى الحزينِ ؟
إنها صــورة دنيــاى التى
تحــلم النفس بهــا فى كل حين
صاغها الشــوق ، وجلاَّها الهوى
فإليهــا أبدَ الدهر حنينى
ليت شـعرى كيف أرجو بعــدها
فرحةَ الباكى ، وآفاقَ السـجين ؟

رُبَّ ليـــل قــد طوانى موجه
مثلما يطوى مُنَى النفس الفنــاء
لم أجــد لى عاصماً من أمره
غــير أحــلامى بآفاق السماء

فتسـاميت إليهـا شاكياً ... وحشةَ الليـل ، وأحزانَ المساء
فإذا دنيـا كما شاء الهـوى ... كلهـا نور ، وأنس ، وغناء

ونهـارٍ ترتمى ضـوضاؤه ... كغبار يُرتمى فوق الزحامْ
لذّتُ منـه بمكانٍ مُفردٍ ... يتسـامى عن ضـلالات الأنام
فهفـا قـلبى إلى أحـلامه ... وهْـو للحب مشـوق مستهام
فإذا دنيـا كما شـاء الهوى ... كلها صـفو وأمن وسـلام

أعْوِلِى يا روحَ أيامى كما ... تعْوِلُ الريح ، وضجِّى بالنحيبِ
وارفعى شـكواك لله الذى ... جمَّل الدنيـا بأحـلام القلوب
غُلِبَ القـلبُ على أحـلامه ... فهْـو يحيـا فى ضلوعى كالغريب
كيف يحيا الجسم فى فجر الصِّبَا ... إذ يعيش القلب فى ليـل المشيب ؟

آهِ كم يغلبنى الحزن ! وكم ... تستبدُّ الوحشـة الكبرى بحسّى
حينما أمضى مع النـاسُ سُـدىً ... وإذا أبقى وحيـداً مع نفسى !
ومقيماً بين أهـلى .هاهنـا ... وغريبـاً بين آلامى ويأسى
ليتنى أجْـرَعُ حـزنى مرةً ... ثم ألقى فى مهاوى العمر كأسى

إيه أحـلامى ! وداعاً ، وغـداً ... نلتقى ... لكن متى؟... بعدالحصاد !
حين يبـدو حقل عمرى مقفراً ... باردَ الأيفاع ، مقرورَ الوهاد !
فتلفَّـتُّ بقـلب مُرْتَعش ... أبتـغى دفئاً لروحى وفؤادى
وتراءيتِ رماداً دافئـاً ... فتهـاويتُ بقلبى فى الرماد !

وسـألقاكِ إذا حانَ الردى
فغـدا يُحصر بالأنفـاس عمرى !
وإذا النـاسُ — وأهـلى فيهمو —
أصبحوا - فى الموت - يُعْنَوْن بأمرى
ففـريقٌ عنـد رأسى جازعٌ
وفريقٌ فى الثرى يَحفـر قبرى !
وتراءيتِ خيـالاً شـاحبا
فكأنى لا أرى إلا بفكرى
فهفـا قلبىَ ، وامتـدّتْ يدى
علّها تُدنيك من خفّاق صدرى
ثم حالت بيننـا أيدى الردى
ثم ماذا ؟ لست أدرى ! لست أدرى !

ابراهيم محمد نجا

رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التى يراها القارئ بعد مظهر واضح جلى من مظاهر التطور الذى أتيح للنثر العربى ، وتم تمامه على يد الجاحظ فى القرن الثالث للهجرة ؛ إذ اقتحم على الشعر أبوابه ، وشاركه فى ميادينه ، وجعل ينافسه عليها منافسة قوية رائعة . وقد ظل الشعر زماناً مستأثراً بالمعانى الفنية ، منفرداً بالتعبير عنها ؛ إذ كان اللغة الغنائية الوحيدة التى يتغنى بها الرجل فى آلامه وآماله ، وفى حبه وبغضائه ، وفى نشواته العصبية المختلفة ، لا تشركها فى ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور ، وكيف انتهى إلى غايته ؛ فلسنا هنا إلا بصدد التقدمة لهـذه الرسالة ، والاشارة إلى بعض وجوه الخطر التى تمثلها — هى ونظائرها — فى تاريخ « العبارة الفنية » فى اللغـة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ أن ينقل موضوعات الشعر إلى النثر ، وأن يتيح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقا أرحب ، وعبارة أسمح ، وتجاوبا مع النفس العربية الجديدة — التى صقلتها الحضارة وأرهفها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربى حين لم تعد تكفيه وتقنع رغباته الواسعة تلك المعانى المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر عنه ، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من « العبارة الفنية » المتوسطة بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتصطنع خصائصهما ، على النحو الذى نراه فى هذه الرسالة التى كتبها فى « رثاء » صديق له .

والرثاء فن شعرى ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولـكن الرثاء فى هـذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منـه فى قصائد الشعراء . فهو يجئ هنا فى سياق صورة مفصلة لشاب اخترم فى عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ « الموت » فى جميع حالاته وملابساته ، منـذ أخذت بوادره تتدسس عليه إلى أن غيب فى قبره . ومن ذلك كانت إثارته « الحزن » بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهى تنطوى بطبيعتها على العناصر الأصيلة للحزن . أما رثاء الشعراء فهو — فى كثير من حالاته — أشبه شئ بندب النوادب ونواح النوائح ، وكذلك ما يثيره من الحزن ، إنما يجئ من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء فى الشعر ، فى ناحية « التأبين » أو تمجيد الميت . فالجاحظ إنما يصور مآثره وفضائله فى خلال تلك الصور ، فيجئ بها متسلبة ، اتشحت بالحـداد والتفت بالسواد ، لا مستقلة منتزعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن — كثيراً — فى الشعر ، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر حاضرة، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة المضى .

وقد أخذنا هذه الرسالة من كتاب : « المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ » ، وهو مخطوط محفوظ فى مكتبة برلين . وقد وردت فيه غير معنونة ، كما هو الشأن فى محتويات هذا الكتاب ، وقد تكون هى الرسالة التى يذكرها ياقوت فى فهرست كتب الجاحظ باسم : « رسالة فى موت أبى حرب الصفار البصرى » .

وها هى ذى ، بعد أن صححنا نصها جهد الطاقة . وقدر ما تأذن الروح العلمية فى النشر والتصحيح .

طه الحاجرى

ورد علىّ — أسعدكَ اللهُ — كتابُك ، تذكر فيه بُرءَك من شَكْوِك ، وتَسْتريبُنى فى ترك الكتاب إليك ، وأنت غافِل عما جرت به الأقدار ، وأصاب به الدهر ، وقرعت به المنون ، وطرَقت به الحوادث . ولم أبطئ بكتابى عنك — أكرمك الله يا أخى — إغفالا لحقك ، ولا قلّةَ منازَعة من نفسى لمحاورتك ؛ ولكنه شغلُ البال ، ورَيْب الحدَثان ، وتقلُّب الأزمان . فإنى قد أصبحت كما قال الشاعر :

لم يترك الدهر لى عِلقاً أَضنُّ به إلا اصطفاهُ بموت أو بهجران

وقد هاجنى على الكتاب إليك مُعتلجات الهموم ، مُبثّا لك بعض ما فى صدرى ، استراحةَ المكروب ، ونفثَ المصدور ؛ فقد أصبحت رَصَداً للمهلك ، وبمدرَجة العطَب ، وبمشرب السُّمُوم ، وبِحَسْى الموت . وأحسب هُلْكَ أبى فلان — رحمة الله عليه ورضوانه ، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى لديه — قد نَمى إليك وبلغك . وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ تأدّباً بأمره ، وتعرُّضاً لموْعوده . ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وقد رأيت تعريفك كُنه خبَره ، فافهم — رحمك الله — واجتهد فى أن تكون السعيد الموعوظ بغيره .

وقد كنت عاينت شَكْوَه ، وفارقته عليه فى غرّة شهر رمضان . ثم تزيّد فى جَهد العلّة وفى حِدّتها ، وكان اليأسُ منه والخوف عليه ، أقوى من الرجاء له والطمع فى سلامته . ثم انحدرت العلّة ، وأطمع فى الإفاقة ، وتزيّد فى الإطماع ، وتحلّل السُّقم وشدّة المرض ، واستبشر مؤمّلوه العافية له ببرئه . فلم يزل يتزيّد فى صلاح الحال ، ورجوع القُوى ؛ حتى إذا أكل ما اشتهى ، وركب ومَشَى ، وخرج إلى البستان ، وثابت نفوسنا من الإشفاق ، وزال

عنه القلَق والحِذَارُ، وعاوده الأمل والاغترار، وقال لى فى بعض مناجاته، واستجلابه العافية، واستلذاذه مُعاودة الصّحة: «إخالُنى قد نجَوت، وأرانى قد أقلبت» مبتهجاً مسروراً؛ كما قال الشاعر:

إذا بلّ من داء به خال أنّه   نجا، وبه الداء الذى هوَ قاتِلُهْ

على أنه — يرحَمُه الله — فى ذلك كَمِدُ اللون، نحيف الجسم، مضطرب المِزاج، متغيِّر عن الاعتدال، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده، ويجلس بفنائه.

ثم تغيّرت به العلة؛ فدخلتُ عليه، فاذا نفسُه قوية، وطبيعته جيّدة، وعلّته غير منكرة؛ فسألته، فردّ جواب فسيح الأجل، قوىّ الرجاء، بغير انكساف بال، ولا وَجلٍ من وَشْك ارتحال. وظلّ يومَه ذلك على حاله من الصلاح. فلمّا أصبح دعا بسِوَاكه، فاستنّ به، فبينا هو يمرّ بالسواك على ثغره أنكرت أمه ضعف يده، فقالت: «مالك؟»، فقال: «ما أدرى! إنى لمنكرٌ نفسى. بادِرونى بالنزول»، فبودِر به. فلما صار على الدَّرَج منحدراً على قدَميه، عنّ له الموت مُطِلاً، وطرَقه ما كان يهرُب منه طويلا، وفاجأه الذى راغ منه مجتهداً، وبغَته ما لم يجد عنه مَوْئلا. فسقط سَقطة لم تكن بعدها إقالة، فشخَص لها بصره، واضْطربت جَوارحه؛ واحتُمِل إلى قَرار منزله على تلك الحالة الهائلة؛ لا يسمع الدعاء، ولا يحفل بالبكاء؛ ولا يردّ الجواب، ولا يعبأ بالأحباب. فدخلت عليه، وهو كما قال مطيع بن إياس:

وينادونه، وقد صَمّ عنهم   ثمّ قالوا — وللنساء نحيبُ —:
«ما الذى عاق أن تُحِير جوابا   أيها المِقوَل الخطيب الأريبُ؟»

فبُعِث إلى أهل الطبّ والمعرفة؛ فأتوا، فرأَوْا حالاً فاتت التلافى، وخرجت من العِلاج، وسبَقت الاستِدراك؛ فعلّلوهم وانصرفوا، ولم يقضوا فيه قضاء!

وهو فى ذلك مشغول بجهد نَفْسه، وكَرْب غيره، ونَزْعه وشدّة نَفَسه، والموت يقبِضه ويبسُطه، كالثوب عند الطىّ والنشر، صَريعاً مُستسلماً، أسيراً منجدِلا، قد خذله الولَد والوالد، والحميم والصديق؛ فأكثر ما عندهم

الحسرة والتلهُّف، والاستكانة والنشيج. فمكث يومه ذلك؛ ثم حُمَّ حمَّى مُدْنِفة، وفاظ فى آخرها، وورد حيث وُعِد، وزَهق الباطل. فعَجُّوا وضَجُّوا، وهتفوا وولْولوا. جهدٌ لعمرك قليل الردّ.

ولَنْ يرجع الموتى حَنينُ المــآتم

فيالله معتبَطا ما أغضّ وأطرى، وأىّ فتى رحل عنا، كما قال الهُذَلىّ:

فِراقٌ كقَيْص السِّنِّ، فالصبرَ، إنّه لكلِّ أناس عَثرة وجُبورُ

ثم دخلنا لنغسله، وهو شِلْوٌ على سريره، طريح على مُغْتَسَله، لَقَى لوجهه، تقلّبه الرجال بأكفِّها ظهراً لبطن، كما قال يزيد بن خذّاق:

ورجّلونى، وما رُجِّلتُ من شَعَث وألبسونى ثياباً غيرَ أخلاق
ورَفّعونى. وقالوا: أيما رجل وأدْرَجونى كأنى طىُّ مِخراق

ثم أخرج — والله — من طارفه وتليده صِفرا؛ ولو ردّوه ما كان له فيه غِنًى، ولا قُبِل عنه فِدا. ثم أُدرِج فى لفائفه، وحُمِل على نعشه؛ ينقله إخوانه وخُلْصانه، وأحِبّاؤه وأصفياؤه، وأنا أحدهم يا أبا محمد؛ فما رأيت كذلك المنظَر منظرا، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندى عِىّ، فكيف بنا ونحن أهل خاصّته ومودته.

ولو رأيت أمّه البائسة مرفوعةَ الحجاب، ظاهرةً للرجال، قد عزّها الجزَع فما أبقى، ورماها فما أشوَى، وجلّ الخطب أن تتعزّى، حَيْرى ثكلى، أمّ واحد، ومفجوعَةٌ فاقد؛ لأنه — رحمه الله — كان من أشدّ الناس عليها حنوّا، وألطفهم بها برّا؛ حتى لو عددته لملأ الكتاب، ولما استكثر معه برّ طاق بن حَبيب، ولا بر محمد بنِ طلحةَ السجّاد بأبيه.

ولو رأيت حُرَمه اللائى كان يستُرهنّ: من جارية نفيسة، وأمة محبوسة، وحُرمة مقصورة؛ قد هتكن أستارهن؛ وبدت خِدامهن؛ كقوم حلّ بهم السِّباء، وكُتب عليهم الجلاء؛ كما قال الربيع بن زياد:

قد كن يخبأن الوجوه تستّراً فالآن حين برزن للنظـــار

ولو رأيت ابنته بها ذلُّ اليُتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتذلةً غير مصونة ، مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرةَ الوجه والقدمين .

ولو رأيت أباه ، وإنّ دموعه لمراقة ، وإنّ يديه لترعد ، كأن به أفكلاً من شدّة الجزع ؛ فأما علّة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابرَ الأيام : ولو لم يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبرّ به .

ولو رأيت ابنه لرأيت عَبرة لا ترقأ ، ودموعا لا تغيض ، سَخين العَين ، حرّان الصدر ، فائض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يُخالِس دموعه ، ولا يتجلّد للشامتين .

ولو رأيت نَداماه ومُؤمِّليه حَيارى لا يدرون على أيّ خِلاله يأسفون : أعلى حُسن عِشرته وكرم مَجلسه ، أم على طيب خلُقه وصدق صفاته ، أم على نجدته وشهامته ، أم على مُداراته ومُروءته ، أم على حِلمه ومودّته وأدبه .

وما رأيت سريرا شيّعه من المترحّم والباكي ، والمتفجّع والداعي ، والمؤبّن والمُثْني ، ما صحبه ؛ حتى أسهل عليّ بعض الحزن ما سمعت من حسن الثنا ، وطيب النثا ؛ فمن باكٍ على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ، وامتلاء جسمه ، وحداثة سنّه ؛ ومن مُلتَثّ بالحنين ، مكروب بالأسف ، مُشْجًى بالغصّة ، غصّان بسرعة الاخترام ومعالجة المنية .

وما سمعت مُراجعاً خبرُه بعد موته في مثل سنّه ، أجمعَ لكلّ مكرُمة ، وآخَذَ لكل صالحة ، وأضمّ لكلّ شاردة ، وأحفظ لكلّ ضائعة ، وأرعى لكلّ مُهْمَلة ، وأضبط لكل منفلتة ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والأفعال النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان - رحمة الله تعالى عليه - فمضى .

كأنْ لم يقل يوماً مقالا فَتَنْثَني ... إلى قوله الأسماعُ وهي رَوانِغمُ

ثم وُضع سريره بفِناء مسجد الوَصيّ ، فصلّى عليه جعفر بن القاسم ، ومن حضَره من النسّاك والعبّاد والأشراف ، تحفِزهم علل غير واحدة ، أصغرها الرحمة له . ثم انطُلِق بنعشه الى حفرته ، خوّار العود ، قليل الامتناع ؛ كما قال مالك بن الريب :

خُذاني فجرّاني بِبُردي إليكما ... فقد كنتُ قبلَ اليوم صعباً قياديا

ثم نُضِدَ عليه اللَّبِن، وسُدّت خلاله، وأهيل من جوانبه التراب، بعين الشفيق، ومحنة الوادّ، وحسرة الصديق، ومحضر الوامق؛ ثم لم يلبثوا أن ودّعوه وانصرفوا.

وقال قائلُهم حتّى متى نقفُ.

وأنا أقول قولا أخرج من النوح به، ولا أخشى الكذب من الإغراق فيه:

لئن كانت المنايا جعلته غرَضاً للانتضال، لقد جعل القيامة غرضاً لصالح الأعمال. ولئن أصبح شمله مبدّدا مقسّما، لقد أصبح شمل حمده مجموعا. ولئن كان ابْتكَرَهُ الإزعاج، لقد ابتكر الهِمَم الرفيعة بالانتهاز والابتدار. ولئن شُهر موتُه في المصر، لقد شهرت مَكارِمه في الجمع. ولئن خَفِي جسمه في التراب، لقد خفِي نظيرُه في الأرض. ولئن اغْتَبطه الموت، لقد كان وُدّه لصديقه غضّا. ولئن واثبه الموت مُغافِصاً، لقد واثب المعالي مفترساً. ولئن انقطع أثرنا من زيارته، لقد بقي عندنا من أثر نعمته. ولئن كان على قلب الصديق خفيفاً، لقد كان على كاهل عدوِّه ثقيلا. ولئن خربت مجالسنا من شخصه، لقد عمَرت قلوبنا بذكره. ولئن انقطعت مَسائلُنا له، ما انقطعت مسائلنا فيه. ولئن بكيتُ عليه لأجدَنَّ مَبكىً، ولئن احتسبتُ لفي مثله يُحتسب.

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيتُه عليه، ولكنْ ساحةُ الصبر أوسعُ

ولئن قصُرت مدّة الإمتاع به، ما قصرت مدة الحزن فيه. ولئن ارتحلَ عنّا وَشِيكا، لقد أثوى في قوبنا الأسف طويلا. ولئن كان عرَّضنا للصبر بموته، لقد عرَّضنا للشكر بحياته. ولئن دَنوتُ من الناس بعده، وقَرُبتُ من جنابهم، تسلّياً عن بعض الكمد، وتَنْفيساً عن حَرارة الغَلَل، إني في ذلك لكما قال الأوّل:

فإن أغْشَ قوماً بعده أو أزورُهم فكالوَحْش يُدنيها من الأنس المَحْلُ

ولئن أشِر الباغي، وفرح العَدوّ، وسُرَّ الحاسد، وطفر الشامت، وجذل المُبغِض، واسْتَبْشر القالي، ما تعزّينا في ذلك إلا بقول عديّ بن زيد:

أيها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ، أأنت المبرَّأُ الموفورُ؟

ولئن تجلدت للشامتين ، وتزينتُ للعيون ، وأصلحتُ من شَعرى وثيابى ، وركوبى ولباسى ، فكما قال الأول :

وإنىَّ ، وإن أظهرتُ صبراً وحِسْبة   وصانعتُ أعدائى ، عليكَ لَموجَعُ

ولئن رُمينا من الدهر بالجُلَّى ، لقد سهُلت علينا مَؤونة الصغرى ؛ فنحن فى فقدنا له كما قال الأول :

وكنتُ أعيرُ الدمعَ قبلك مَن بكى   فأنتَ على من مات بعدَك شاغِلُه

ولئن قلت : إنه قصّ الجناح ، وجذَم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم الناب ، وحطم الصُّلب ، وفلَّ الحد ، وأوهن المنّة ، وأضرَم الأحشاء ، وعقَل اللسان ، وأهاج المتبلد ، وأعاش الحَيرة ، وأمات الذكاء ، ونزع الرغبة ، وأورث السلوة ، وبرَى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج الكآبة ، لأصدُقَنَّ ، بل لأقصِّرن عن نهاية ما بلغ .

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله على نوائب الدّهر ، ومكاره الأيام ، ومَرارة العيش ، وتجرُّع الثكل ، واعتراض الشجا ؛ اصطبارا واستسلاما ، ورجوعاً الى أمر الله ، وتمسكا بمراشده .

فإن تكن الأيّام فرّقن بيننا   فقد بانَ محمودا أخى يومَ ودَّعا

يا أبا محمد أصلحك الله ففيم التربص والانتظار ، وعلامَ الفَرْجة ؟ إنما الدنيا كأهل دار متى نَفَر أوَّلهم تلاحَقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الرَّكْبَ وُقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أو ما تعلم أننا رهائن بأنفسنا ، فكيف لانسعى فى فكاكها ! أوَ ما تعلم أننا مُنتدبون لحَلْبة التشمير ، فما الوَنى والتأخير ! فنشدتك الله تعالى ونفسى فى التشدد والتخوف .

فما نحنُ إلا مِثلهم ، غيرَ أننا   أقمنا قليلا بعدَهم وترحَّلوا

بين العلم والأخلاق ؟

اشتدت الحملة على العلم فى عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين من غربيين وشرقيين . ولعل السبب فى تلك الحملة العنيفة هو ما شاهده الناس من آثار العلم فى الحربين الأخيرتين : ذهبت ملايين النفوس ضحية فى ميادين القتال ، وفى معسكرات الاعتقال ، فى المراكز الصناعية ، وفى المدن الآمنة ، فى الجو وفى البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التى تحمل إلى الناس أضمن موت فى أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين ! فكان طبيعيًّا أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب بأسلحة الفتك هذه . وكان طبيعيًّا أيضاً أن يكون أول ما يخطر بالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ فى تاريخ الانسانية ، وأن زمان السلم مبرأ من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا الرأى : فهذه الآلات التى تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنسانى حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التى طالما وعدوه بها . ويظهر أن فى وضع السؤال نفسه سخرية مرة . فالعمل فى المصانع ، ذلك العمل الذى لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب ، فى الآونة الحاضرة ، التشرد والبؤس والبطالة فى أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر فى حال بعض العمال فى الغرب أن الانسان أصبح ، بفضل التقدم العلمى الصناعى ، عبداً للآلة ، بدلا من أن تسخر الآلة فى خدمة الإنسان . ولم يفت حكماء الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ؛ فهذا رابندرانات تاجور يقول : « إن الحياة المادية القائمة على العلم تحلو لبعض الناس ؛ لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ، ولكنها خلو من العمق ، وهى لا تحسب للطبيعة الانسانية العالية حساباً . » وهذا أينشتين لا يقل قسوة فى الحكم على العلم عن حكيم الهند ، إذ يقول :

« لم يستخدم العلم حتى اليوم إلا فى استعباد الناس : ففى زمن الحرب يستخدم العلم فى تسميمنا وفى تشويهنا ، وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة . إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة ، وهم فى أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة . »

ذلك هو الاتهام فى قوته . وخلاصته أن العلم مخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة ، ويزوّد الحماقة والبغضاء بأخطر سلاح .

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التى تقترف باسم العلم ، ونمقت آثار الحرب والموت التى تجهز فى ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمضض شديد كلما فكرنا فى تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التى تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما ينسب إليه ؟

إن الآثام التى اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولا عنها . والذى يوقع الناس فى الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخلطون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شىء آخر غير التطبيقات العلمية .

العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً منزها عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوجيا أو فى علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وإقامة القوانين منها . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم فى كلمة المعرفة ، والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب فى مجال العلم أن يكون الرجل الذى يعرف هو نفسه الذى يعمل ، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة ، فقد

خرج من مجال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لأنه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنسانا له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ؛ فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح .

لكن مما يؤسف له أن الكشوف العلميــة التى يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة ، إنما بزغت فى مجتمعات لم تؤتَ من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشوف دائماً فى غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها فى الخير حيناً ، وجعلتها فى خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب فى ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشوف العلمية ، وإنما هو ذنب المجتمع الإنسانى الذى يحمل فى نفسه جراثيم السوء . قد يستكشف البيولوچى أثر مادة ما فى بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك فى العلاج ، ويستخدمه المجرم فى القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التى تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام والحماقات . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد يستخدمها آخرون غداً لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمى العلم بما رُمى به من اتهام ، وأن يحمّل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الانصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

الحق أن العلم الصحيح يحمل فى نفسه مثلا أعلى ومذهباً أخلاقيًّا رفيعاً ، لو اهتدينا إليهما ، واستوحيناهما فى حياتنا ، لأوتينا نبلا وسعادة .

يتضمن العلم ثلاثة معــان أخلاقية جليلة هى قانونه وحياته : الأول هو أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . ذلك لأن العالم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما قلنا : لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لا يكون ، ولا يبالى إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . ولعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها فى علم الفلك . فهذه الكشوف نماذج للانتصار العلمى ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل فى مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم

ينتج عن هذا الكشوف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا .
ومتى كانت الكرامة الإنسانية فى ذلك الجهد الموصول للمعرفة فإنّ مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب فى هذه الكرامة ؛ فنيسّر لهم أن يتعلموا فى كل سن ، وفى كل طبقة ، وفى أى جنس ، ونهيئ لهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية واللذائذ العقلية ، وأن يقدروا الحقائق التى قام عليها الدليل .

والمعنى الثانى الذى ينطوى عليه البحث العلمى هو العمل على جمع الكلمة والائتلاف مُن طريق ذيوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها لا باعتبارها حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من الأجناس ، بل باعتبارها نورا يهدى جميع أفراد الإنسان فى هذه الدنيا . ذلك أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس ؛ فمجموع ٢ و ٣ = ٥ سواء كنا فى القاهرة أو فى لندن ؛ ولا يخطر ببال عاقل أن ينازع فى هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك فى العلماء إسرائيليون ، وفيهم مسيحيون ، وفيهم مسلمون . وفى العلماء عربٌ وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم أن تكون هناك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية أو الاسلامية ، ولا علم طبيعة عربى متميز من علم الطبيعة الامريكانى أو الروسى ... ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها البرهان . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الائتلاف عفواً ومن غير إكراه .

مما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلاّ على قليل من الحقائق العلمية المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحل أنهم فيما عدا ذلك يجدون أنفسهم مضطرين إلى البت فى مشكلات لم يمسها العلم إلاّ مسًّا رقيقاً . ومن أجل هذا أصبحوا متفقين فى بعض الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف فى أمور أخرى .
ولكن أقل ما يقال إن المثل الأعلى الذى يترسمه العلم يدلنا على الطريق الذى ينبغى أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها فى الناس ، وأن نطلب إلى العقل فى جميع المناظرات مبدأ الوئام والاتفاق .

والمعنى الثالث الذى يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ، والاعتقاد بأن

الحرية هى الشرط الضرورى لكل تقدم . وطرافة العلم أنه بقى دائما بعيداً عن روح الضغينة والاضطهاد ، وأنه جعل الحرية قانونه ، واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى من أصحاب العقائد الدينية أو المذاهب السياسية من لا يترددون فى استعمال العنف فى الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم . كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » أو من أجل « الهلال » ! ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو قانون الأجسام الطافية؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية » أو من أجل « الديمقراطية » ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل قانون الجاذبية أو قانون النسبية .

ذلك أن بين العلم والحرية وحدة لا تنفصم عراها . فبينا نرى العقائد والمذاهب تعتمد فى الغالب على العنف والاكراه ، نرى العلم يظل دائماً نقى اليدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد السلطات أو مناصرة الأغلبيات ؛ لأن له من فضائله الخاصة ما يكفل له الغلبة والذيوع ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر والوئام والحرية هى المبادئ الثلاثة التى تقوم عليها أخلاقيات العلم . ولو أنصتت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، والمظالم الاجتماعية ، واستغلال الإنسان للإنسان ، ولقضى على عهد البؤس والجهل ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان التى تزهق حياة الأفراد وحياة الشعوب .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضى فى استخدام العلم فى محاربة العلم ؟ أم ننصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نختار الآن ؛ فقد اهتزت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه فى زلزال هو أشد هولا من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تتنفس من هذه الغمة حتى أخذت تتلمس السبيل إلى درء كارثة جديدة ، وهى عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم يكفل للناس هذه المبادئ التى توجههم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى التسامح ، وتجعلهم إخواناً متحابين .

عثمان أمين

چان پول سارتر ومواقفه الفلسفية

الخيال وموضوعاته

نشر سارتر فى أبريل عام ١٩٤٠ أى بعد خمس سنوات من ظهور كتاب « الخيال » بحثاً جديداً سماه « الخيالى[1] » . ويلاحظ مطالع هذا الكتاب اختلافا واضحاً بينه وبين الكتاب السابق مع أنه جاء مكملا له : الأول يثير مشكلة والثانى يحلها . والاختلاف ظاهر لا فى الأسلوب وحده بل فى طريقة العرض أيضاً : فى الأسلوب ، إذ بينما كان سارتر يعبر فى «الخيال» كغيره من الفلاسفة تعبيراً فيه دقة عقلية وجفاف منطقى ، نجد اسلوبه فى « الخيالى » اقل دقة من الناحية المنطقية وأكثر تكلفاً من الناحية الفنية ، يعمد إلى التشبيهات الجميلة وإلى ألوان مختلفة من الجناس والاطناب . ثم فى طريقة العرض : فى نوع الأمثلة التى يختارها ونوع الحجج التى يدلى بها سواء لدعم موقفه أو لزعزعة مواقف الآخرين ، وفى نوع الكتب التى ينتقدها أو يثنى عليها : فبينما كان « الخيال » يظهر إلماما دقيقاً بالمواقف الفلسفية الرئيسية قديمة أو حديثة إذا بالكتاب الجديد يهمل تاريخ الفلسفة إهمالا تاما . وبينما كان سارتر فى « الخيال » يسوق القارىء إلى نتائج نقده سياقة عقلية منظمة ، نجده فى « الخيالى » يصل بالقارىء إلى نتائج لا يعده لها إعداداً كافيا .

اتضح لسارتر ولغيره من الفلاسفة المعاصرين أن ثمة ميدانا جديداً للبحث اكتشفته المدرسة الألمانية المعاصرة التى يتزعمها هوسرل : عمل ممثلو هذه المدرسة ، بعد تخطيط عام لموضوع الفلسفة ومنهجها ، على الدخول فى تفاصيل دقيقة طريفة أهمها ما يتعلق بفعل الإدراك الحسى ومشكلاته المختلفة . ولا شك

---

(١) *L'Imaginaire* (N.R.F., 1940).

أن هذه الدراسة كانت خير ما يعد البحث فى الخيال ، سواء لتقارب مشكلاته من مشكلات الإدراك الحسى أو لما يبدو من التعارض الصريح القائم بين موضوعيهما . ولكن بالرغم من إشارات قيمة وردت بهذا الصدد عند هوسرل مؤسس « الفنومنولچيا » ، يلاحظ سارتر أننا لا نجد عنده بحثاً مستفيضاً فى مسألة الخيال ، يمكن موازنته بالدراسة التى قام بها للادراك الحسى ، والتى جعلته جديراً عند المحدثين باسم فيلسوف الادراك الحسى ، بل نجده بالرغم من الإشارات السابقة لا يتعدى فى نتائجه تلك التى وصل إليها المحدثون من ديكارت إلى برجسون ، وهى نتائج لا يظهر فيها بدقة كافية التمييز بين الادراك الحسى والخيال ، مما يترتب عليه كما وضحنا ذلك فى مقال سابق أن تبقى مسألة الحقيقة الخارجية بين المسائل المتعذر حلها . ويخلص سارتر فى كتاب « الخيال » إلى أنه من الضرورى القيام بوصف جديد لفعل الخيال وموضوعاته ، يحاكى فى دقته وتفاصيله الوصف الذى قام به هوسرل للإدراك الحسى . هذا الوصف الجديد هو موضوع كتابه « الخيالى » الذى ظهر شهراً واحداً قبل الهدنة .

نلاحظ أن سارتر فى سبيل توضيح خصائص الخيال ، يعمل من ناحية على مقارنته بغيره من أفعال الشعور ، سواء ما كان بينها أدنى منه أو أسمى فى مراتب الحياة العقلية ، ويعمل من ناحية أخرى على تعيين الكيفية التى تمثل بها الموضوعات للخيال ، أو بتعبير آخر ، يعمل على وصف خروج فعل الخيال عن الذات ، واتصاله بالموضوعات ، وتأثيره فيها ، وتغييره من معالمها ، بحيث تصبح متميزة تميزاً تاما عن الموضوعات الخارجية المحسوسة بالمعنى الدقيق .

وقبل أن نتتبع سارتر فى وصفه هذا يحسن بنا أن نقول كلمة عامة عما يعنيه بالخيال وموضوعاته ، لما كان لموقفه من الطرافة والجدة بالنسبة لمواقف الفلاسفة بهذا الصدد وعلماء النفس .

ثمة شبه إجماع عند الفلاسفة على اعتبار الخيال فعلاً تظهر فى الذهن بمقتضاه نسخ الموضوعات المحسوسة ، ثم ترجع هذه له مرات كما لو كانت ترجع للذهن الموضوعاتُ المحسوسةُ ذاتها . أما سارتر فيعارض هذا أشد المعارضة ، وهو فى معارضته قريب جداً من موقف شائع عند الناس وخاصة بين رجال الفن والنقد الفنى ، وهو أن الخيال يبعدنا أشد البعد عن الحقيقة الواقعية ، وأن موضوعاته غير موجودة على الاطلاق ، تصدر فى الذهن وحده ، عن قدرة الذهن ذاته ،

وإن كان لها من الخصائص ما يجعلها تحاكى موضوعات العالم ، ومن التأثير فى النفس ما يجعلها تفوق تأثير هذه الموضوعات فى النفس .

وإذا كان سارتر كما ذكرنا فى المقال السابق يعرّف الخيال بأنه فعل يقصد الموضوعات المحسوسة من حيث إنها غائبة عنا ، فهو لا شك أقرب لهذا الموقف منه إلى موقف الفلاسفة ، ولا شك أنه يعنى بالخيال تحرراً من الواقع ، وبالخيالى موضوعا لا يختلف فى شىء عن موضوعات القصص والأحلام . ولكن لا شك أيضاً فى أنه يصل فى وصفه إلى نتائج إن كانت متنافرة مع مواقف الفلاسفة ، فهى بعيدة أيضاً عما يصل إليه أو يتصوره عامة الناس . والخيال مركب فى نظره من جملة عوامل تتحد فيما بينها على نحو غريب . ووصفُ سارتر لكل من هذه العوامل لا شك مبالغ فيه ، ولا يتفق تماما مع ما نشعر به فى حياتنا النفسية المعتادة . ويفترض الخيال موضوعات غريبة أيضاً . وأقل ما يمكن أن يقال عن الخيال أن له منطقاً غير منطق انفعالات الشعور التى نعرفها سواء كانت إدراكات حسية أو تصورات أو أحكاماً ، منطقاً يدخلنا فى عالم جديد غريب نعامل فيه الموضوعات معاملة غريبة شاذة ، بقدر ما كانت معاملتنا للأشياء الواقعية عادية خاضعة لمنطق هذه الموضوعات .

ولا شك أخيراً فى أن وصف سارتر إن كان غير متفق مع ما نعرفه فى أنفسنا أو عن الفلاسفة من الخيال ، فهو من ناحية وصف شائق له قيمته ، قيمة فنية أكثر منها علمية ، وله ما يبرره فلسفيًّا من ناحية أخرى ، من حيث إنه جزء لا يتجزأ من فلسفة لايعرض لها سارتر فى بحر « الخيالى » وإن كان يلمّح لها تلميحاً فى صفحاته الأخيرة .

وسنعرض الآن بإيجاز لمراحل وصفه هذا ، تاركين لفرصة أخرى التكلم عما يرتبط بهذا الوصف من النتائج الخاصة بطبيعة الفن أو بمشكلات الفلسفة العامة .

الخيال والمعرفة

من البديهى أنه لا يمكن لنا تخيل ما نجهله بالمرة ، بل لا بد من أن يكون لدينا عن موضوع ما ، علمٌ معين قبل أن يصبح موضوع خيالنا . ولكن لا بد

من ناحية أخرى أن يكون هـذا العلم بحيث نبنى عليه خيالا ، أو بتعبير آخر بحيث ينتقل الذهن فيه إلى مرحلة يصبح فيها خيالا أو على باب الخيال . وليس من الأمر الهين أن نلمس حالة مثل هذه ، حالةَ انتقال لا يكاد يقف عندها الذهن ولا يكاد يشعر بها ، ويعجز الوصف السيكولوجى عن البلوغ إليها . وربما كنـا أسعد حظًـا لو عملنا على مقارنتها بما نعرفه عن أحوال أخرى تماثلها ، وهذا ما يقوم به سارتر فى هذا الصدد عندما يقارن بين العلم الذى يسبق الخيال ويُـعِـدُّ له ، وبين حالة من يطالع مثلا قصة جديدة ممتعة تملك مشاعره .

نجد أن ما يرويه لنا القصصى من الحوادث ، له علاقة وثيقة بعالم لا يصفه لنا مباشرة ، وإن كان يشير إليه إشارة مستمرة . ويُشْعِرنا المؤلف لا بمـا يحدث لشخصيات القصـة فحسب بل بتطورهم فى عالمهم ، وما يعملون فيه من من الأحداث مما يسبب فى هذا العالم من تغييرات طفيفة أو جسيمة . زد على ذلك أن ألفاظ القصة وتعبيراتها تعنى فى الغالب حوادث واقعية لا ممكنات فحسب ، كما هو الأمر فعلا فى ألفاظ وعبارات منشور دورى وما شابه ذلك من الأوراق الرسمية : فلفظة «منزل» مثلا لها دلالة مختلفة إذا ذُكِرَتْ فى منشور لوزارة الداخلية خاص بأصحاب المنازل وحقوقهم وواجباتهم أمام القانون ، وإذا ذُكِرَتْ فى بحر القصة فى جملة مثل هذه « غادر المنزل فى الساعة العاشرة » . فالاسم يشير فى الحالة الأولى إلى علاقة أو علاقات كثيرة مختلفة ممكنة ، على حين ينطبق معنى الاسم فى الجملة الأخيرة على شىء واقعى ، وإن كنا عاجزين عن إدراكه أو تصوره . ثمة فارقٌ واضح إذن بين العلم الذى ينقل من الاسم إلى دلالته العامة ، والعلم الذى يعطى مباشرة للاسم دلالةً واقعية .

ثم نلاحظ عند قارئ القصة أنه غالباً لا يكتفى بدلالة الاسم ، حتى دلالته الشخصية الواقعية ، فنجد الاسم يمثل له شيئاً معيناً فى قيامه الوجودى . أعنى أنه يلتقى أثناء مطالعته ببعض عبارات تقوم دون غيرها بخاصة محسوسة جزئية . فمثلا عند ما يقرأ « امرأة جميلة » فكأنه يرى بالفعل امرأة جميلة ، وكأن الكلمة المطبوعة رسمٌ يدعو القارئ إلى توقع امرأة جميلة .

هذا شىء عن العلم الذى يسبق الخيال فى نظر سارتر ، أو بتعبير أدق الذى يُعِدّ الفكر فى نظره لتصور الموضوعات تصوراً خياليًـا . ولكنه ينبهنا إلى أن هذا العلم الكامن ، أو على حد تعبير أرسطو هذا العلم «بالقوة» ، ليس مانسميه

بالضبط خيالا ؛ إذ قلما تقوم فى ذهن المطالع المنتبه لقصة صورٌ خيالية على النحو المألوف ، ولا تطرأ له صور الخيال إلا فى الفترات القائمة بين مطالعات للقصة . أو عند من يطالع القصة بقليل اهتمام . وأغلب الأمر أننا إذا عمدنا أثناء مطالعتنا إلى تصور ما يحدثنا عنه القصصى تصوراً خياليا ، فلابد لنا من ترك الكتاب جانبا والاسترسال فى الخيال . أما الذى يطالع بانتباه فهو يعلم ما يقع من الحوادث علماً معيناً ، ويقف عند مرحلة معينة من هذا العلم ، ولو أنه قد ينبثق العالم عنده بعد ذلك فى صورة خيال رائع أو حلم بعيد القوة .

وما ذكرناه الآن عن مُطالع القصة ينطبق على حالات أخرى نعرفها ، مثل تلك التى تكون عند ما نطالع جريدة أو عند ما يقص علينا صديق حدثاً وقع له ، أو عند ما نفكر فيما يجب عمله لتأدية مهمة ما . وحياتنا العقلية والعملية تحمل ألوانا من هذا العلم الواقعى الذى يختلف كل الاختلاف عما نجده فى كتب الرياضيين أو الفيزيقيين من ناحية ، وفى منشورات الحكومة وقوانينها من ناحية أخرى . ولكن هذا العلم إن اختلف عن علم كله دلالات جبرية أو منطقية فلم يصبح بعدُ خيالا بالمعنى الدقيق ، بل نحن فيه كما يقول سارتر « على حافة الخيال » أو كما يقول سباير Spaier فى « فجر الخيال » . ولابد إذن من عامل جديد ينتقل بنا إلى التصور الخيالى الصحيح .

العاطفة

ما العامل الجديد ؟ ما الحد الأوسط بين العلم والخيال ؟ يرى سارتر أن ما يجعل من موضوع معلوم فحسب موضوعا حاضراً للذهن بقوته وحيويته دون أن يكون محسوساً ، لهو عامل عاطفى . وليس بالأمر العجيب أن نقرر أن العاطفة تقوم بدور هام فى تصورات الذهن المختلفة وتكسبها حرارة ونشاطاً غير عاديين . ولكن يذهب سارتر إلى أبعد من ذلك فهو يفترض أن العاطفة ذاتها تصور ، لها ما للتصورات الذهنية المختلفة من الاتجاه نحو الموضوعات ومن التعلق بالموضوعات .

نظر علماء النفس حتى السنين الأولى من القرن العشرين إلى العاطفة على أنها هزة داخلية فحسب ، قد تنتابنا أحيانا تحت تأثير تصورات خارجية ، وتنتابنا

فى أغلب الأوقات تحت تأثير عوامل باطنية جسيمة أو غير جسيمة . العاطفة حال فردية داخلية ، إن دلت على شىء فعلى طبيعة الشخص لا على أى موضوع خارج عنه . وقد قامت الفلسفة الألمانية المعاصرة مع هوسرل وشيلر وغيرهما ضد هذا الرأى ، فاعتبرت أن العاطفة من حيث إنها مظهر من مظاهر الشعور تحمل ضرورةً ما للشعور من الخصائص الجوهرية ، أهمها أن كل شعور متعلق بموضوع ما ، وأن هذا التعلق ، أو هذا القصد intentionnalité يتغير حسب أفعال الشعور المختلفة . فالإدراك الحسى إدراك لموضوع محسوس ، والحكم متعلق بموضوع محكوم عليه ، والرغبة بمرغوب فيه ، والإرادة بمراد . ومن ثمَّ فالحب أيضا موجه إلى موضوع محبوب ، والبغض إلى شىء نبغضه . ولا ينحصر بحث الفيلسوف فى التمييز بين أفعال الشعور المختلفة ووصف ما تحمله من الخصائص الجوهرية ، بل عليه أن يصف مع فعل الشعور المقصود ، إدراكا حسيًّا كان أو حكما ، كيفية اتجاهه نحو موضوعاته وخصائص موضوعاته من حيث تعلقها بالشعور ، أى كيف تمثل له وما يظهر له من خصائصها .

عُنى سارتر بدراسة العاطفة على ضوء المبدأ السابق ، فخصص لها كُتَيِّبًا[١] ظهر فى سنة ١٩٣٩ ، سنة واحدة قبل « الخيالى » ووضح فى البحثين أوجه العلاقة بين العاطفة وموضوعاتها ، وضرورة التمييز بين هذه العلاقة وبين المعرفة الجلية المتميزة للموضوعات . فالعاطفة تتطلب أن يمثل موضوعها لا من حيث إنه هذا الموضوع أو ذاك فحسب ، بل من حيث إن الموضوع يؤثر فى الشعور على نحو معين يجعله يحُمِّل الموضوع ذاته ألوانا مختلفة من العاطفة يعبَّر عنها بألفاظ كالجميل أو الرشيق ، أو الجذاب أو المخيف . وتبدو لنا علاقة الخيال بالعاطفة وثيقة إذا نظرنا على ضوء ما ذكرناه الآن إلى بعض أحوال خاصة : قد نستيقظ فى الصباح وبنا حاجة قوية لشىء لا يمكن أن نقول ما هو بالضبط : هل هذه الحاجة جوع أم ظمأ أم رغبة فى رؤية شخص ؟ غير أن هذا العجز لا يمنعنا من توجيه ذهننا توجيها خاصا . وبينما نحن شاعرون أن ما نرمى إليه ليس أمامنا ولا يمكننا الحصول عليه بالفعل ، نجد أننا نعمل على الحصول عليه بطريقة أخرى تحاكى وتنافى فى الوقت ذاته طريقة الحصول على موضوعات

---

(١) *Esquisse d'une Théorie des Emotions.*

الحس الخارجية . يقوم إذن فى مثل هذه الرغبات مجهودٌ نحو الحصول على موضوع خارجى ، مجهودٌ يقوى ويشتد بقدر ما يضعف أملنا فى إدراكه على النحو الواجب ، أى فى إدراكه إدراكا حسيًّا ، ويتضمن إذن هذا المجهود لاستحضار الموضوع غياب الموضوع . وإن فكّرنا فيما عرّفنا به الخيال من أنه حضور موضوع مع غيابه وفى غيابه ، تحقّق لنا أن العاطفة من حيث ذاتها ومن حيث هذه القوة الداخلية التى تحملها وتجسمها وهى الرغبة ، هى دون شك عامل أساسى فى قيام خيال فى الذهن .

والأمر بديهى إذا فكرنا فى أن موضوعات الإدراك الحسى عند حضورها بالفعل أمامنا ، كثيراً ما تكتسب ألواناً عاطفية تبقى ملازمة لها فى الذهن بعد غيابها عن حواسنا ، حتى إن عودة العاطفة وحدها تبدو بشيرة بعودة الموضوع ، بل تحمل الموضوع ذاته دون أن يتبينه الشعور فى وضوح تام . وإذا كان رجوع العاطفة الأصلية على نحو لا يعوق انتباهنا لما فى النفس من أحوال ولما يظهر فيها من موضوعات ، انكشف لنا الموضوع الغائب ودخلنا من ثم فى مرحلة الخيال ، بالرغم من أن ما يحضر لنا من الموضوعات فى هذه الحالة ليس من الوضوح بحيث تتميز عناصره وتنفصل أجزاؤه أمام الذهن ، أو بحيث يتميز خيال معين عن غيره من الخيالات . وقد يبقى الكثيرون فى هذه المرحلة الخيالية تتحد فيها تصوراتهم بعواطفهم ، دون أن يشعروا بشبه ما بين موضوعات خيالهم وبين موضوعات العالم الواقعى التى تظهر لهم وللآخرين على حد سواء . ويقول ستندهال فى هذا المعنى : « أرى صوراً وأتذكر تأثيرها فى قلبى ، أما عن عللها وشكلها فلا أعرف شيئاً . أرى سلسلة من الصور دقيقة جدًّا ، ولكن لا شكل لها غير ما ظهر لى ، بل لست أرى هذا الشكل إلا عن طريق ما أحدثت ذكراه من الآثار فى نفسى . »

منطق الخيال

إن أعملنا التفكير فى الخيال وفى كيفية مثول موضوعاته فى الفكر ظهر كأنه يتضمن تناقضاً صريحاً : يبدو من ناحيــة أن موضوعاته لا تحمل إلا خصائص حسية ، ويتضح من ناحية أخرى أن ما نتخيله لا ندركه الآن بحواسنا . بديهى

أن موضوعاً ما إما حاضر أو غائب ، ولـكن الموضوع الخيـالى حاضر غائب ، ماثل أمام الذهن بالرغم من غيابه بل فى غيابه . إن أعملنا البحث فى معنى هـذا التناقض وجدنا أنه يرجع إلى ما ذكرنا عن العاملين السابقين وإلى التفاوت القائم بينهما : عامل معرفة وعامل عاطفة ، ما يرمى إليه الذهن وهو على «حافة الخيال» ، ثم ما يحضر له بمقتضى الرغبة والعاطفة .

لنوضح ما نقوله هنا بمثالين أو ثلاثة : بناء « البانتيون » لمن يدركه بالحس مركب من عدة أجزاء لا يمكن الإنسان أن يدركها دفعة واحـدة ، وتتطلب لا لحظات زمنية مختلفة فحسب بل تعدداً لمواقف المتفرج بالنسبة للبناء . وللبناء خصائص حسية كاللون مثلا تتطلب هى أيضاً تعدداً لمواقف المدرك ، وتحمل فى ذاتها اختلافاً بحسب تغير موقفه : فمثلا إن كانت أعمدة مقدم البنـاء تبدو للداخل ذات لون رمادى قاتم فهى تظهر له من الخلف رمادية ضاربة إلى البياض وهكذا . . . أما ما يمثل للخيال من البناء فغير هذا كله . نعم أريد تصور البناء المذكور كما أدركتُ ، لـكن شيئاً من تفاصيل ما أدركته لا يمثل لى فى الخيال . نعم ، قد أتصور مقدم البنـاء وأعمدته ، ولـكنى لا أعرف عدد هذه ، ولا أستطيع تقدير المسافة بين كل منها والآخر ، بل لا أستطيع أن أؤكد أن بينها مسافة . أما عن اللون فهو رمادى متجانس لا أميز فيـه بين لون الأعمدة من الأمام ولونها من الخلف . ثم لا تتطلب العناصر المذكورة أفعالا خيالية متميزة ، كما تطلبت فيما سبق إدراكات حسية مختلفة ، بل المقدم والأعمدة والبناء كله خارجه وداخله ، الخلف والجوانب ، كل هذا يظهر للذهن خالياً من التفاصيل ، فقيراً فى المميزات ، ولـكنه يظهر دفعة واحدة وكُـلاً متكاملاً .

أريد أن أتخيل صديقى فلان كما هو فى منزله الريفى ، ولـكنى ألقاه فى ذهنى ، لا فى الريف ، ولا فى المدينة كما رأيته فيها منذ أسبوع ، ولا فى غرفته الخاصة ، إنما ألقاه جامعاً لما كان عليه فى الأمكنة الثلاثة ، حزيناً كما كان منذ أسبوع يتنزه فى حديقته الريفية ، وهو لابس رداءه الداخلى . هناك إذن بين ما أريد تصوره فى الخيال وبين ما أتصوره بالفعل تناقض يفسره التفاوت بين علمى بالموضوع قبل الخيال وحضور الموضوع فى الخيال .

وقد تذهب غرابة الخيال إلى أبعد من هذا ؛ فكثيراً ما تتخيل شخصاً لا نستطيع تعرفه مباشرة : هل هو الموظف الـكبير الذى قابلناه أمس بمكتبه

لأول مرة ؟ أم هل هو رجل البوليس الذى أوقف سيارتنا فى الطريق ؟ ألاحظ بعد التفكير أن الموضوع الخيالى مزيج من الاثنين . وكثيراً ما نرغب تصور الأول فيتمثل لنا الثانى ، دون أن نرى لذلك سبباً ، وإن كان الأمر يرجع فى الحقيقة لعوامل عاطفية لا نتنبه لها فى حينها .

يتضح إذن من هذه الأمثلة ومن غيرها أن الخيال يجمع على نحو لا يفهمه العقل بين خصائص منفصلة فى الحس لا يمكن إدراكها دفعة واحدة . فإن نظرنا إلى قمع الخياطة استرعى نظرنا قطاع من جسمه الأسطوانى أو باطنه المقعر ، ولكن يتمثل القمع فى الخيال أسطوانيًّا فى الظاهر والباطن ، عميق القاع فى الوقت نفسه .

ولكن بين ما يعرض له سارتر مثالان أو ثلاثة على الأقل يذهب به تحليله لها إلى مقارنة موضوعات الخيال بموضوعات الفكر البدائى الذى كان وما زال يؤمن بقوى سحرية قائمة فى العالم . ونكاد نلمس فى هذه الأمثلة أدلة قوية على أن العقل الإنسانى فى ناحية من نواحيه على الأقل لا يختلف عن العقل البدائى ولا يمتاز عليه . فإن كنا ننظر للوحة زيتية لمصور شهير تمثل رجلا عاش منذ قرون ، فسيتجه ذهننا أحيانًا من الصورة إلى أنموذجها الشخصى ، وقد ننسى إذ ذاك أن هذا الوجه وتقاسيمه وما ينبعث منها من قوة عجيبة ، وأن هاتين العينين اللتين تصوبان لنا نظرة حادة ، قد ننسى أن كل هذا يخص جسما قد ووري التراب منذ أمد بعيد ، فيبدو لنا أن أنموذج الصورة أمامنا رجل « يَزُورُ » صورته ويملؤها حيوية . ويذكرنا هذا الموقف بما كان يعمله أعداء المسيحية ، فى القرون الأولى من انتشارها ، من ضروب الشعوذة سواء بتدنيس الصور المقدسة أو بتكسير الأصنام ، ويذكرنا أيضاً بما يقوم به بعض قبائل الهنود الأمريكيين فى سبيل نجاح الصيد من أعمال غريبة كوخز صور الحيوانات المتوحشة على جدران أكواخهم .

ويحدثنا سارتر عن مسرح فى باريس يظهر فيه مقلد عجيب للمغنى والمهرج الفرنسى الشهير موريس شفالييه يخيل للمتفرجين عند رؤيته أنهم أمام شفالييه ذاته ، كأنه يستحضر شفالييه ، كما يستحضر السحرة أرواح الغائبين ، وكما لو كانت شخصية شفالييه قد «زارت» المقلد دقائق قليلة . موقف غريب للخيال لا يختلف كثيراً عن موقف البدائى الذى يعمد فى بعض الحفلات إلى ضروب عدة من التقليد ، بغية أن يستحضر أرواح حماة القبيلة .

هذا شيء من طرائف الخيال يدلنا على أنه يختلف اختلافاً واضحاً عن أفعال الشعور الأخرى وعن الإدراك الحسى والتصورات العقلية ، له منطقه ، منطق أشبه بقواعد السحر والشعوذة منه بقواعد المنطق الذى يخضع له العقل السليم ، وبقواعد المنطق الواقعى الذى تخضع له موضوعات الإدراك الحسى . إن فعل الخيال على قول سارتر « رقية ينادى بها الذهن موضوعاته فتنقاد له كما تنقاد للصبية لُعَبُها . »

نجيب بلدى

بين جيتى ونابليـون

قال المتنبى فى القصيدة التى ودع بها ابن العميد بعد أن أضافه فى أرَّجان :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

وكما تفضلت الأيام بالجمع بين شاعر العربية الـكبير أبى الطيب المتنبى والوزير الـكاتب الأديب ابن العميد ، فكذلك تفضلت مرة أخرى — على بخلها وشحها — فجمعت بين جيتى كبير شعراء الألمان والشخصية الشامخة المنيفة فى أدبهم ، ونابليون بونابرت أعظم عبقرية عملية عرفتها العصور الحديثة فى تقدير الـكثيرين . ولم يسفر تلاقى هذين الرجلين العظيمين عن نتائج ذات بال ، ولم يأت بخير يذكر ، ولـكن مجرد تماسّ هذين العالمين الضخمين من عوالم الروح : عالم الفـكر الواسع ودنيا الخيال الرائع ، وعالم الواقع الحافل ودنيا الأعمال الجليلة ، مما يسترعى النظر ، ويثير الفـكر ، ويحرك الخيال ، بل هو حادث لا تسخو به الأقدار إلا فى الفلتات النادرة ، وربما لم يكن له نظير منذ تلاقى الإسكندر وديوجانس .

كان جيتى حينذاك يهدف للستين وقد علت مكانته الأدبية وسارت شهرته مسير الشمس ، وكان نابليون فى الأربعين من عمره وقد بلغ ذروة القوة والنفوذ . وكان جيتى على شهرته وسمو مكانته الأدبية أحد أفراد شعب مغلوب على أمره ، مصـدوع الوحدة ، ممزق الأوصال ، ولـكن مجده الأدبى كان ثابت الدعائم موطد الأساس ، وكان نابليون فى ظاهر الأمر سيد الموقف ، ورجل الساعة ، قد انتصرت جيوشه المظفرة على الألمان ، وأذاقتهم ذل الهزيمة ، واستباحت حماهم ، ولـكن برغم ذلك المظهر الخلاب ، والجاه العريض ، والنفوذ المترامى ، كان يساور نفسه قلق داخلى ، وكان يعلم فى أعماق سريرته أن إمبراطوريته قائمة على كثبان من الرمال ، وأنه يبتنى القـلاع فى الهواء ، وأن القدر قد يستقبله بمعضلات

يعجزه علاجها . ولم يكن نابليون بحكم طبيعته العملية كثير الإعجاب برجال الأدب ، وكان يعرف صلفهم ، وفرط إعجابهم بأنفسهم . وقد كتب مرة إلى أخيه جوزيف ملك روما : « أنت تكثر من الاجتماع برجال الأدب والاطلاع ، وهم كثيرو الدلال ، ويجب على الإنسان ألا يحلم بأن يتخذ منهم زوجة أو وزيراً » . ولكنه كان فى موقف يستدعى الاستعانة برجال الأدب لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، وهكذا يستذل الحرص على الدنيا أعناق الرجال ولو كانوا من طراز نابليون . وكان جيتى يحترم الجندية ويكبر من شأن الرجال العمليين ، ولم يكن جيتى بحكم عمله فى ويمار من المنصرفين عن الدنيا ، المنقطعين لحياة الفكر والتأمل ، ولكنه برغم ذلك كان رجل دراسة واطلاع وتروية وتفكير ، فهو يحترم رجل العمل ويعتبره أسمى منه شأناً . وقد دفع المتنبي اعتزازه بنفسه الى أن يقول :

شاعر المجد خِدْنه شاعر اللفـــظ كلانا رب المعانى الدقاقِ

أما جيتى فكان يرى أن شاعر المجد ـ وهو هنا نابليون — أجل شأنا من شاعر اللفظ ، وأن مكانة السيف أجل وأخطر من مكانة القلم .

وقبل أن أذكر رواية جيتى عن هذا اللقاء سأشير إلى بعض الملابسات الخاصة التى أحاطت به ، وسيعيننا ذلك على تبين حقيقته وتفسير غوامضه .

كان نابليون فى تلك الفترة يلقى الشدائد من مقاومة الإسبانيين له وتمردهم عليه ، وقد اضطره ذلك إلى الاحتفاظ بجيش جرار فى إسبانيا ، وكانت مقاومة الإنجليز له تزداد عنفاً واتساعا وإصراراً وعناداً ، وقد اجتذبوا الأتراك إلى صفوفهم ، وبدأت تنتقض عليه هولندة وإيطاليا وسويسرة ، وشرع النمساويون يستأنفون استعدادهم الحربى . وكان نابليون يشعر بأنه فى حاجة إلى الإمعان فى استرضاء قيصر الروسيا — الإسكندر الأول — والتقرب منه وتقوية اتفاق تلست ، وكان يرمى إلى هدفين : إخافة النمسا ، والاستيثاق من ولاء الإسكندر ، وقد عجم عوده فى تلست فوجده صلباً لا تلين قناته ، وكان يكفيه منه أن يلتزم الحياد فلا ينحاز إلى صفوف الأعداء . ولكن هل يصارحه بهذا الغرض المتواضع والمطلب اليسير ؟

استدعى نابليون تاليران قبل ذهابه إلى إرفرت — مسرح هذا اللقاء التاريخى — وقال له :

« إعقد لى معاهدة ترضى القيصر الإسكندر وتكون موجهة قبل كل شىء ضد انجلترا ، وعليك أن تذهب إلى إرفرت قبل قدومى بيوم أو بيومين ، وأن تزور القيصر مباشرة ، وعليك بوجه عام أن تكثر من زيارته أثناء وجودنا بإرفرت ، وأنت تعرفه معرفة جيدة ، وتفهم كيف تعامله ، وأطِلْ معه الحديث عن تحالفنا ، وكيف يمكن أن نلمح فيه أصبع العناية التى تعمل لإنقاذ الإنسانية . واجعله يرى أننا نحن الاثنين — الإسكندر وأنا — قد أعدّنا القدر لحفظ النظام فى أوربا . وعليك كذلك أن تتحدث إليه عن الرأى العام وكيف نوجهه حتى يرى أن اتفاقنا لا يثير الخوف بل يخففه ويلطفه . ثم قل شيئاً عن تحسين أحوال القارة عامة وعن بركات السلم ، وأشر فى خلال ذلك إلى اليونانيين الذى يتطلعون إلينا لتحريرهم . فهذه أفكار إنسانية يجب — كما تعلم — أن يسمعها . وأنا أفوض إليك الأمر ياتاليران تفويضاً تامًّا فقم به خير قيام . »

وأراد نابليون أن يظهر فى إرفرت بمظهر أخاذ الرونق بالغ أقصى حدود الفخامة والروعة ، وكان لا يفتأ يقول لمستشاريه : « يجب أن تكون رحلتى لماعة ألقة ، وأن أقيم فى كل مساء بإرفرت حفلة تمثيلية . وإنى أريد أن أبهر نظر ألمانيا وأخلب لبها بالروعة والجلال والفخامة . »

وجمع حوله قواده المعروفين الذين اشتهر أمرهم بين الألمان ، وسائر دعائم دولته وحملة ألويته . وكان يعتقد أنه متى وفق فى إحداث التأثير اللازم فإنه يستطيع بعد ذلك أن يفعل بأسبانيا ما يريد ، ثم يفرغ لمجاهدة الإنجليز وكسر شوكتهم .

وقد دخل نابليون إرفرت يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ فى الساعة العاشرة صباحا ، فاستقبلته المدينة استقبالا فخما ، ووقفت الجموع المتراصة فى الشوارع والطرقات وفى الميدان الذى كان به القصر المعد لنزوله ، وكان كل إنسان يريد أن يملأ عينيه ما وسعه الإمكان من هذا الرجل الذى ثلّ العروش ، ولعب بالتيجان ، وقهر الجبابرة ، ودوخ الجيوش ، والذى أصبح فى يده مصير أوربا وخيرها وشرها وسعدها وشقاؤها .

ولم يعجب هذا المنظر داهية السياسية الباقعة تاليران فكتب عنه فى مذكراته يقول : « لم أر فى إرفرت كيف يتملق الدهماء والأوشاب رجلَ القوة وصاحب السطوة ويزحفون أمامه فى التراب فحسب ، وإنما رأيت كذلك كيف ينزل الأمراء الذين لا يزالون على عروشهم عن كبريائهم ، ويسفّون ويهبطون إلى الملق الرخيص صوناً لعرشهم ، وإبقاء على سلطانهم ، وكيف يقبّلون اليد التى قد تمتد فى أى يوم من الأيام إلى تحطيمهم والقضاء عليهم . »

ومهما يكن رأى السياسى المتشكك الساخر تاليران ، فإن المنظر فى إرفرت كان باهراً بديعاً ؛ فقد اجتمع هناك إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وأربعة ملوك وأمراء مقاطعات الراين وكثير من الدوقات والكونتات ، وكان الجميع يرفلون فى وشى الدمقس ، ويخطرون فى أجمل البرود ، وقد ازدانت صدورهم بالأوسمة اللامعة ، وحفلت المدينة بالجند فى حللهم المذبجة ، وستراتهم البراقة المزخرفة ، وانتشر رجال الحرس الإمبراطورى وفرق الفرسان والخيالة ، وفتح مسرح إرفرت ، وكان يقوم الممثل المشهور تالما وفرقته بتمثيل أجمل المآسى الفرنسية فى حضرة العواهل والملوك والأمراء ، وكان لا يرى فى صحن المسرح سوى الأوسمة والنجوم والنياشين ، وقد وقفت على باب المسرح فرقة من الحرس الملوكى ، وكلما قدم أحد الإمبراطورين يقرع الطبل ثلاث مرات ، وكلما قدم أحد الملوك يكتفى بقرع الطبل مرتين . وقد اتفق أن حضر ملك وتمبرج فى مركبة مطهمة فارهة ، فغر الحارس مظهره فأمر بدق الطبل ثلاث مرات ، فصاح به الضابط المشرف غاضباً : « اسكت فليس هذا سوى ملك ! » .

ولم يكن جيتى راغباً فى الذهاب إلى إرفرت ؛ فقد بلغه قبل ذهابه إليها بأيام نبأ وفاة والدته ، ولكن دوق ويمار الذى أظلت جيتى سماؤه وحاطه برعايته ، استدعاه . ورأى جيتى من واجبه أن يكون إلى جانبه فى أزمته الحازبة وظروفه الحرجة ، وقد وصل إلى إرفرت يوم ٢٩ سبتمبر وحضر فى المساء تمثيل رواية « أندروماك » .

وقال نابليون لتاليران بعد اجتماعه الأول بالقيصر فى إرفرت : كل شئ على ما يرام ، ولا يجب أن نتعجل ، ولا تنس يا تاليران أن التأخير فى مصلحتنا ، فتمهل جهد الطاقة ، ويجب أن تفتن عظمتى القيصر الإسكندر وتذهله ، وستسير المفاوضات بعد ذلك فى طريق سهل ممهد . وكان نابليون يؤمل أنه ربما استطاع

أن يستميل القيصر ويحمله على مؤازرته فى إرهاب النمسا. ولكن مثل هذا الطلب الهين اللين لا يعبر عنه اللفظ، وإنما يمكن تحقيقه بالمشاهد البارعة، والمرائى الوضاءة فى إرفرت. وكلما طال العرض وامتد الوقت تكاثرت مخاوف النمساويين الذين أُبعدوا باحتقار مهين عن حفلات إرفرت، واعتقدوا أن هناك محالفة جديدة بين الإسكندر ونابليون. وكان لا بد من إنفاق الوقت وتقطيعه، وتحاشى نابليون فى الأيام الأولى الخوض فى المناقشات السياسية، وكان يطيل مدة تناوله فطوره، ويستقبل خلال ذلك مختلف الأشخاص البارزين ويجاذبهم الحديث فى عناية واهتمام.

وفى يوم ٢ أكتوبر استدعى جيتى للاجتماع بالإمبراطور نابليون. وقد روى جيتى عن هذا اللقاء ما يأتى: «دعيت إلى المثول بين يدى الإمبراطور حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا، وطلب إلى خادم بولندى قوى البنية أن أنتظر، ثم دعيت إلى الجناح الذى يشغله الإمبراطور، وفى ذلك الوقت استأذن دارى وسمح له بالدخول مباشرة، وكان علىّ من أجل ذلك أن أنتظر، ثم أذن لى بالدخول مرة أخرى، فدخلت ورأيت الإمبراطور جالسا يتناول طعام الفطور على مائدة كبيرة مستديرة، وكان تاليران واقفا إلى يمينه على مسافة قريبة من المائدة، وكان دارى واقفا قريبا منه إلى اليسار، وخلفه برتييه وسافارى، فأشار إلىّ الإمبراطور بالاقتراب فظللت واقفاً على مسافة مناسبة منه، وبعد أن أثبت فىّ نظره قال: «أنت رجل» فانحنيت شاكراً. فسألنى: «كم عمرك؟» فأجبته: «ستون سنة» فقال: «أنت لاتزال محتفظاً بوثاقة بنيتك». وسألنى: «هل كتبتَ مآسى؟» فأعطيته المعلومات الكافية فى إيجاز. وهنا تدخل دارى فى الحديث ليتملق الألمان بمعرفته لأدبهم، وقد تحدث عنى كحديث أصدقائى فى برلين، وشرع نابليون يتحدث عن ورتر ورواية محمد والدراما الفرنسية، ثم سألنى هل أنت متزوج وهل لك أولاد؟ وسألنى عن بعض تفصيلات أخرى شخصية، ثم سألنى عن علاقتى بالبيت الحاكم وعن الدوقة آمالى وعن الأمير والأميرة وما إلى ذلك وأجبته الجواب الطبيعى، وبدا لى أنه قد سر بحديثى». وفيما يختص بحديثه عن ورتر قال جيتى: «بعد أن أبدى ملاحظات شديدة صائبة أشار إلى فقرات منها واستفسرنى لماذا كتبتها هكذا، وإن ذلك مخالف للطبيعة، وبسط رأيه فى وضوح تام، وأصغيت إليه فى هدوء وأجبته مبتسما إنى لم أسمع هذا الاعتراض

من قبل ولكنى أراه حقا . والفقرات التى أشار اليها فى الواقع غير طبيعية ، ولكن ربما يتسامح مع الشاعر إذا احتال حيلة تمكنه من الوصول إلى غرضه بأيسر السبل ، ثم عاد إلى موضوع الدراما وأبدى عدم ارتياحه للأجزاء التى يلعب فيها القدر دورا » .

واستمر اجتماعهما حوالى ساعة ، ويقال إنه لما برح جيتى الحجرة التفت نابليون إلى برتييه ودارى وكرر قوله «هذا رجل» . ولم ينس نابليون فى خلال الحديث أن يقول له : « أظن يا مسيو جيتى أنك لا ترى بأساً فى حضور تمثيل المآسى الفرنسية أثناء وجودك هنا»، وأعد له تاليران فى المساء محلا مناسبا خلف الصف الأول حيث كان يجلس حملة التيجان وعلية الأمراء

وتختلف رواية تاليران لهذا اللقاء الأول عن رواية جيتى ، ولم يرد بها ذكر لمسألة « هـذا رجل » التى أكثر من ترديدها الألمان مستدلين بها على قوة شخصية جيتى وفراسة نابليون وألمعيته . وتاليران يقول : « فى ذات صباح تناول الإمبراطور قائمة الأجانب الذين قدموا ووقع على اسم جيتى ، فأصدر أمرا باستدعائه . فلما دخل جيتى دعاه الإمبراطور قائلا : « يسرنى أن أراك يا مسيو جيتى » فأجابه جيتى : « يدهشنى أن جلالتكم وأنتم مسافرون تجدون متسعاً من الوقت للالتفات إلى هذه الأمور الصغيرة» . وقد روى جيتى أن تاليران انسحب قبيل انتهاء الحديث . وربما يرجح هذا الرواية القائلة إن قول نابليون « هـذا رجل » كان فى خاتمة الحديث لا فى أوله . ومن الغريب أنها لم ترد كذلك فى رواية ولهلم فون همبولدت ، وقد أفضى إليه جيتى بما دار من الحديث بينه وبين نابليون عقب انصرافه من حضرته . ويرى ورنر هيجمان — فى كتابه القيم عن نابليون — أن نيتشه وجندلف وإميل لدفج قد حملوا هذه الكلمة أكثر مما تحتمل ، وتأولوها تأويلا بعيدا ، وإذا كانت قد قيلت حقًا فهى ليست أكثر من قولنا « هذا رجل طيب » أو — إذا أردنا المداعبة فى الثناء — «هذا رجل شقى» أو «هذا عفريت !» ويرى بعض الخبثاء أن نابليون قال هذه الكلمة قبل أن يولد له ولى عهد بعامين ، وكان حينذاك حريصاً على أن ينفى عن نفسه تهمة ضعف الرجولة !

وخرج جيتى من لدن نابليون فرحا مسرورا ، فكتب إلى كوتا مباشرة يقول: « يسرنى أن أقرر أنه لا شىء أجل وأسمى أو أبعث على الرضا والارتياح

يمكن أن يحصل لى أكثر من المثول بين يدى إمبراطور الفرنسيين . وبدون أن أذكر تفصيلات ما دار بيننا من الحديث أستطيع أن أقول إن الإمبراطور قد تلقانى بحفاوة لم أحظ بمثلها من أى أمير ، وكأنه كان يعطينى ما أستحق إذا اجترأت على أن أقول ما فى نفسى » .

وبعد ذلك بأيام قلائل دخل نابليون ويمار وأقيمت له احتفالات باهرة ، ومثلت على مسرحها رواية « موت قيصر » وقام بتمثيل دور بروتس الممثل تالما ، وفى أثناء حفلة الرقص تحدث الإمبراطور طويلا إلى جيتى وويلاند الناقد الألمانى المعروف ، وعرض نابليون للأدب القديم والحديث ، ولمس موضوع شكسبير لمساً يسيراً ، ولم يكن يميل إلى أدبه ، وقد قال لجيتى : « يدهشنى أن رجلا راجح العقل مثلك لا يميل إلى أصحاب الآراء الحاسمة والألوان الواضحة » . ولم يرد جيتى على ذلك ، واسترسل الإمبراطور بعد ذلك فى الحديث عن المأساة وحث جيتى فى النهاية على أن يكتب مأساة عن « موت قيصر » يكشف فيها عن الخطط العظيمة التى كان يريد قيصر تنفيذها لو مد فى عمره ، واقترح على جيتى أن يصحبه إلى باريس ، وذكر له أن مجال المشاهدة بها أوسع ، وأنه سيجد هناك مادة عظيمة لخلقه الشعرى .

ولم يكن جيتى قد رأى عاصمة كبيرة مثل باريز ولندن ، وكان فى دعوة نابليون له ما يغريه بقبولها . ويروى المستشار فون ميللر أن جيتى سأله عن النفقات اللازمة لهذه الرحلة ، وعن العادات المتبعة فى باريز ، ولكن مشقة مثل هذه الرحلة — فى تلك الأيام الخالية — وسنه المتقدمة حالتا دون الاستجابة لهذه الرغبة .

وفى يوم ١٤ أكتوبر تلقى هو وويلاند الإنعام عليهما بوسام الشرف الفرنسى ، وبرح الإمبراطور والقيصر إرفرت .

وقد التزم جيتى الصمت التام بخصوص ما دار بينه وبين نابليون . ولما سجل المحادثة بعد ذلك بأعوام طويلة سجلها موجزة ، وكان كلما سئل عن الفقرات الواردة فى ورتر التى أشار إليها نابليون وزعم أنها مناقضة للطبيعة الانسانية أجاب إجابة ماكرة عابثة ، وطلب إلى السائل أن يستعمل ذكاءه ، ويجرب براعته ، فى الكشف عن هذه الفقرات ، ولم يكشف النقاب عن هذا السر البائع حتى لصاحبه وصفيه إكرمان . وكان يروق جيتى فى شيخوخته أن يحيط نفسه بالخفاء

والغموض ، ويجد متعة فى الإشراف على المعجبين به وهم يحاولون حل ألغازه وجلاء مساتيره . وقد رفع الغطاء عن حقيقة المسألة المستشار فون ميلر ، والنقد الذى وجهه نابليون إلى ورتر هو نفسه النقد الذى أثاره هردر حينما راجع ورتر ، ومضمونه أن حزن ورتر الذى تأدى به إلى الانتحار لا يبدو فى القصة أنه منبعث من الحب الخائب وحده ، وإنما قد اشترك معه الإخفاق فى الطموح . وقد ذهب هردر إلى أن هذا عيب فنى ، وظن نابليون أن ذلك مخالف للطبيعة الإنسانية ، وقد وافق جيتى الرجلين على ما ذهبا إليه . ويرى لويز مترجم حياة جيتى المعروف أن الثلاثة لم يصيبوا مقطع الحق ، فإن ورتر كان يشقى من الطموح الخائب المعطل وكذلك من الإخفاق فى الحب ، وورتر صورة منتزعة من الواقع ، وقد صوّره جيتى على مثال المدعو جيروسلم الذى كان يألم من الطموح المخفق ومن الحب الخائب ، وقد نقل جيتى ما رآه فى عالم الواقع إلى عالم الفن . وأنا أشايع لويز على هذا الرأى ، وهو يرينا القيمة الحقيقية للنقد فى بعض الأوقات ؛ فهنا ثلاثة من علية الرجال ندّ عنهم الحق ، وأخطأهم التوفيق فى النقد .

ويزعم كتاب الألمان أن جيتى ترك فى نفس نابليون أثراً عميقاً . وأرجح أنهم يبالغون فى ذلك ؛ فقد استدعاه نابليون نزولا على حكم الضرورات السياسية التى كان نابليون يجيد معرفتها . ونابليون على ما يظهر قد نسى الشاعر الكبير بعد ذلك نسياناً يكاد يكون تاما ، ولم يحرص على استدراجه إلى باريز كما حرص فردريك الأكبر على اجتذاب فولتير إلى برلين . وفى مايو سنة ١٨١٢ — قبل غزو روسيا — جمع نابليون حوله الأمراء الألمان فى مدينة درسدن ، وحضر للاجتماع به من برلين ملك بروسيا فردريك وليم وجاء من فينا الإمبراطور فرانز ، وكان الاحتفال باهراً مشرقاً ، وحضر هناك شارل أجطس مع جيتى ، ولكن نابليون لم يكن فى حاجة إليه هذه المرة ، فلم يجتمع به ولم يجاذبه الحديث . وفى عودته من روسيا خائباً مدحوراً مرت به العربة بويمار ، فلما أخرج رأسه من المركبة وسأل : «أين نحن ؟» وقيل له : «فى ويمار يا سيدى» قال : «كيف حال الدوقة ؟ وكيف حال الهر جيتى ؟» ولعله قال ذلك ليثبت لمن معه معرفته المحلية لويمار كما يقول السائح الأمريكى لزوجته إذا مر بفرانكفورت : «هذه مدينة فرانكفورت المشهورة بالمقانق !» وقد أقام نابليون فى سنت هيلانة سنوات وكان الملل يجعله يتحدث عن أشياء كثيرة ويكرر ذكرها ، ومع ذلك لم يذكر جيتى !

أما جيتى فكان شديد الإعجاب بنابليون كثير التحدث عنه ، وكان مزهوا بالوسام الذى أنعم به عليه نابليون ؛ ففى سنة ١٨٠٩ كتب وليم فون همبولدت إلى زوجته يقول : « لا يظهر جيتى إلا حاملا وسام الشرف الفرنسى ، وهو يقول فى حديثه عن الشخص الذى حباه به « إمبراطورى » . ولما اضطر إلى أن يخلع هذا الوسام بعد هزيمة نابليون فى ليبزج سعى فى الحصول على وسام من الحكومة النمساوية ليحمله بدلا من الوسام الفرنسى! » ، وهو مظهر ضعف فى هذا الرجل العظيم يؤسفنى أن أقرره . وقد كان فى جيتى تعلق غريب بالرسميات ، وحرص شديد على ترضى أصحاب السلطان . وقصته مع بيتهوفن ذائعة معروفة لا ينقض حقيقتها الدفاع المتهافت الذى رأى لويز كاتب سيرته ومؤرخ حياته أن يلزم به نفسه إلزاماً ليس له ما يسوغه ؛ فإن علينا أن نفهم الناس كما هم لا كما يجب أن يكونوا . والحياة أعرف منا بأبنائها ؛ فهى تخلع عليهم ما تشاء من الصفات والمواهب ، وتجردهم مما تشاء لحكمة قد نجهلها . وقد ذهب مرة لزيارة جيتى لفيف من صغار الضباط الناشئين ، فتلقاهم بحفاوة بالغة كادت تسف إلى الملق والعبودية . ولما تفضل بزيارته ملك باڤاريا كاد يجن من نشوة الفرح حتى قال : « يلزم الإنسان مجهود لكى يحتفظ بتوازنه ولا يأخذه الدوار » . ولم يكن هذا الرجل سوى الملك لويز المعروف بالشذوذ وغرابة الأطوار ، والذى كان دريئة لسخرية الشاعر هينى . وقد تلقى الملك لويز هذا عرشه من فتات مائدة نابليون ، فليس كثيراً على جيتى الذى كان يفخر بتنزله إلى زيارته أن يفرط فى الإعجاب بنابليون ويمعن فى الولاء له وهو قاهر بلاده وسالب حريتها . والواقع أن جيتى كان فى حاجة إلى جرعة من كبرياء المتنبى واعتزازه بنفسه تلقاء أصحاب السلطان وحملة التيجان ، وقد صحبهم وكاد يفنى فيهم . أما المتنبى فقد قال بعد صحبته لهم فى شىء كثير من المرارة والغضب :

صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم ‌ ‌ ‌ ‌ وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

على أدهم

الملكة شجرة الدر [1]

٨

كانت تولية شجرة الدر الملك حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت. ذلك أنه بالرغم من كل ما عُرف عن الملكة الجديدة من أصالة فى الرأى، وقوة فى الخلال، ومقدرة فى تدبير الشئون، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات، وما أحرزته من نجاح فى إجلاء الفرنج، فان فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يَرُقْ لهم أن يستظلوا بلواء امرأة، وسرعان ماظهرت بوادر الانتقاض الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطنة فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبى يطلبون إليه القدوم إلى دمشق، فاستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسلمها، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر. وكان لهذه الأنباء فى بلاط القاهرة أعمق صدى، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك، وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام.

ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وبضعفها كامرأة، ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة، وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة، وتم هذا الزواج بالفعل فى ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ. ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين. فعندئذ رأت شجرة الدر أن تُقدم على الخطوة الحاسمة، وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها، وأن يتولى العرش

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦)، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦).

مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك . ونفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الثانى ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل فى نحو السادسة ، وأخذت له البيعة فى اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى : « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بنى أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرامها ، وسيّر الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بنى أيوب ، وذاع خبر مسيره فى القاهرة ، فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بنى أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاى للقاء المهاجمين ثم تبعه المعز فى بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولا ، ولكن المماليك ثبتوا ودارت الدائرة فى النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بنى أيوب فى الأسر ، وكان ذلك فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزما بفلوله إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز فى ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعا ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوى الملك الناصر فى سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية فى الشام والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر ، وسائر الأمراء الأيوبية المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعا بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجا فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلا حصيف الرأى والخلال ، طاغية ظلوما فى الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ، ويذعن لأمرها ووحيها ؛ وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش فى توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلا فى الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفى مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى ، يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع ؛ وكان فارس الدين أقطاى يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ؛ وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها فى موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاى ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها فى القلعة فى جناح من القصر الملكى ، لأنها من سلالة ملوكية ، فخشى المعز عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعتزم فى الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ؛ وبينما كانت العروس فى طريقها إلى مصر فى موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاى ذات يوم إلى القلعة ، وأعدّ له فى الوقت نفسه كمينا لقتله ، وجاء أقطاى إلى القلعة مطمئنا ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتلة ، وفى مقدمتهم المملوك قطز الذى تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذى أراد أن يتدرع بتوليته فى وجه بنى أيوب وأنزله من القلعة ورده إلى منزله السابق بين أهله ، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم ، بيد أن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هى الروح المسيطر على كل شىء فى البلاط والدولة ، وكان الملك المعز يعانى من هذا الطغيان الأدبى المرهق ، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه . وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تجيش بكل ما تجيش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما[1] بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة ، فى نظر الملك المعز جحيما لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر فى ازدياد . ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى أن يضع لها حدًّا ، واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن . ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية فى هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجِّم أخبره أنه سيموت قتيلا على يد امرأة ، فلم يشك فى أنها هى شجرة الدر ، وفكر فى أن يكون البادئ بالفعل . ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه . وحدث حادث

---

(١) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم فى « الجب » وعلى رأسهم أيدكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر ، وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيدكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله ياخوند ماعملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ماهان علينا لأجلك ؛ فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيدكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم : « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سراً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ؛ فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب ، فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يتربص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب . وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان ، وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص . فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صبابة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ماكان

يخالجه من ريب فى نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً من أن يستجيب لدعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ [١] وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز فى ركبه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة ، وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم المعز إلى حفاوتها الغادرة ، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط . وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة . فاستراح المعز قليلا ، ثم قصد إلى الحمام ليلا ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة ، فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه فى نفس الوقت حتى زهق ، وفى رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه . وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت بتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه ، فصاح بها محسن الجوهرى مغضباً : « إذا تركناه فانه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجته الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ ابريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر فى الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة ، فأرسلت

---

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل فى مسائه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفدا (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول . وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

ليلا إلى القاضى ابن مرزوق واستشارته فى الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز، فاعتذر ولم يبد رأياً . وأرسلت فى نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبى، وجمال الدين العزيزى، فلم يرضها أحد منهم رهبة وروعاً . وهكذا أخفقت شجرة الدر فى محاولتها أن تقيم على وجه السرعة فى السلطنة أميراً تستتر وراءه فى الحكم . وأذيع فى صباح اليوم التالى أن الملك المعز مات بالليل فجأة، فحدث أيما هرج واضطراب، ولم يصدِّق معظم الناس هذا النبأ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب . وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفى مقدم الحلقة وحاصروا القصر، وقبضوا على الخدم والحريم، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزى [1] ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور علىٍّ ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه، وكان يومئذ صبيا فى نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش .

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر، وكانت قد امتنعت بجناحها فى القلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت مع بعض جواريها فى البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ، وكان يقع فى الناحية الجنوبية منها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا فى الجريمة، وفى مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزى الذى استطاع الفرار إلى الشام، وقُتِل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين حِنَّا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك فى الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل . وأما شرف الدين الفائزى فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى، وكان قبطياً فاسلم وتقدم فى وظائف الدولة حتى ولى رئاسة الوزراء للملك المعز، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل، ثم قبض عليه وتوفى قتيلا فى جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

الجديد أياماً ، ثم قتل فى سجنه بعد ذلك بقليل . وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطانى ، ووضعوا أيديهم على جميع ما فيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت فى القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر فى معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهى تعانى أمر ضروب التوجس والروع . وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم . وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت فى أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم فى العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود . وكان الملك الفتى المنصور وأمه يضطرمان ظمأ للانتقام من الزوج القاتلة . وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى وهنت معارضتهم وانحنوا امام العاصفة . وفى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى [1] نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها . وهنا يقول لنا المقريزى : « فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقريزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الاول أعنى بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ – ٢ – ص ٤٠٤) . ويقول صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١ ربيع الثانى . وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى . ويقول ابن إياس إنها قتلت فى يوم ٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن برواية صاحب النجوم الزاهرة باعتبارها أقوى وأرجح .

وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها. ثم دفنت بعد — أيام وقد أنتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى . [1] » وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحقتها فى الهاون حتى لا تقع فى أيدى أعدائها [2] .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التى لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصرى ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذى زهق به زوجها الملك المعز ، وكان القصاص مثيراً ولكن عادلا ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحى ، بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة .

وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر ؛ فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش فى جو من

---

(١) دفنت شجرة الدر فى التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة فى سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) وما تزال هذه التربة قائمة حتى اليوم ، وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة ، وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة . وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب فى جنباتها ما يأتى :

«بسم الله الرحمن الرحيم . عز الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ، التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل النيرين فى الملأ الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام لمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الاسلامية فى العصر الأيوبى للاستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧ – ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج ٢ ص ٤٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها . وقد لبثت مذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ . ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الذروة فى هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثابت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدئ ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة . فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق ، وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة ، تعشق أعمال البر وتقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسية .[١]

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع ، هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها . وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . وبلغ الخطر المروع ذروته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً

لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هـلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسـل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ، وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك ثمة شك فى النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

ففى تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية فى ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملـكة ، وكان يرقب سير الحوادث فى المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى هـذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، فانتهز أول فرصـة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملـكا (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء فى صراحة أنه لا يبغى الملك لذاته ، ولـكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ؛ فإذا تم القضاء على هـذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنبات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هـلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة فى حشد الجند وإتمام الأهبة . فلما وصل رسل هـلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رءوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين ، وبادر بلقاء الغزاة فى عزم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم فى معركة عظيمة حاسمة فى عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفى عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر

قطز أن يستخلص الشام من التتار ، وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين . وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت فى عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية فى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله عنان

عودة الاسير

كنت على موعد مع الطبيعة ؛ فإنها تربطنى بها صلات ووشائج ، وبيننا ألفة ومودة . وحين تضطرب الأمور وتلتوى أو يضيق الصدر منى ، ألجأ إليها كالمثقل بالخطايا حين يفزع إلى معبده وقد بهظه حملها . وهناك أبثها شجونى وأحكى لها آلامى ، فتخفف عنى وتهدئ من رَوْعى وترد إلىّ ثقتى . والطبيعة تهب سرها لمن يحبها ، فتكشف له عما يستغلق على غيره من معان خفية تكمن خلف مظهرها ، وتفسر له مايدق ، وتوضح مايستبهم .

وذهبت فى ذلك اليوم الى حيث ألقاها وأنفرد بها ، واستلقيت على ظهرى أتأمل السماء وكانت غائمة ، وأنا أحب السماء الغائمة ، فكأنى إذ أشهدها أقرأ فى سفر الحياة وأستطلع أسرار الكون ، وأتزود بالحكمة والمعرفة . وكانت الغيوم تتباعد وتتدانى ، وتتجمع وتتفرق ، وتقبل وتدبر ، وتسرع وتبطئ ، وتكبر وتصغر ؛ وهى فى كل ذلك منسجمة متسقة مؤتلفة ، وكأنها تعرض أشتاتاً من الصور وألواناً من القصص . وكانت تصاحبها موسيقا الطبيعة ذات المعانى العميقة والرموز الغامضة ، صاخبة متفجرة تارة ، وهادئة وادعة أخرى ، فتضفى عليها حلة من الرهبة والخيال ، وتَسِمها بطابع الشعر والفلسفة .

ورأيت فيما رأيت « مارس » العنيد وهو عائد من رحلته الدموية فى مركبته الرهيبة وسط الحرائق والأنقاض والأشلاء . وساد السكون فترة ثم خرجت الملائكة تنفخ فى الصور ، مبشرة بالأمان ، ناشرة ألوية السلام

ورأيت أبواب السجون وهى تنفرج فى بطء وتثاقل ، وجموع الأسرى وهى تنطلق من بينها ، بوجوه مكفهرة عليها غبرة ، ورءوس حاسرة وثياب خلقة ، وكانوا يسيرون بخطوات وئيدة ، كأن أقدامهم تنوء بهم ، وكانت أبصارهم شاردة وتقاطيعهم جامدة لا تنم على شئ

إن ضوء الحرية ليبهر بعد ظلمة الأسر . وإن الرئتين لتعجزان عن الامتلاء بالهواء الذى كانتا محرومتين منه . وكأنما ثابوا الى أنفسهم بعد حين ، وأدركوا أن كل شئ قد تغير : منظر الشمس والضوء والوجوه ، وكذلك مظهر الأشياء والأشخاص والحيوان ، والأصوات والألوان . . . فكل شئ زاد . وكل شئ رق .

وبدءوا يشعرون بالدعة والراحة وقد توسدوها فجأة ، وأخذت الأجساد تعيش والأرواح تتنبه . وهم يستطيعون الآن وبدون أن يخشوا شيئاً ، أن يرفعوا أصواتهم وأن يبتسموا ، وأن يشاهدوا وأن يستمعوا ، وأن يفكروا كما يروق لهم ، وأن يكتبوا مايسنح فى خاطرهم ، وأن يتلقوا الرسائل ولا يشاركهم أحد فى قراءتها . وها هم أولاء يتنفسون ، وها هى ذى قلوبهم تنبض ، وها هى ذى أرواحهم التى أعتقت تستطيع أن تنطلق فى الأفق الواسع حيث تحلق وترفرف .

ورأيت كلا منهم يتجه إلى أهله وذويه بجسده وقلبه وروحه ، وهؤلاء يستقبلونه بأجسادهم وقلوبهم وأرواحهم . وقد كانوا منذ أشهر قانطين من أوبته لا يستقرون من القلق عليه ، تنتابهم الهواجس وتشجيهم الأحزان . هم أيضاً كانوا سجناء ، وكان سجنهم تلك الفكرة الواحدة الثابتة ، تلح عليهم وتأخذ بخناقهم . وها هم أولاء قد أرخى خناقهم ، وفُكّ أسرهم معه . هم أيضاً تغير الحاضر حيالهم ، وأضاء المستقبل أمامهم ، واستعادوا ثقتهم ، وصار كل شئ يبدو جميلا أمام أعينهم . فهذا التحرير بدء لسيرة جديدة ، وهو إذ ينبئ بانتهاء الساعات المريرة يكاد يمسح ذكرى الآلام الماضية .

وطفقت أتأمل وجوه العائدين من هناك وقد اقتربوا من أرض الوطن . وخيل الىّ أنهم يتهيبون هذا اللقاء ويشفقون منه بقدر ما كانوا يرغبون فيه ويتلهفون عليه . لقد كان يدور فى قلوبهم التى طالما هفت الى هذه اللحظة ، صراع مرير أشد هولاً من كل المعارك التى خاضوا غمارها . وكانت عيونهم تنطق بهذا الاضطراب الذى كان يعصف بهم ، ويملأ بالرهبة جوانحهم . . . كيف يجد بعضهم بعضا ؟ هل القلوب تغيرت ؟ والأجساد ، الأجساد التى قاست

وتعذبت . . . والوجوه ، الوجوه العزيزة الطيبة ، التى كانت لـكل منهم الأفق والسماء والوطن . . . ماذا أصابها ؟ ماذا فعلت الحرب بها ؟ ترى هل أضحت كالأرض التى يطوونها ، أو الأقطار التى يجاوزونها ، وهى قد دكت آثارها ، وذهبت بمعالمها .

وسمعت أحدهم يسائل : « ألا زالت أعين طفلى جميلة كما كانت ؟ وابتسامة امرأتى . . . »

وكان للأسرة صديق أريب رأيته يسارع مستبقا هذا اللقاء الرهيب ويقول للعائد المسكين : « خذ حِذْرَك ، فستجد أمك وقد تغيرت قليلا . لقد ضعف منها البصر . واضبط نفسك فان أباك لا يقدر على الحراك وقد بانت عليه نهكة المرض . »

ورأيته يعود سريعا أيضاً وينذر الأسرة الشقية : « ستجدونه وقد تغير قليلا . لقد وخطه الشيب . وإياكم وإظهار جزعكم ، فقد ترون له ساقاً من خشب بدلا من التى فقدها . ولـكن هذا أمر هين ، فستصنع له أخرى ، ويثوب إلى حالته الأولى . ثم لا تنسوا اضطراب النفس ووعثاء السفر . »

وأخيراً حلت اللحظة القاسية ، ورأيت الزوجة تشخص ببصرها وتسائل فى ارتياب : أين هو ؟ ولم يطل هذا الارتياب لحظة ، ولكن من يدرى كم سيبقى أثره ، وكم سيدوم عنفه ؟

ولقد جرف الفرح باللقاء كل شئ أمامه كالعاصفة ، فتبددت الحيرة أمام نشوة الحوزة ، وانقشع الذهول وتلاشى الذعر أمام الشعور بالحياة والتحقق من استمرارها . ورأيت كلا منهم يحتـال ليظهر بمظهر المبتهج ، ويتصنع الاغتباط ، ويحمل نفسه على الضحك . وكانوا يتبارون جميعاً فى النوادر والفكاهات والملح . ورأيت الرجل يرفع عكازه فى الهواء ويرقص به على قدمه الواحدة لـكى يطرب منه الآخرون .

لشدَّ ما كذبوا جميعاً . . . ولـكن ما كان أروعه من كذب !

والتفت الزوج إلى زوجته وقال : « هه ! لقد عدت حطاما ! هذا كل ما بقى منى ! » . فقالت له : « صه ! إنك لازلت كما كنت » . والتفت الأب إلى ولده العائد من الأسر وقال : « ونحن يا ولدى ، لقد انتهينا . . . » فقال الابن : « حاشا . . . ما كنت أتوقع أن أراك بهذه الصحة والعافية » .

يا للأكذوبة السامية ! ويا للمهزلة الفائقة !

ورأيت مثل هذه الأكاذيب وهذه المهازل تؤدّى فى كل الأسر التى عاد أبناؤها ، على هذا النحو من البسالة والنبالة والسمو والكرم . ولقد عرف بعضهم بعضاً فى لمح البصر ، ولكن هذه اللحظة التى كانوا يصبون إليها جميعاً ، كانت تختزن لهم الآلام والهموم . كانت تبدو على جميع الوجوه — المقيم منهم والعائد — آثار العذاب وسمات الشقاء وشواهد الهم وعلامات الهرم ؛ لأن الجميع حتى الذين لم يبرحوا مكانهم ، حاربوا حربهم وعانوا مرارة الذل والأسر . ولم يقر أحد منهم بشىء فى مبدأ الأمر ، بل كانوا يكبتون آهاتهم ، ويحجزون أناتهم ، ويخفون لوعتهم بالعناق ، ويختنقون غُصَصَهم تحت سيل من القُبَل .

بيد أن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذ لم يكن هناك مناص من الاعتراف بما أحكم إخفاؤه من الأسقام والعلل ، والبوح بما كان يدارى بالصمت والكتمان : بالعمى والصمم والجراح التى شوّهت والأعضاء التى بُترت ، وكل ما كانوا لا يجرءون على الكشف عنه أو الاعتراف به . وهو الآن لا يمكن أن يبقى مستوراً أو خافياً ، فالحقيقة تأتى ، وها هى ذى تقترب وتلح وتصرخ ثم تنفجر .

رباه أى محنة كانت ! وأى شقاء !

نعم لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة سريعاً ، ولكنها حين غدت سافرة بدت بشعة . وعندئذ أخذ سيل الحكايات يفيض ، والاعترافات تتدفق ، والدموع تنهمر ، والزفرات تتصاعد . وعندئذ فقط بدت آثار الضيق الجسمانى وأمارات الانكماش الذاتى والانقباض المعنوى . تلك الآثار والأمارات التى لم تُرَ فى مبدأ الأمر أو لم يبغ أحد رؤيتها . بدا التغير فى المظهر والتقاطيع : فى الجباه التى تغضّنت وتقبضت ، والخدود التى غارت وشحبت ، والعيون التى خمد نورها وذهب بريقها ، والصوت الذى تبلدت نغمته وانثلمت رنته ، والشعر الذى اغبر واصفر ، والجلد الذى قَحَل وذبُل . . . ظهر التبدل فى الحركة والنظرة : فى ذلك التراخى والفتور اللذين يستوليان على الشخص بأكمله ، وذلك الذهول العجيب المشابه للتأمل الدائم عند من أصابتهم الحرب برضتها ، وتلك النظرة الغريبة الخاوية التى تنبئ بانقشاع الأوهام لدى العائدين منها . وكُشف عن الجروح المخفاة تحت الأغطية ، والندوب المستورة تحت الأردية . وأظهرت البسمات مكان الأسنان التى سقطت ، وبان الهزال وزاد تحت الملابس التى اتسعت .

ورأيت الزوجة تحدق فى الزوج وتقول : « يا إلهى ! أى آخر أعدته إلىّ ! » وأخذ الزوج يقابل بين الصورة الجميلة التى رحل بها ولم تبرح مخيلته ، وبين الصورة الماثلة أمام عينه وقد زايلتها ميعتها ، وأثر فيها الجوع والخوف والحرمان والسقم .

ولقد اشتد الحنان لهم والشفقة بهم ، وزاد الإحساس بالإكبار وبالاحترام تجاههم . ولكننى رأيت فيهم من وجد أن القلوب تحولت ، وأن الحياة تبدلت ، وأن صروفها عصفت بكل ما كان يعتز به ويغار عليه . فأسف لعودته ، وتمنى لو أنه كان لقى حتفه كخلاّنه فى ساحة الشرف . ولكن واسفاه ، حتى الموت لم يظفر به كل من يطلبه !

ورأيت فيهم من لا يجد له عزاء عن تركه السلاح ؛ فقد راض نفسه على الكفاح ، وصارت الحياة عنده تبدو بدونه تافهة . وفيهم من بدأ ينسج خيوط حياة جديدة أجمل وأفضل ؛ والإنسان لا يبدأ التفكير فى حياة جديدة إلا من فوق الخرائب والأنقاض . وفيهم من وجد أن أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه ، قد أودى بهم فعل الإنسان بأخيه الإنسان ، فأخذت مراجل العداوة تغلى فى صدره من جديد ، وامتلأت نفسه بالسخائم والأحقاد ، وتملكته الرغبة فى الأخذ بالثأر . وفيهم من استسلم للقضاء وتذرع بالصبر وخضع . وفيهم من تمرد على كل القيم المعنوية العزيزة على الإنسانية ، كحب الوطن ، والدفاع عن المثل العليا ، والتضحية . وفيهم من دب إليه دبيب الشك فى الحضارة القائمة وفى عظمة الفكر الإنسانى الذى لم يبدع شيئاً إلا كان له شأن فى كل ما نزل به . وفيهم من استبد به اليأس ، فهو لم يعد — واحسرتاه — يصلح لأمر . . .

وولّى النهار ، واختلطت الظلمة بالنور ، وتعاقبت أمام ناظرى هذه الصور الكئيبة والبقايا المحطمة ، كأنها أرواح معذبة ، أو خيالات حائرة ، تومض فى لوحات معتمة ثم تنسل وتختفى . وأسبل الليل ستره على الكون ، ولم أعد أرى شيئاً . وخفتت الأصوات ، وهجعت الأطيار ، وهدأت الأشباح ، وهمدت الأشياء . ولم يكن يُسمع غير رذاذ لا يرى ، كان يتساقط على أوراق الخريف الميتة وكأنه يهمس إليها ، وكان كل شئ يبدو كأنه ينصت .

هل كان ذلك وحى قصة ؟ هل كان حلما ؟ هل كانت تخيلات وتصورات ؟ أم كان ذلك صدى لإحدى مقطوعات موزارت أو أثر لوحة من لوحات رافائيل . . . ؟ لست أدرى ! ولكنى شهدت وسمعت . وقمت أتعثر فى خطاى ، شارد اللب ، ذاهل البصر . وطرقت مسمعى زقزقة عصفور صغير ضعيف كصوت الحق ، كان يرتعد مبتلا على فنن ، وكأنه هاتف يهتف : « ليت من يدفعون بهذه المخلوقات التعسة إلى كل هذا الهوان ، يدركون أن الإنسان لا تشفى آلامه ، ولا تؤسى جراحه ، عندما ينقشع دخان البارود أو تتعالى أهازيج النصر . »

عبد القادر السماحى

أريتريا

مشاهدات وآمال

٢ [١]

الثقافة : يبهر المتنقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من أعمال إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمة أوربية قد استعمرت بلاداً طيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها فى الشعب ، أو ترفع إدارتها مستوى المعيشة إلى الدرجة التى تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثار ضحكك وإعجابك عند ما تسمع هؤلاء الناس وقد بسّطوا اللغة تبسيطاً مخلاً ؛ فهم يعبرون مثلا ، فى تصريفهم الأفعال ، بضمائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « أنا ذهاب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب الذى من أجله لايعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا فى تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى أتيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذى يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على أتيوبيا . وكذلك لاحظ الطليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحيي فيهم النزعة القومية ، ويثير فيهم حب الاستقلال والرغبة فى التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على التعليم الذى يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا فحسب ، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة الملموسة . فكأن

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦)

هؤلاء الطليان فى مأدبة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية فى قصر فخم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسى عن السبب الحقيقى فى تلك الظاهرة الغريبة ، فعللت ذلك بأن الإيطالى المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريترى ولم يقدّر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته ممتهناً عقلية الشعب الأريترى ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحث على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير فى الكنيسة عليه المسيح مصلوباً فى صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك . وأما الناحية الاجتماعية فقد نزل الايطالى إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريترى ينظر إلى الأوربى بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربى يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الايطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالى فعمدت فى سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأتيوبيا من يد الطليان ، فكنت ترى الأتيوبى أو الأريترى يستخدم الايطالى . وقد انقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون بهذا قانعون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أتيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذى يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن . وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يماثلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً فى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالى شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أى اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلا عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر فى أخلاق هذا الشعب المستعمر جعلته يخفق فى حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

الأريترى الذى يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التى جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التى ركزها الطليان فى الدعاية لحب إيطاليا أو التى ركزوها فى الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتى كان مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكى . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنيــة التى تراها فى أريتريا فهى لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

الدين : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومنتيوس فى القرن الرابع الميلادى حين رست به السفينة فى ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية فى المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطى مطراناً على تلك الجهات (أى الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجرى تقريباً . ويقيم المسيحيون فى أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ فى القداس استعمال السيسترم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية فى أريتريا ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعــد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية فى ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركا حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعــد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الدينى لأريتريا المطران القبطى الموجود فى أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأتيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس فى مصر على أن يُرسم على أتيوبيا مطران أتيوبى ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التى بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحرية بها ، ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده فى تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الايطالى لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافى . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة فى أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسى من جهة والتأثير

فى الناس بالمظهر الخارجى للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا فى ذلك . ويبدو لى أنه قد حان الوقت الذى يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفا مصريًا يكون تابعاً للبطريرك القبطى مباشرة أو للمطران الأثيوبى ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة فى نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الايطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الاسلامى منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبـائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين وفى معظم البجه وكذلك فى كل القبـائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتى الدنا كل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنيين ، وهم على المذهب المالكى أو الشافعى . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهى منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية فى جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحدادية والتيجانية . وقد حمل المسلمون فى أريتريا ثقافة مصرية أتتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون فى رواق الجبرتى فى الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولـكن جهود مصر فى تنظيم هـذه الثقافة التى استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتى مثلا فى حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم فى هذا لمساً يدعو إلى الاطمئنان .

العادات : يسترعى نظر المصرى فى تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثانى — حج أول — حج ثانى — شفر — ربيع أول — ربيع ثانى — جماد أول — جماد ثانى . وهم لا يتزوجون فى رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة فى هـذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزواج إلا فى الأشهر الزوجية وهى الأفاطر والحاجاج والأربعات والأجدات، كما يسمونها .

والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والاناث عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يحلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما فى وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أى من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها اسم فى لغتهم ، وهذا يماثل ما نسميه فى مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويحلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أو على السوالف أو حول الرأس أو فى مقدم الرأس وفى آخره معاً ، وتعرف الأبكار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريتريين معتقدات فى قوة الشعر السحرية ، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو فى مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله «ينشعر» أو تتشتت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتى من الشعر فيقولون فى تعبيرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سنه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورماهما مع سنه وهو يقول : أيها الضبع خذى سنى الجميلة وأعطنى سنك القبيحة . وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال فى مصر : «ياشمس ياشموسه ، خذى سنة العروسه ، وهات سنة الجموسة» . ولهم فى مأكلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رئته أو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون فى ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون فى صلاتهم ، ولا يأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد .

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقى أى جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير . وقد قلت لأحد فقهائهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامى ، وإن الآية صريحة فى سورة المائدة

«أليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ وطعامُكم حِلٌّ لهم» فقال إننا نعتبر المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا ؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم.

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خميرة على الطريقة المعروفة عند البدو فى مصر ، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب . وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير .

ولهم تقاليد معقدة فى حالات الموت : فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت ، ويختلف المأتم باختلاف مركز الميت وسنه . وقد ذكر لى بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات ، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحلبون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن. وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراحلين ثم يذكرون فى كل مرة اسم الراحل . ولست فى حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين فى الأحجبة والسحر والسحرة .

ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى ، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكرة : « حوار شيك » أى حمار الشيخ ، و «اتجاوها» أى أتى فى الفجر ، و«هامرا باى» أى أضعف الأعداء ، و«هارابا» أى أطعم الغريب ، و« جمبب » أى غطاء (الأم) و «هاداما» أى هرّب (الأعداء) و « بديهو » أى لَقيا . ومن بين الأعلام المؤنثة « أرهبت » أى أراحت « وقبربا » أى سعيدة . وقد ذكروا لى أن الأم تطلق عادة على كل من أولادها إسماً ثانياً يكون صفة .

والشعب الأريترى على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة ، وتقوى فى العبادة ، وهدوء فى الطبع ، وصدق فى المعاملة ، وإخلاص فى العمل. وأشكالهم فى جملتها لطيفة : وجوههم سمحة ، ولون بشرتهم أسمر مشرب بحمرة ، وأجسامهم مستوية . وقد اشتهرت نساء قبيلة بلين بجمالهن ، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن . وتسير المرأة من نساء البلين بخطوات هادئة رزينة متناسقة ، وهى تخور بجسمها النحيل السمهرى المستقيم كالتمثال المنحوت ، وذراعاها سبطتان، وخصرها لايتحرك فى سيرها ولكنه بعيد عن الجمود . وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكلفة. وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن ممثلات السينما فى هوليود يمكنهن أن يتعلمن من نساء البلين الكثير من سر الجاذبية الجنسية.

الأدب الشعبى : يغرم أهل أريتريا بالأحاجى «والفوازير». وهذا يندر فى لغات أتيوبيا، ولكنا نعهد مثله فى مصر. ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو بشرح الأمثال على ما هو معروف فى الأدب العربى. فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطىء اسمه جادام. ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن تعقد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطىء، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام، فوصل بمقدمه إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً فى الأرض، فلم يتمكن الجبل من الحركة، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم فى مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم؛ ولذلك تجد جبل جادام يسبق الجبال إلى الشاطىء. ويقولون فى الأمثال : « لا ترتكب خطأ فإنه يجب أن يقف كل فى مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام ».

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى. وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فمه على فم الآخر، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قويا إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير الانسان، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا. المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية ». وأما غرامهم بالشعر فعظيم، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية. وإليك بعض ما قاله شعراؤهم فى المصريين.

فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس ألولا وقد قبض عليه الرأس ووضعه فى الأغلال ولكنه هرب، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين، فقال يناجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصفد فى الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأمجاد . »

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجرى موزعة بين الأحباش والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل فى حصن كيرين ، وكان له صديق انضم إلى الرأس ألولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه ، وهو يمتدح المصريين ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثأر من أهله ويناقض شاتمه ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فحدأة على الشجرة
إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجات
وكل من تركهم « ألولا » خلفه تحكمه نحن
ما ذا يعطيكم لتأكلوا سوى الخبز وحده !
يقوم بينى وبينكم بحر واسع
فسيدى يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم
ويجزل العطاء فيملأ يدى بالنقود
متى قلت إنى عريان أو إن لباسى ممزق .
هل آخذ ثأرى منكم أو أتركه ؟
تعالَ إلينا فنحن أثرياء
فحماية سيدى لا تقدر فضلا عن سخائه
إن ثأرى جائع لكنه لا يرغب فى الطعام
إن ثأرى ظمآن لكنه يأبى الارتواء
لا يخرج ثأرى إلى أبعد من الكلام إلى الناس
ثأرى ضعيف لا تقوم له قائمة
فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس ألولا) إنى سكران كأنى ثمل من الخمر
يقولون إنى مجنون كأنى اقتحمت منازلهم
ولكنهم خاطئون فلم أشرب الخمر ولا طرقت منازلهم.
بلغ سلامى يا صديقى إلى الحبيبة إذا مررت بها
ليس جمالها الذى أعلّنى وأسقمنى
بل كما لها فى قولها وتمامها فى فعلها
ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الكذب
ليست بغيًّا تجلس أمام كل بيت
إذا أحبت رجلا أنفت مطاردته
وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله
هم يقولون إنها بغى كذبا وظلماً
إنها قابعة فى دارها فى عيش رغد
أنا مطمئن اليها واثق بها
لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملى فى الحصن حيث الضباط.»

مراد كامل

ليلة فى ڤرسوفيا

فى إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة فى القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويجثم على قلوب الناس هم من السعير الملتهب ، وفى تلك الأيام الخاليـة حين كان اسم هتلر يتلألأ فى سماء ألمانيا ، بل فى تلك السنة التى استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعنى سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين فى جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بثكنة ، لـكنه كان فى الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ؛ لأنهما كانا واثقين فى سيرهما ، ويسير اليها الآخران واثقين فى الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبللها المطر ، فى تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولـكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا فى القاهرة ، ولا فى برلين ، بل فى ڤرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة فى سماتهم مزيجا عجيبا من بنى البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت فى القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت فى الامتـلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربى مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشئ من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متـكورا . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضا ولـكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيرا ؛ فهو حليق اللحية ، ولـكن الشعر ترك أثراً أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الـكثير من لمعته وحيويته . والشعر فى هذه المرحلة يستجيب الى الهواء

فى سرعة أو فى صعوبة ، فهو إذا عبث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التى هى دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غريبان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون — أجل — ولكن فى بياضه حمرة عميقة قلما تشاهد فى أهل الشمال من أوربا ، وهى إن شوهدت هنالك ، اتخذت بريق طيف من أطياف اللون الأحمر التى تراها فى الخمر الأوربية وفى النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون فى هذا الرجل فكان فيه شئ آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التى تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولى إلى روما ، أو تلك الأراضى الساحرة القائمة حول خليج سورنت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقة السماء تغشى الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض الأرجوانية . ويزيد فى جمالها ذلك الدخان الأبدى المتدفق من المارد الرابض فى جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربى فى الجنوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذى عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربى إذا ما رأى شخصا قريبا إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر الى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعره ، وقد وضع على عينيه منظارا يخفى لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التى عرفت الفراعنة ، فلونه الأسمر مزيج من اللبن والبن وجسده الممتلئ يوحى بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون فى ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء ضخم شاهق ، أول ما يلفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور

قصير ، وفى هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور فى الجانب الآخر وتبعهما المصريان ، فإذا النهر يجرى تحت تلك الساحة ، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة ، وأسرع المضيفان فطلبا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا » ؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التى تكاد تكون روسية فى مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا ، وأربعة أقداح ، وجلس الأربعة الى الشراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الفخم ناديا لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون ، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى كانت أنغام الجاز تترامى إليهم بطيئة ساحرة أحيانا ، فإذا هى تانجو أو رومبا ، أو سريعة أخاذة فإذا هى فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى فى مفاصلهم سريعا ، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية ، ولمعت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم ، وبدآ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة ، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الانسان ساعات أسعد من تلك التى ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعا ؛ إذ لم تكن لديهم رغبة فى البحث العميق ، ولم ينتظم غير ملء الأقداح كلما أفرغ أحدهم فى جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين : هيا بنا . وقام المصريان — فى شئ من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجف ، فسارت بهم على مهل فى الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة ، وربما سارت فى ذات الشوارع التى اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنبيان ! إذ لم يقيما فى العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولهما غلالة شفافة لا تكاد تتميز منها الأشياء ، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هى بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس ، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا فى طرقة طويلة سلموا فى آخرها معاطفهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية فى الإناقة ، وقد صفت حولها موائد للجالسين ، وفى وسطها مكان فسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكى ضوء القمر فى هدوئه وفى خفوته ، وكان هـذا النور الخافت يترامى من مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، فى قبة الردهة التى كان لونها أزرق صافيـاً يحاكى لون السماء . وكانت الموسيقا تعزف رقصة تانجو ، فى حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست فى الصف الأول من المتفرجين ، فجميع الموائد فى ذاك الصف كانت مشغولة ، وجاءت فى الحال زجاجة الفودكا الـكبيرة والأقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هـذه الخمر الشديدة ، ولـكنهما فى سبيل مجاراة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الخمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا .

امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يجيلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال فى ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء فى أغلى الثياب وأبدعها زيـّـا ، غير أن العجيب فى هذا الجمع أن أجمل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين فى السن ، ابيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات فى الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغبـاتهن فى المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابهم فى جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالا أثرياء يتمتعون بشـباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمراً بحيث غشيت أبصارهم غشاوة من أثر الخمر ، وكأنهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمزيد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن ليستطيع أن يحول نظره وبقيـة أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر ، إلا إذا التفتا قليلا إلى الخلف . كان الرجل بديناً ذا رأس أملس إلا من حِفـاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشـة ، وقميصه وياقته غاية فى النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غضّنت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما فى أسفل الرقبة . وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة ، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق ، وتعرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر . من وهو ظهر جميل فى تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصرى لعل هذا الظهر هو الذى سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخن سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الكأس اللامعة ، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلا ، وقد وضعت رجلا على رجل وأخذت تدخن سيجارة ، وأمامها الكأس .

ولقد كان ظهرها فى جماله وانحنائه القليل كأنه يتكلم . إنه لا شك يعبر عن سأم ، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هـذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات الليلية ؛ فهى مُسكن يقيها شر التفكير فى حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يُشعِر بالصحـة ! إنه يخفى الألم الكامن .

كانت المناظر تتتابع ، من راقصة تكاد تكون عارية تعرض فنها ، إلى مغن هرم حسن الصوت ! كل منهما يعرض فنه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذا السيد لم يقم بمراقصة زوجته أو صديقته ، واستمرا جالسين : هو يدخن سيجاره ، وهى بظهرها الحلو الجميل المنحنى قليلا تدخن سيجارة ، أو ترتشف جرعة من الكأس . وليس ثمة شك فى أنه لو طلب إليها المراقصة لانتصبت قامتها الهيفاء ، ولخاصرت هذا الجسد البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل المخمور لا يزال ينظر إلى الجسد البـدين ، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحنى قليلا ، يمثل السآمة والملل ، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدثه الحرير من تغير أوضاع الجلسات بين مئات من النساء ! لا ريب فى أنهن أخذن ينتبهن باهتمام إلى العرض .

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولكنه قصير ، يرتدى ثيابا زرقا على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير الأزرق الفاتح البراق ، وهو جميل الصورة جدا ، غير أن كل حركة فى جسمه تنم عن رجولة .

وعزفت الموسيقا فى قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثنى على ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقا خاطفة وقصيرة ، وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .

لم تمض فترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع « الجوپاك » وعاد الفتى الى الرقص ، وكان سريعا ورشيقا وقويا ، وكان اهتمام النساء واهتمام الظهر الجميل باديا للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً من غشاوة الخمر .

وعلى حين فجأة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى فى أرجاء المكان صرخة امرأة وشهيق .

وهب الجالسون الأربعة ، إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهرول الأربعة إلى الخارج يترنحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان والخمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هى الصارخة .

حسن محمود

الكنيسة الشرقية

إنه لمن دواعى الاغتباط وآيات التوفيق أن تتشعب الحركة الثقافية فى الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانسانى . ولما كان للأبحاث التاريخية القِدْح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرأى من مواضع النظر رأينا الإدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الأجيال .

تقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان مايدفعنا الحرص على نفى اللبس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، أى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحله ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوربا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحى المذهبية أو مناط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تامًّا فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر التاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلست له قيادها ثم وسمته بعقليتها خيرُ معوان على تميز عناصره الفعالة وتحديد علاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عليها . فى رأى « تين » أن العبقرى وليد جنسه وبيئته وزمانه ليس إلا . ويزعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وجلىّ أننا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الجبرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لنستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد جلت أبحاث لفيف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة ؛ ونورده ملخصاً فيما يلى :

أولا أن المسيحية — أو بالأحرى المسيحية المطلقة — قد نشأت فى القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سذاجتها ، فهى تنبئ عن ارتباط المسيحية بعقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكملا لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس فى نظر المسيحيين إلا اكتمالا لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمانيه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدوية ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين فى ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التى طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذى انبلج فى الشرق قد فاض على عالم ساده نظام روما فترعرعت الكنيسة الشرقية فى محيط رومانى . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرقى وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلا على انتظامها فى تلك الوحدة الحية ما بقى إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التى كانت تجتاز العالم المتمدن منتهية إلى روما قلبه النابض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال توفد إليه أعلامها وتبادله بأسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما يَسِمها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التى درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière فى تحليل

هذه البيئة ومقارنة روحها بالنفسية الجديدة صفحات ممتعة تجلو سر الحقبة الممتازة من تاريخ الثقافة العامة . وفى الواقع أن إسكندر الكبير ضرب بسهم وافر فى خلق روح شاملة تعلو الفروق الجنسية والنزعات القومية ، روح وئام وإخاء انتشرت فى القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنية hellénisme لما يطبعها من الثقافة اليونانية . وإذا شئنا إجمال خصائصها بكلمات معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان فى حمى النظام الذى تصطنعه المدينة اليونانية . ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا محورى الهلنية . ولا يتسع المقام هنا للإفاضة فى تحليلها . فنجترئ بالاشارة إلى أن المسيحية على العموم والكنيسة الشرقية على الخصوص قد تلقت هذا التراث القديم وأفرغته فى قالب جديد أو نفثت فيه روحاً جديدة هى رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . وقد غرّ هذا الاصطباغ بالهلّنية بعض الباحثين فتوهموا أن الثقافة المسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية ، ولا سيما من الناحية الفلسفية . ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتفوقها فى جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية . غير أنه يجب الاعتراف بالأثر اليونانى فى الكنيسة الشرقية بل فى الكنيسة جمعاء . وفى الحق أن المدن التى طافها الرسل لنشر الرسالة الجديدة كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر كانت اليونانية . وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث ، وكان جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمنضس الرومانى Clément de Rome يكتبون بها . فلا يغب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية فى القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية فى أيامنا هذه وما يتخلل أدعيتها من العبارات اليونانية .

ويجمل التنويه فى هذا المقام بأمرين : أولا ، ما عانته الكنيسة الشرقية كشقيقتها الكنيسة الغربية من ألوان الاضطهاد فى نشأتها الأولى إذ كانت الوثنية فى عنفوانها . ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث الروح الجديد فى مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يندى لها الجبين فلم يتم لها هذا النصر إلا بما سفك شهداؤها من دمائهم فى كل بقعة من الإمبراطورية الرومانية . وكان للشرق فى هذا الاستشهاد نصيب مجيد : ثانياً ، أن الرسالة المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لايدركها إلا الخاصة من أعلام الفكر

بل كانت موجهة إلى عامة الشعب من جهلاء وبؤساء، تبعث فى قلوبهم النور مع الرجاء. ولا أدل على تأثيرها فى تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس ولا سيما رسائله إلى أهل كورنتيا.

ذلك شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها. أما نموها وانتشارها على سواحل البحر المتوسط فصفحة مجيدة من تاريخ الفكر فى الشرق الأدنى. كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة من يونانية ولاتينية. وقد تركزت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً فى بعض مراكز هامة، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الاقليمية والتاريخية. فأولى الكنائس شأنا من حيث النظر فى مضمون الوحى والرسالة المسيحية هى دون مراء كنيسة الإسكندرية. ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها؛ إذ تلاقى فيها الوحى الإلهى والحكمة اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيما فيلون الإسكندرى. والواقع أن ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحا رمزيا على نمط التفاسير اليونانية القديمة مما أنهج السبيل إلى قبول المسيحية فى معشر المثقفين. وتاريخ مدرسة الاسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف. فلا يخفى أن الإسكندرية كانت فى القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقى للثقافة العامة فى البلاد المتمدنة. أما ما يخلق بنا الاشارة إليه فهو أن الإسكندرية أصبحت أيضاً فى القرون الأولى بعد المسيح مركزا هاما للتفكير الدينى. ولا نعنى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فحسب، بل كذلك تعاليم كنيسة الإسكندرية والجامعة Didascalée التى أنشأها أكليمنضس الإسكندرى، وكان نبراسها أورجينس Origène. وقدبلغت أوج المجد فى القرنين الرابع والخامس على عهد القديس أثناسيس Athanase وكيرلس Cyrille. فما أحرانا أن نتعمق تاريخنا الثقافى والدينى فى هذه الحقبة وهى حافلة بمفكرين، مجددين ذوى رأى وإقدام يقدرون الحق قدره ويرتضون الاضطهاد فى سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين بحياتهم إخلاصا لإيمانهم. فمن ذا الذى يتتبع القديس أثناسيس مثلا فى نضاله عن العقيدة التى قررها مجمع نقية Nicée ولا يأخذه العجب.

لقد ذاع صيت الإسكندرية بشهدائها وعلمائها، وتمجدت الكنيسة المصرية

قاطبة برهبانها وأديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل ألوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر كانت معيناً لا ينضب للحياة الروحية الحقة . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية فى النصرانية بأسرها ، إذ تلقت المسيحية ممن أسمتهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة فى مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية فى الـكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الـكنيسة القبطية اليوم ، وهى وريثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة فى جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للـكنيسة الشرقية فى مدينة أنطاكية ، تلقت كالاسكندرية التراث اليونانى بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقراً لهم حيناً بعد حين . وفى هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الحواريين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الجهة الفكرية بصبغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلا إلى التعليم الأرسطى . فبينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزى ، تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفى الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر فى إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على نقيض الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين فى الاتجاه العقلى من الأسباب التى أدت إلى الخلاف الذى نشب بين الـكنيستين . وأشهر ممثل لـكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، فهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته فى الرأى وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل ينشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلـينية الأصيلة لتمسكها بتقاليدها اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصبغة يونانية . فمع ذيوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردحا من الزمن ترنو إلى اليهودية

بشيء من العطف حتى اكتمل تطورها النفسانى من حيث إخلاصها للرسالة المسيحية الصرفة .

ولسورية والأصقاع المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية ، هو إنماء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية ، تلك الثقافة التى أنجبت أعلاماً من طراز افرهاط وأفرام ويعقوب . والقديس أفرام هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية ، شرقيها وغربيها ، فسّر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية . ويقترن بذكره اسم ناسك آخر تضوّعت تقواه فى الأقطار السورية هو القديس مارون أبو الطائفة المارونية .

وأخيراً نتوجه بأنظارنا إلى الكنيسة التى أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أى كنيسة القسطنطينية. استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحى ، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية . فغادرها ليؤسس مدينة جديدة تصبح رمزاً للإمبراطورية الحديثة . فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، وانتقل إليها مع حاشيته . وكان لهذا الحدث خطورته فى تاريخ الكنيسة الشرقية ؛ إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من الغرب إلى الشرق . كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحى . ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتات على حقوق السلطة الروحية مما أنزل أحيانا الكنيسة ورؤساءها منزلة التابع للإمبراطور البيزنطى ، فأدى هذا الاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدا ، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعانى إلى اليوم — صعابا جمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد .

أصبحت القسطنطينية أعظم مدينة فى الإمبراطورية ودعيت روما الثانية . فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية ، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصير أيضاً خليفتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية ؛ فوفقت فى ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت فى القرن الخامس إحدى البطريركيات الشرقية الأربع (وهى أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية) .

ولابد من الإشارة فى هذا الصدد إلى النزاع الذى شجر بين الكنيسة الشرقية

والكنيسة الغربية فى القرن التاسع وأدى إلى انفصال الجزء الأكبر من الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية فى معظمها — منها الخلاف على الإمامة الدينية التى أنكرها «الأرثوذكس» على بطريرك روما أى البابا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الكنيسة فى كنف الإمبراطورية أحد عشر قرنا (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثت فيها روح حضارة مكينة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطى قد انتشرت فى سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطى متشعب الأطراف، حافل بألوان الفكر. وهناك تصوير بيزنطى تزكيه الروح الدينية البيزنطية. وهناك شرع محكم الوضع من وحى بيزنطى يرقى عهده إلى جوستينيان. وهنالك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم فى أناشيد القداس وسائر الترانيم الكَنَسيّة، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرانيها تعد سليلة الكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «الروم» لا تمسكا منها باللغة اليونانية — فكثير من الصلوات الآن تتلى بالعربية — ولكن إشارة إلى مصدرها واتصال طقسها وروحيتها بالكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مما يثير العجب أن نرى فى القرن العشرين كنيسة مثل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقلية وهى تحتفظ مع ذلك فى غيرة فائقة بطقس مجيد عريق متشبع بالشرقية البيزنطية يردد فى نغمات ألحانه شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو ضفاف العاصى أو ربوع لبنان . . .

هذه لمحة سريعة لم نعرض فيها لاتصال الكنائس الشرقية بالعرب الفاتحين أو لنشاطها فى محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودنا لو يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عن حالة الكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامى فى الشام ومصر، وعن آثار الكثيرين من أبنائها فى عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخية. وخير ما نختتم به هذا العرض الموجز أن الكنيسة ولدت ونمت فى محيط رومانى، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتدائها بالنور

الذى تشعه رسالة المسيح الفائقــة الطبيعة . فهى فى قسميها الشرقى والغربى كنيسة واحدة تَمُتُّ إلى أصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد .

على أن كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها فى بلاد عربية . وهى فوق تشبعها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية فى مصر ولبنانية فى لبنان وسورية فى سورية وفلسطينية فى فلسطين ، ومن ثم كانت الوسـيط الطبيعى للتفاهم بين هــذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق والغرب من أساليب التفكير .

الأب قنواتى

تمـــرّد...

أنا صَبٌّ بعــذابي أنا صب باكتئابي
أنا صَبٌّ بلظى سُخطي ، حَفِيٌّ باصطخابي
أنا مرتاح إلى ثورة نفسي ، واضطرابي
أنا راض بانفرادي مستخفٌّ باغترابي
أنا مسرور بتجديفي ، وشكي ، وارتيابي
أنا جذلان بما أُسقاه من سُمٍّ وصاب
أنا هيمان بآلامي ، وجُرحي ، واحترابي
إنها مبعث إقدامي ، وهزئي بالصعاب
إنها ترياق إحساسي وفكري وشبابي
إنها زاديَ ، في الصحراء ، إن شحَّ سرابي
أنا لا أسأم إنشاديَ ، في القفر اليبَاب
أنا لا يرعبني الليل ، وإن طال السُرى بي
أنا لا تفضحني الشكوى ، ولو فاض مصابي
إن شكوايَ بنُشّابي ، وشُهبي ، وحرابي

*

أنا للكوخ ، وللسرداب ، لا للقصر ، فنّي
ولخفق الريح ، في الأسمال ، ترجيعي ولحني
لاحتضار النور ، في ليل المساكين ، أُغنّي
ولخُلف القوت ، في بطن الفقير المتمني

ولأنات الحزانى أهدم الدنيا وأبنى
لابتسام اليائس المسلول ، إشفاقى وحزنى
لا لتكشير الذى يألم من عجز وجُبْن
للهاث المرهَق المكدود ، تسبيحى ويُمنى
أنا للبؤس ، وفى البؤس ، أعاصيرى ومزنى
وعلى الغَبْن ، وفى الغَبن ، نِصالى ومجنّى
أسكب القلب ، بأقداح المُعنَّى لا المُعنّى
أخلع الروح على المضنى ، وأرمى المتجنّى
قلمى منى ، ولن يُشتقّ ، إلا البأسُ ، منى
أصيدٌ ، فى الحق يمشى لم أخنه أو يخنّى

*

أنا عِربيد ، على الباطل ، كالسيف الأغرّ
لا يَفُلّ الظلمُ من حدّى ، ولا يُطفِىء جمرى
مِشْحَذى مقرعة الباغى الذى يوغر صدرى
وبريق بسمةُ الحقّ ، دجى الظلماء تغرى
أنا لا أبكى ، من العبءِ الذى يقصمُ ظهرى
لا ولا أكسر جفنىّ لمن يغصب زهرى
بل أُعِدّ العُدّة الكبرى لمن يعنيه قهرى
وترانى ألطم الجانى ، ولا أوليه عذرى
أنا غِرّيد ، وإن لحت غراباً وسط قفر
وَتَرٌ حرّ ، فلن أُطرب إلا كلّ حر
أنا نایٌ ، فى فم المظلوم ، لا يبطل سحرى
ترتمى أشجانه الحرّى ، بأضلاعى ، وتسرى
وهى ، فى مجرى دمائى ، حرة حمراء تجرى
فأزجّيها ، إلى الدنيا ، زئيراً من هزبر

تمرد

أنا بحر أترع الآفاق ، من سيبي ورفدى
أحبُك السحبَ ، وأرويهن ، من برق ورعدى
وأريها كيف تطغى الثورة الهوجاء عندى
ألتقى البرَّ ، وأسقيه أجاجى دون شهدى
إن هذا البرَّ قد أنتن ، فليغسله قدّى
إن هذا البرّ موبوء بما يضنى ويردى
لم يكن مستوطَن الأزهار : من رند وورد
إنه مستنقع الأفّاك ، والطاغى الألدّ
ويل هذا الآسن المغلول ، كم يحفز حقدى
سوف يهتزّ ، على طمّى عُبابٍ غير وغد
هو جارى ، ولقد أصدق ، للجيران ، عهدى
سوف أغزوه ، بتيارى ، وأبنى فيه مجدى
وسأحيي ، فيه ، بَرَّ الناس : من قِنٍّ وعبد
مرحباً بالبرّ ، لم يحكه سَوطُ المستبدّ

[حمص] منير الحسامي

ESQUISSE D'UNE
PSYCHOLOGIE DU CINEMA

André MALRAUX

خلاصة من بسيكولوچيا السينما

[نلفت إلى هذا المقال الممتع جميع القراء الذين يعنون بدقائق السينما لا سيما من النواحى التى عنى بها الكاتب الكبير وهى نواحى الانشاء والاخراج والعرض] .

١

لو أن جيوتو أو حتى كلويه جاب المعمورة من طرف إلى طرف ، لما صادف تصويراً ينكره أو يجده — رغم كل الفوارق — غير مألوف لديه ، ولسهل التفاهم بينه وبين مصورى الفرس والصينيين ؛ فإن مشاكل التعبير عن المرئيات بالتصوير كانت واحدة بالنسبة للجميع .

ولو حذا حذوهما روبين أو ديلاكروا لبدا له كل تصوير يصادفه عتيق الطراز ، ولاستعصت لوحاته هو على فهم المصورين من غير الأوربيين ؛ فإن وسائل تعبيره عن المرئيات تباين وسائلهم . ذلك أن مصورى الفرس والصينيين كانوا لا يأبهون ترفعاً بأصول الرسم المنظور من حيث وجوب إظهار العمق ، واتساق الأبعاد ، وتوزيع الضوء ، وتعبير الظاهر عن الباطن ، وكانت أوربا وباقى العالم المتمدن قد أقلعت عن مثل هذا الفهم لوظيفة التصوير . وماأوفى عهد طراز « الباروك » على نهايته حتى استتب فرق أساسى بين فن الغرب وفنون باقى العالم ، المعاصرة منها والسابقة ، فإن التصوير فى الغرب أصبح وليد عالم له أبعاد ثلاثة .

وقد تضافرت أسباب عدة على إحداث مثل هـذا التحول ؛ فلم يكن الناس جميعاً قد ألفوا إلا تصويراً يحتال — بقدر ما — على التعبير عن المرئيات بالرمز

المستتر ، فجاءت المسيحية واستحدثت أسلوباً لم يكن معروفاً من قبلها وهو أسلوب التعبير الدراماتيكى . حقًّا أن طقوس البوذية تعرف المناظر التمثيلية ، ولكنها خالية من عنصر الدراما . وأمريكا قبل كشفها كانت تقتصر فى الدراما على تصوير أشخاص فرادى لا يضمها معاً منظر تمثيلى . ولم يؤد الضعف الطارئ على المسيحية إلى إضعاف معنى الدراما عند الغرب ، بل — على العكس من ذلك — عمل على تقويته ، كما عمل فى الوقت ذاته على أن يخصّها بمعنى أرقى وأكثر تعمقاً ، وهو الأساس الكامن للمظاهر التالية : هذا الشعور بعالم الروح ، وهذه الرغبة فى إبراز أجسام المرئيات وأحجامها ، وهذه الحاجة الشديدة إلى الاستناد على دنيا الواقع المحسوس ، وإنها لحاجة أصبحت من خصائص الغرب الأصيلة ومرتبطة بغزوه السياسى للعالم كله . فقد جعلت أوربا إبراز أجسام المرئيات بديلا عن اتساق ألوان اللوحة ، والتاريخ عن سرد الوقائع ، والدراما عن التراجدى ، والقصة عن الحكاية ، وعلم النفس عن الحكمة ، والعمل عن التأمل ، أو بكلمة عامة ، جعلت الإنسان بديلا عن الآلهة .

ولا جرم أن تقديرنا اليوم لهذه المسائل يدفعنا إلى الزلل ؛ فإن التصوير فى العصر الحاضر ، أغلبه أيضاً وليد عالم من بعدين اثنين . وهذه مشكلة غير مقصورة على عالم الفنون الجميلة وحده ، بل هى أعمق من ذلك بكثير ؛ فإنها مشكلة المدنية ذاتها ، فى مساسها بالإنسان والكون كله . فوسائل البشر فى التعبير تتراوح بين قطبين ، نجد فى إحدهما التمثيل الصامت الذى لا ينطق فيه إلا ملامح الوجه والحركة ، ورقص أهل الصين وجاوا ، وتمثيل قدماء اليونان ، وترتيل المنشدين فى المعابد ، ووجوههم تتخفى وراء قناع . وفى القطب الآخر نجد أدباً لعلّ حروفه إشارات الاختزال ، وقلمه آلة كاتبة ، وجوّه ضجيج الليالى الصاخبة ؛ إذ روحه يظهر كاللمحة العابرة ، ويملأ شاشة مساحتها خمسة أمتار : إنه هو الفيلم .

والرجل الذى لا يتذوق جمال فن التصوير لذاته ، إذا دخل اليوم أحد متاحفه ، شعر بأنه يستعرض سلسلة من محاولات تشابه محاولات العلم فى إدراك كنه الأشياء وتصويرها ، ولألفى نفسه أكثر فهماً وتصديقاً لروبين منه لجيوتو ، ولبوتشللى منه لسيمابو ، ولوجد التصوير وسيلة لخلق العالم من جديد كما تدل عليه حواسنا . وقد ظلّ فن التصوير من القرن الثالث عشر إلى عصر الباروك يجدّد

وسائل تعبيره ؛ فقد كان للتصوير الأوربى منذ أقدم العصور إلى عهد الباروك غرض مزدوج ؛ فهو بجانب ما يقدمه إلينا ونراه فيه ، يجاهد فى التعبير عن الأشخاص والأشياء والمناظر الخيالية بوجه أخص بطريقة تحملنا قوتها واقتدارها على تصوّرها وتصديقها . وهذا المزج بين ما نسميه اليوم فن التصوير وبين وسائل التعبير ، هو الذى يحدو بزائرى المتاحف فى أيام العطلة إذا ما تأملوا لوحة من اللوحات (إذا كانت قد رسمت بعد عصر النهضة) أن يقولوا عن أشخاصها « يا لله ! كأنهم يهمون بالكلام وينطقون ! » . وهذا هو أيضاً ما كان يدفع سكان فلورنسا إذا ما تحدثوا عن لوحات بوتشيللى إلى القول عن أشخاصها بأنهم « أقرب إلى الصدق من الأحياء أنفسهم ! » . ولعل روعتهم من رؤية صور العذراء كما رسمها خلفاؤه لا تقل عن روعة أهل العصر الحاضر إذا ما طلع عليهم التلفزيون وعمّ بينهم فجأة .

ولكن حينما أوشك عصر الباروك على أن ينتهى ، حدث فى تاريخ الفنون حادث جديد لم يسبق له مثيل من قبل ؛ ذلك أن التصوير كف عن ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وأصبح — كما نعرفه اليوم — فناً غايته التصوير لذاته ، وتختص به طائفة من الفنانين . فلم ير العالم منذ ذلك الحين ولن يرى تقاطر الناس إلى لوحة وهم يتلهفون على رؤيتها ، ومالت الخطوط والألوان يوماً بعد يوم إلى التعبير عن روح المصوّر وحده . وبينما أخذ التصوير الحديث يزدهر ازدهاراً لا تلحظه العيون ، إذا بالتطلع إلى ابتكار وسائل جديدة للتعبير يُمْسَخُ شغفاً محموماً مسلوب القياد بالحركة وأوضاعها . ولم يكن الانتباه إلى الحركة وأسرارها وليد كشف فنى . وإذا عيب على عصر الباروك أنه رسم أشخاصه جامدين كالغرقى ، فإن التطور الذى استحدثه العصر الحديث لا يمس طريقة تصوير الأشخاص فى ذاتهم ، فإنما هو أشبه ما يكون بتصوير الشخص الواحد فى حركات متتابعة . وإذ أصبح فن التصوير يهيم بالحركة والعواطف ويستلهم المسرح فلا غرو إذا انتهى به المطاف إلى السينما .

٢

ولما اخترعت آلة التصوير فى منتصف القرن التاسع عشر تخلّى التصوير الأوربى بصفة صريحة قاطعة عن ميدانين كان يختص بهما من قبل وحده : أولهما

ميدان التعبير عن العواطف ، وثانيهما الاستعانة بالخيال ، وأصبح من جديد فنًّا همه الوحيد فى التعبير عن المرئيات إبرازهيئة أجسادها ، وغلب عليه مرة أخرى الخضوع لمقتضيات عالم من بعدين اثنين . فحياة الفرد منا اليوم ، وما تتضمنه من أحداث ، كالولادة والزواج وغير ذلك ، أصبح تسجيلها وقفاً على آلة التصوير . وهذه الآلة وهى تتصدى لتصوير الحياة قد تطورت فى الثلاثين سنة الماضية من آلة بدائية جامدة لها عين واحدة إلى آلة متوثبة يقظة لها ألف عين . وإذ كان هذا شأنها أصبحت تواجه — واحدة بين أخرى — نفس المشكلات التى عاناها فن التصوير ، إلى أن انتهت هى حيث انتهى هو أيضاً . ومما يزيد فى غلّ يدها أنها عاجزة عن الخيال ؛ فهى قد تلتقط قفزة سريعة لراقصة فى الهواء ، ولكن هيهات لها أن تصوّر لنا مثلا دخول الصليبيين إلى بيت المقدس . هذا مع أن البشر دائبون على التخيّل ، ويهيمون بأن يصوروا لأنفسهم كل شىء ، من أوجه القديسين إلى أسخف مشاهد التاريخ ، وسواء لديهم أكانت هذه الحوادث التى يجرى وراءها خيالهم مما يعلمون أو مما لم يروه قط .

فهذه المجهودات التى تتابعت طيلة أربعة قرون لاقتناص الحركة وقفت بالآلة حيث وقفت بريشة المصوّر من قبل . ومع أن السينما قادرة على تصوير الحركة ، فإن الخطوة التى خطتها فى هذا السبيل لم تزد على إبدالها الإشارات الثابتة بإشارات متحركة ، ولم يكن مفرّ إذا ما أريد أن يستمر بذل الجهد فى ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وإطلاقها من قيد العصر الباروكى ، من أن تتمتع آلة التصوير باستقلالها عن المنظر الذى يراد رسمه . وليست المشكلة مبعثها حركات شخص ممن يظهرون فى هذا المنظر ، بل مبعثها وجوب تتابع اللقطات . (واللقطة هى الوحدة السينمائية ، وتتغير كلما غيرت آلة التصوير مكانها أو زاويتها ومن تتابع اللقطات تنشأ عملية تقطيع الفيلم إلى أجزاء بحيث لا يكمل إلا إذا ضم بعضها إلى بعض . ومتوسط زمن اللقطة الآن هو عشر ثوانٍ) . وهذه المشكلة لم يتسن حلها فى ميدان الصناعة بإبدال آلة التصوير العاجزة بأخرى أكثر منها قدرةً ، بل كان حَلُّها فى ميدان الفن ، حينما ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم .

وحين ظلت السينما لا تخرج عن كونها وسيلة لإظهار أشخاص وهم يتحركون فإنها لم تزد فى عين الفن عن الفونوغراف وآلة التصوير البسيطة ؛ فقد كان عمل السينما مقصوراً على تصوير منظر لا يتعدى حيزاً محدوداً ، هو فى الغالب أرض

مسرح - فى الحقيقة أو فى الوهم - يتحرك فيه الممثلون ويؤدون أدوارهم فى مسرحية عاطفية أو هزلية ، وتكتفى آلة التصوير بتسجيل كل ما يقع أمامها .

وحين تم القضاء على قيد الحيز المحدود ولدت السينما باعتبارها وسيلة للتعبير لا لأظهار المرئيات فحسب . فلما حدث أن جال فى أذهان صانعى الأفلام تقطيعها إلى لقطات إذا بهم يعدلون عن تصوير القصة كما تتوالى حوادثها من البداية إلى النهاية ، إلى تصوير أشكال سريعة متتابعة لمنظر واحد ، فتقترب آلة التصوير أحيانا من الممثل فتملأ صورته الشاشة - إذا دعت الضرورة لذلك - ثم تبتعد عنه وهكذا . وأهم من ذلك كله أنهم استغنوا عن المسرح الثابت بتخصيص مجال محدود للممثل - وهذا المجال مرتبط بمساحة شاشة العرض - فيدخل الممثل هذا المجال ويخرج منه ، ويكون مخرج الفيلم حراً فى اختيار هذا المجال دون أن يفرض عليه فرضاً ؛ فوسيلة السينما فى تصوير المرئيات هى آلة التصوير المتحركة ، ووسيلتها فى التعبير هى تتابع اللقطات .

وتزعم إحدى الروايات التى لا يعلم صدقها إلا الله أن « جريفث » هام بجمال ممثلة وهى تؤدى دورها فى منظر من أحد أفلامه ، فلم يسعه إلا أن يصور من جديد - وعن قرب - المنظر الذى خلب لبه ، وأثبته فى الفيلم مكان الآخر ، وهكذا ولدت على يديه « اللقطة المكبّرة » . وهذه الرواية التى تثير الابتسام تبين كيف كانت تعمل موهبة أحد كبار المخرجين فى طفولة السينما ، وكيف أنه لم يكن يعنى بالتأثير فى الممثل (كأن يطلب منه تغيير طريقة تمثيله) عنايته بابتكار طريقة جديدة تزيد الصلة بين الممثل وجمهور النظّارة بتكبير وجهه على الشاشة . ومن هذه الرواية نفهم مسألة نحن نعلمها وننساها ، وهى أن أبسط آلة تصوير ثابتة كانت منذ زمن غير قصير قد ألفت التحايل على رسم الأشخاص ، فتصورهم تارة وهم وقوف ، إذ تصوّر منهم نصفهم الأعلى ، وتارة أخرى تقتصر على تصوير الوجه فحسب . وهذه الخطوة الجريئة فى تصوير النصف دون الكل ، كانت ذات أثر حاسم فى السينما ؛ لأنها كانت إذا أرادت اتباعها وجدت نفسها مقيدة بآلة تصوير ثابتة ، ومجال مرسوم للممثل ثابت هو أيضاً ، فلم يكن لها مفرٌّ من أن تصوّر المنظر كله على هذا النسق ، ولكنها خرجت من هذا المأزق حين ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم وتتابع اللقطات .

فلما استتب تقسيم الفيلم إلى لقطات متتابعة أو - بمعنى آخر - حين توافرت

للمصور السينمائى حرية العمل واستقلاله عن المنظر الذى يراد تصويره ، تيسر للسينما أن تصبح هى أيضاً من وسائل التعبير ، وهكذا ولدت السينما باعتبارها فنًّا من الفنون . ومنذ ذلك الحين أصبح فى إمكانها التعبير عن المعانى بالتصوير ، وفكّ تتابع الصور التى تختارها جمودها القديم .

٣

لم يكن مفرّ للسينما الناطقة أن تجد لهذه المشكلة علاجاً جديداً ، ليس هو - كما يقال - وصولها بالفيلم الصامت إلى درجة الكمال ؛ فباطلٌ الادعاء للسينما الناطقة بكمال السينما الصامتة ، بطلانَ الادعاء للمِصْعَد بكمال ناطحات السحاب . فان ناطحات السحاب لم تر النور إلا بفضل اختراع الأسمنت المسلّح والمصعد معاً . وكذلك السينما الحديثة ، ليست وليدة الفوز بإسماع النظارة حديث الممثلين فى السينما الصامتة ، بل هى وليدة القدرة على التعبير بالصورة والصوت معاً . فما أهون شأنها - مثلها فى ذلك مثل السينما الصامتة من قبل - إذا ما هما اقتصرا فى وظيفتهما - كآلة التصوير الثابتة - على تسجيل المرئيات . ولا تصبح السينما الناطقة فنًّا من الفنون إلا إذا أدرك مخرجو الأفلام أن الأصل الذى يجب أن ينتسب اليه الصوت فى أفلامهم هو الراديو لا اسطوانات الفونوغراف .

فإذا كان موضوع تمثيلية الراديو هو حكاية محاكمة چان دارك ، أو جلسة مجلس النواب الفرنسى التى شهدت سقوط روبسبير مثلا ، لزم أن يفهم المذيعون أنهم يمثلونها كأنما هى قصة جديدة موضوعة ، وأن نصها تتحكم فيه الشروط الواجب توافرها فى فن الاذاعة . فليس الغرض إذن اختيار ممثلين لتلاوة ما ورد فى محضر الجلسات ، بل الغرض استخلاص بعض المواقف من هذه المحاضر ، والتحايل على نظم أجزائها معاً فى وحدة متماسكة وإخراجها إخراجا فنيّاً ؛ فان المحضر الأصلى للجلسات لو تلى علينا كما هو لأملّنا طوله وانصرفنا عن سماعه ، كما يملنا كل حديث غابر إذا ما تلى علينا نصه الكامل .

ونحن أميل إلى الظن بأن بعض الحوادث تولد فإذا هى دون غيرها محط أنظار الناس واهتمامهم كرهاً لا اختياراً ؛ فان فى حياة روبسبير منذ الليلة التى سقط فيها ، لحظات فذة ، ينتفع بها كل فن على طريقته . والنظرة الأولى لهذه

المسألة تحملنا على الاعتقاد بأنه ما من شيء وما من حياة إنسان إلا وجدنا فيها جزءاً يصلح لأن يكون المادة الأولية التي ينتفع بها كل فن من الفنون في عمله ، وأجزاء لاتصلح ، فهي بالتالي تولد ميتة إلى الأبد . ونحب ألاّ يُخْلَطَ هنا بين تلك اللحظات التي لها وحيها ومعانيها والتي يمكن أن نسميها لحظات فنية ، وبين تلك الكلمات المأثورة التي يسجلها التاريخ لأصحابها ويتناقلها الناس . والحوادث إذا اختلطت وتشابكت وغابت معالمها الفردية في لجة صاخبة ، لا تخلو من لحظات فذة يتولى كل فن تحديد ما يهمه منها إذا ما أراد التعبير عن تلك اللجة الصاخبة . فما هي اللحظة الفذة في سقوط روبسبير ؟ هذا سؤال تختلف الفنون في الإجابة عليه . فقد تكون تلك اللحظة الحاسمة — في نظر الراديو — هي صوته ، وهو يخفت حين خرّ منهزماً . وقد تكون في نظر السينما . ما عساه يكون شعور أحد الحرّاس وهو واقف شارد الذهن ، منصرف في اللحظة الرهيبة ذاتها إلى طرد بعض النسوة البدينات عن حجرة الجلسة أو إلى البحث عن قدّاحته .

وقد شاهد القرن العشرين لأول مرة مولد فنون لاغنى لها عن آلة تعبر بها . وليست العبرة فيها أنها قادرة على أن تقدم للناس صوراً معينة تنقلها عن مصدرها ، بل إنها في الأصل لم تنشأ إلا لهذا الغرض ذاته وله وحده . وقد أصبح من المستطاع نقل بدائع الرسم واستنساخها ، وقد لا يشرف هذا القرن على نهايته حتى يصبح في الإمكان أيضاً نقل الصور الفنية واستنساخها دون أن تفقد جمالها . ولكن لا الرسم ولا اللوحات الفنية قُصِدَ فيها إمكان استنساخها ؛ فليس لها من غاية إلا أن توجد هي بذاتها ولذاتها . فاذا تضمنت المسرحية مثلاً منظرا ووجدته السينما يصلح لها لو قام ممثلوه الأصليون بتمثيله لها ، لكان في هذا وحده القضاء على قيمته الفنية ، بل هذا المنظر أقلّ قيمة من اللوحة المعدنية التي تبلَى نقوشها من استعمالها في طبع صور منها على الورق . فكأنما هذا المنظر خلق لأن تسجله السينما ، ولا غرض له سوى ذلك ، شأنه في هذا شأن مسرحية الراديو فإن الحوار يقصد فيه إلى تسجيله أولاً على أسطوانة ، ثم إذاعته بعد ذلك .

ولكن مقدرة الأصوات المسجلة على التعبير ، وهي ضعيفة ما اقتصرت على الفونوغراف والراديو ، تصبح لها قوة فائقة ، إذا ما ارتبطت بالصورة وعادلتها . وإذا اخترعت السينما المجسمة فلن تأتي بحدث جديد ، بل سيكون

فيها خطوة تخطوها السينما فى طريق تطورها إلى الكمال . ولا جرم أن مكان السينما الناطقة من السينما الصامتة ، كمكان اللوحة الفنية من الرسم التخطيطى .

ولم يدرك الناس فى مبدأ الأمر حق الإدراك أن الصوت هو أيضاً وسيلة للتعبير قائمة بذاتها ، وبدت السينما — حينما استعانت بالصوت — كأنما قد رجعت بفن السينما كله إلى عهده البدائى . فكما كان قدماء المخرجين لا يحاولون إلا تصوير المناظر المسرحية ، فكذلك السينما الناطقة سارعت وهى متلهفة إلى تصوير المسرحيات . فالحوار فيها مُقرّ ، وطولها مناسب ، ولكن كل هذا لم ينتج إلا أفلاماً هزيلة لا تسرّ ولا تُرضى .

٤

وفى البلاد التى لا يزال فيها المسرح متمتعاً بتأثيره وحيويته (كروسيا وألمانيا والولايات المتحدة) نجده لا ينفك فى العشرين سنة الماضية من استهواء السينما وجذبها إليه . ونجد كبار المخرجين السينمائيين يحاولون فى مبدأ الأمر تحوير المسرحيات بحيث لا تصبح سلسلة من حوار متصل ، بل المسرحية أشخاص يتبادلون أطراف الحديث ؛ فكانت موهبة المخرج ميرهولد ، ترمى إلى ابتداع عالم وجوّ يحيط بحوار أبطال المسرحية ، وقد استعانت السينما الناطقة بهذه الأحاديث فوجهتها إلى خير وجهة ، وأحاطتها بإطار زخرفى « الديكور » لا يعجز عن تصوير السماء والبحر وكل ما يجول بخاطر المخرج .

والمسرح يستمد حياته من قدرته على التعبير عن العواطف ، ولا يتوسل فى عمله إلا بالحديث والاشارة . فلما دهمه خطر السينما الناطقة إذا به ينقلب إزاءها إلى فن أشلّ كما كانت السينما الصامتة من قبله . فالممثل المسرحى ما هو إلا رأس صغير تائه فى ردهة فسيحة . ولعمرى إنها مزية لا تقوّم ؛ وإن هذه اللحظات التى لم يستطع المسرح إلا التعبير عنها بالصمت ، قد تلقفتها السينما الصامتة هى أيضاً من قبل واستخدمت وجه الإنسان وصوره المختلفة المتباينة فى التعبير عنها .

وتكبير الأحجام على شاشة العرض يتيح للممثل أن يقلع عن المبالغة فى الحركة والإشارة ، وعن هذه الإيماءات الرمزية التى لا مفرّ المسرح من التمسك بها إن

أراد أن يظل قريباً إلى أفهام النظارة . فإذا قارنت بين المسرحية والسينما الناطقة وجدت المسرحية لاالسينما أقرب شيء إلى التمثيل الصامت الذى يعتمد على الحركة والإشارة . ومكبر الصوت رغم وجوده ، أو إن شئت فقل بفضل وجوده ، هو الذى يجعل صوت الممثل إذا أسرع فى حديثه أو هبط إلى حدّ الهمس أقرب إلى إقناعك والتأثير فيك من صوت أبرع الممثلين فى المسارح الفسيحة .

فأهم مشكلة تواجه مؤلف فيلم ناطق هى أن يعرف متى يجب أن يتكلم أبطاله . أما المسرح فلا يعرف هذه المشكلة ، ولا تنس أنه يجب أن يتصل فيه الحديث دون انقطاع .

ويستمر الحوار فى المسرح إلى أن تأتى فترة الاستراحة . ولعمرى إن هذه الفترات من النعم التى يمتاز بها المسرح ؛ فإسدال الستار يوحى بأنها تخفى وراءها وقوع حوادث أخرى فى المسرحية . وينقل المؤلف المسرحى خبر هذه الحوادث إلى النظارة بالتلميح إليها . وكما نجد القصة المطبوعة حين تصل حوادثها إلى طريق مسدود ، تلجأ إلى ترك صفحة بيضاء لتفصل بين الفصل السابق واللاحق ، كذلك تلجأ المسرحية إلى فترة الاستراحة . أما السينما فمحرومة من أمثال هذا التحايل .

ولعل محترفى السينما يجيبون على ذلك بأن لهم وسائلهم أيضاً فى الانتفاع بهذا التحايل ؛ وذلك لأن يدهم مطلقة فى ترتيب المناظر ، والمنظر لا ينقطع فجأة بل «يذوب» أمام النظارة شيئاً فشيئاً . وهذا «الذوبان» وحده يوحى إلى النظارة بمرور الوقت بين المنظر السابق واللاحق . وهذا حق ، ولكن لا يتم به كل المعنى الذى نقصده ؛ فهذا «الذوبان» يوحى بمرور وقت لا تقع فيه حوادث . (ولا ينطبق هذا القول على فيلم الملاك الأزرق الذى يجب دراسته بعناية) .

وإذا كانت فترة الاستراحة فى المسرح توحى بمرور وقت تقع فيه حوادث ، فإن «ذوبان» المناظر — على العكس من ذلك — لايفلح كثيراً فى التلميح بمرور وقت تقع فيه حوادث ، إذا كانت هذه الحوادث تفيد تحولا طارئاً على حياة أبطال الفيلم .

ولكن من جهة أخرى نجد المسرح عاجزاً عن الارتداد إلى ما سلف من زمن . فهيهات للبطل أن ينتقل أمام النظارة من عهد الرجولة إلى عهد الصبا ، فى حين أن هذا الارتداد لايستعصى على السينما . وقد لاتكون هذه الحيلة آمنة من

التعثر أو قاصرة عن بلوغ غايتها ، ولـكنها على كل حال لا تستعصى على السينما .

والخلاصة أن المناظر المتتابعة فى السينما هى بمثابة الفصول فى القصة المكتوبة ، ولـكن السينما لا تعرف الفواصل العريضة التى تجدها بين فصول القصة المكتوبة أو المسرحية .

أما الفيلم الصامت فلم يَضِره انقسامه إلى فصول ، على حين أن السينما الناطقة لا يتأتى لها هذا الانقسام ولا تعرفه . ووجوب إحكام الصلة بين مناظر الفيلم الناطق هو من أهم العوائق التى تصادف عمل المكلفين بضم أجزاء الفيلم بعضها إلى بعض . فالفيلم الناطق يستنكف من الفراغ الخالى من الحوار ، ويضع اتصال الحديث فى المحل الأول من عنايته .

وإذا أصبحت الرواية أهم عناصر الفيلم الناطق ، فإن غريمه الأول ليس هو المسرح ، بل القصة المكتوبة .

٥

والرواية لاتستعصى على السينما ، وهذا هو سر قوتها ، شأنها فى ذلك شأن القصة المكتوبة . وكان الفيلم الصامت كثيراً مايستمد موضوعاته ، قبل اختراع السينما الناطقة ، من القصة المكتوبة .

وفى استطاعتنا أن نحلل الأسلوب الفنى الذى يتبعه كبار الكتاب فى إخراج قصصهم . فنهم من يهتم برواية الوقائع ، ومنهم من يعنى بتصوير الشخصيات وتحليلها أو التنقيب عن أسرار الحياة . وسواء عمد الكاتب إلى توليد المعانى والإسهاب فى التفاصيل ـ كبروست ـ أو إلى تركيزها وبلورتها ـ كهيمنجواى ـ فإن الرواية لاتنفك عملهم وهمهم الأول . والمعنى الفنى للرواية هو تلخيص الوقائع وإخراجها ، أو بمعنى آخر ، تجليتها للقارئ حتى يراها كأنها تحدث أمامه . وإذا ذكرتُ هذا الأسلوب الفنى الذى يتبعه الكاتب فى إخراج قصصه فإننى أعنى به طريقة اختياره ـ سواء جاء هذا الاختيار عفواً لأنه وليد طبع الكاتب ، أو جاء عمداً لأنه وليد التأمل والدراسة ـ أقول : طريقة اختياره لوقائع الحياة التى تثير اهتمامه دون غيرها ، ووسائل التعبير التى يستعملها ليضفى على هذه الوقائع ماينسبه إليها من أهمية خاصة .

وأدل بينة على الأسلوب الفنى عند أكثر الكتاب هى طريقة انتقالهم من الرواية إلى الحوار.

وحوار القصة له أغراض ثلاثة :

أولها هو العرض والشرح. وهذه هى طريقة الأدب الانجليزى فى نهاية القرن التاسع عشر، وزعماؤها هنرى جيمس وكونراد. وهى ترمى إلى القضاء على سخف الكتّاب الذين يدّعون لأنفسهم رأياً قاطعاً فى فهم أسرار الحياة كلها، ويفرضون رأيهم على القارئ، وقلما تلجأ السينما إلى حوار هذه المدرسة الانجليزية، كما تشيح عنها القصة الحديثة أيضاً.

وثانيها إبراز شخصية أبطال القصة وملامحهم. فنجد ستاندال فى تصويره لشخصية بطله چوليان سوريل يستعين فى الإبانة عنها بأفعاله أكثر من استعانته بمدلولات صوته وأنغامه. فلما حلّ القرن العشرون زادت مدلولات الصوت وأنغامه أهمية فى نظر القصة، وأصبح بيان نغمة الصوت من وسائل وصف الشخصية، بل إن وجود الشخصية ذاتها أصبح مرتبطاً بها. فلعل قصصه ونحن نستسيغ قراءتها - تصلح للإذاعه، حيث لا يرى السامع وجه الممثل، أكثر من صلاحيتها للمسرح.

وإذا كانت القصة تُعنى بأنغام الصوت فى حوار أبطالها فإن السينما والمسرح أقل منها عناية بها، ذلك لأن الممثل يجب أن يكفى وحده لإبراز الشخصية.

وأخيراً نجيء إلى الغرض الأساسى للحوار، أعنى به الحوار الذى تنهض بفضله مناظر القصة. وليس لتطور هذا الحوار أصول مرسومة، بل هو يتشكل طبقاً لما يريده منه كل فنان موهوب؛ فهو تارة درامتيكى، وتارة إشارات توحى بالمعانى، وتارة ألغاز مستترة، قد انبتّتْ صلتها فجأة بالعالم أجمع كشأن دستويفسكى، أو يكون مرتبطاً بالكون كله، كشأن تولستوى، ولكنه مهما اختلفت صوره - يرمى إلى أن يحس القارئ بالمنظر إحساساً عميقاً حتى كأنه يراه أمام عينيه فى عالم له أبعاد ثلاثة.

وقد انتبه الفيلم لهذا الحوار وأدرك خصائصه وشدة تأثيره، فاستمدت منه السينما اليوم بعض قوتها. فنحن نرى مخرجى الأفلام الحديثة ينتقلون - بعد أن يلتزم الفيلم فترة طويلة من الصمت - إلى الحوار، كما يفعل القصصى حينما ينتقل إلى الحوار بعد أن يفيض فى روايته بالوقائع والتحدث عن الأبطال.

وللقصصى وسيلة أخرى للتعبير ، وهى ربطه للحظات الحاسمة فى حياة أبطاله بالجو الذى يعيشون فيه أو ربطها بالكون كله . وهذه هى خَلَّة كونراد التى لا يحيد عنها فى قصصه . وقد انتفع بها تولستوى فى تصوير منظر من أروع مناظر الأدب القصصى فى العالم كله ، حين وصف إصابة الأمير أندريه بجرح فى موقعة استرليتز (فى قصة الحرب والسلم) . وقد استعانت بها السينما الروسية خير استعانة إبان ازدهارها . ولكن هذه الوسيلة تتضاءل وتختفى كلما زادت أرباح السينما . . .

على أن القصة المكتوبة لا تزال تحتفظ — فيما يبدو — بمزية تفوق بها الفيلم ، عنى مقدرتها على الانتقال إلى تحليل نفسية أبطالها . ولكن يبدو على القصة الحديثة — من ناحية أخرى — أنها تنصرف شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بتحليل نفسية أبطالها فى اللحظات الحاسمة عند الأزمات . وقد لا يقلّ عن التحليل النفسى فى قوته الفنية وإفصاحه عن الضمائر ، هذا التعبير الدراميتيكى عن لواعج النفوس ، الذى نجده عند شكسبير ، كما نجده ، بقدر كبير ، عند دستويفسكى ، حين يستعين فى تلميحه إلى الأسرار ، إما بأفعال أبطاله ، وإما باعترافات يفضون بها ، مترددة بين الإفصاح والكتمان (ومثل ذلك تصويره لسمرديا كوف وستاڤروچين) .

وأخيراً فإن روح كل حىّ تنطوى على سرّ خفىّ يستعصى سبر غوره وإدراكه ، وقد تستطيع السينما استدراجه على الشاشة بفضل تكبيرها لوجه الإنسان حتى تستبين كل خوالجه . ولكنه مع ذلك لو بقى هذا السرّ الخفى مجهولا ، فقد يساعد على أن تصبح القصة الفنية مناجاةً يتوجه بها العبد إلى ربه يسأله — فى حيرته — أن يكشف له عن سرّ الوجود . فهذه القصص تصوّر الفكر البشرى وهو غارق فى التأمل ، وهذا هو سر عظمة قصص تولستوى الكبرى .

وقد غزت السينما منذ طفولتها الساذجة إلى الأفلام الصامتة الأخيرة ، ميداناً فسيحاً وانتزعته لنفسها . فما الذى كسبته بعد ذلك ؟ حقًّا إنها ارتقت بالإضاءة وطريقة الرواية والصنعة ، ولكن ما الذى كسبته من الفنّ ؟ وأعنى بالفن هنا التعبير عن الروابط التى قد تكون خفيّة ولكنها بادية الأثر ولا مفرّ من الإيمان بها — هذه الروابط التى تربط بين الأحياء بعضهم وبعض ، أو بين الأحياء والأشياء ، لم تتهيب السينما الصامتة ، إبان ازدهارها ، من النزول

إلى هذا الميدان ، ولكن السينما الأمريكية فى العصر الحاضر — وتهتدى بهديها السينما فى البلاد الأخرى — تعنى قبل كل شىء — ولها العذر فقد أصبحت هى أيضاً صناعة كسائر الصناعات — بزيادة مقدرتها على توفير التسلية واللهو للنظارة . فهى ليست أدباً ، بل صحافة . ولكن عمل الصحافة التى قنعت به السينما الأمريكية يدفعها ، شاءت أو لم تشأ ، إلى ميدان لا يخلو من الفن أبداً ، أعنى به ميدان الخرافة والأوهام . وحياة السينما فى العهد الأخير تستند كلها على التحايل فى الانتفاع بهذه الخرافة والأوهام .

وأول مظهر لهذا التحايل هو فى العلاقة التى تقوم اليوم بين قصة الفيلم وبين نجوم السينما ، رجالا ونساء ، بل النساء هن أفضل فى الدلالة على أغراضنا من الرجال ؛ فكل حسناء أصبحت نجما سينمائيا لا يفرض فيها أن تكون ممثلة تؤدى دورها فى فيلم سينمائى ، بل لايلزم عليها إلا أقل قسط من المقدرة الدراماتيكية ، ويكفيها أن وجهها يصلح للتعبير عن إحدى الغرائز العامة بين البشر والرمز إليها وإبدائها . فلك أن تقول عن سارة برنارد إنها ممثلة ، ولكن لايصدق هذا القول على مارلين دتريش ، فما هى إلا من شخصيات الأساطير التى أحيطت بالخرافة والأوهام .

وقد استقر هذه الوضع حتى إن نجوم السينما — رجالا ونساء — يدركون إدراكا خفيا تلك الشخصية الأسطورية التى حلّت فى كل واحد منهم ؛ ويصرون على تمثيل قصص سينمائية تعين على بقاء هذه الأسطورة ودوامها . وأصبح الجمهور بفضل الصورة المكبرة ، يعرفهم معرفة لم يفز بها ممثلو المسرح من قبل . وأخذت المقدرة الفنية تسير فى اتجاهين متضادين ؛ فالممثلة الكبيرة هى التى تحسن أداء عدة أدوار لشخصيات متباينة ، أما النجم السينمائى فحسناء تنفخ الحياة فى عدة أفلام متشابهة متلاحقة .

وفى التمثيل الصامت فى المسرح الإيطالى القديم نجد الشخصية الواحدة يتكرر ظهورها فى عدة أدوار متباينة . أما رواد السينما الهائمون بها فيعلمون اليوم أنه ، رغم المحاولات التى تبذل لتحوير الشخصيات المألوفة لديهم ، وتصويرها بصورة جديدة ، فإن الممثل هو الذى يطغى بشخصيته المعهودة لديهم على الفيلم . فهم يرون جريتا جاربو ملكة ، وجريتا جاربو محظية ، وجريتا جاربو جاسوسة وهكذا ، ومثلها فى ذلك مثل سائر النجوم .

وشارلى شابلن أصدق دليل على قولى . فقد رأيت فى بلاد الفرس فيلماً لا أصل له ، اسمه حياة شارلو . والأفلام فى بلاد الفرس تعرض فى الهواء الطلق ، وأبصرت على الجدران التى تحيط بالنظارة قططاً سوداء جاثمة تصوّب أنظارها . وقد مكر أصحاب السينما وضموا أفلام شارلو القصيرة بعضها إلى بعض وقدموا لنا فيلماً طويلاً أثار الدهشة ، إذ رأينا أمامنا الشخصية الخرافية على حالتها الصافية الناصعة لا تشوبها شائبة .

وقد استحدثت السينما خرافات عدة كفيلم نبلونجن لرينيه كلير الذى أعجب به العالم كله ، وفيلم المليون ، لرينيه كلير أيضاً ، وهو يروى خرافة الفتاة الفقيرة سندريلا فى ثوب جديد أكثر نضوجاً ، وفيلم الملاك الأزرق ، وأنا هارب من السجن وغيرها . ولكن لا يزال أمامها مجال كبير لدراسة خرافات أخرى كتصوير العدالة الاجتماعية ، والفردية ، والغريزة الجنسية فإن السينما لم تنفد مواضيعها بعد .

إن السينما تخاطب الجماهير ، والجماهير تهيم بالخرافات والأساطير إن خيراً وإن شرًّا . وإذا أردنا نحن نسيان الخرافات فكفى بالحرب تذكيراً بها . فإن رواد المقاهى الذين يرسمون الخطط الحربية أقل عدداً من هؤلاء الذين يؤكدون بأنهم علموا من مصدر ثقة أن العدو ينكل بالأطفال جوعاً . وما كذب الصحافة الصفراء إلا نوع من انصياعها لاستهواء الخرافة .

والخرافة تبدأ بالكلام عن الجن والعفاريت ، وتنتهى بالتحدث عن القديسين . وإن الجماهير لتؤثر أن تصم أذانها عمن يحدثها عن الجانب الطيب فى حياتها ، ولكنها لا تعمى عنها فى أحوال كثيرة . وهذا سؤال يجول فى خاطرى : ترى كم كان مبلغ فهم الجماهير لمواعظ القديس سان برنارد ؟ وهل فهمت منها غير ما قاله ؟ ربما ، أو إن شئت فقل : حتما . ولكن كيف يكون لنا أن نبخس من قيمة ما فهمته فى اللحظة التى كان يتغلغل صوت هذا الواعظ المجهول إلى أعماق قلوبهم ؟

ولا تنس من جهة أخرى أن السينما صناعة كغيرها من الصناعات .

أندريه مالرو

نقلها عن الفرنسية يحى حقى

المملوك

المملوك لفظ لا يحتاج إلى إيضاح — فهو عبد يباع ويشترى — إلا أنه اصطلح على إطلاقه على فئة من العبيد كان الحكام يشترونهم لتكوين فرقة خاصة من جيوشهم . وأول من أقدم منهم على ذلك هو الخليفة العباسى محمد المعتصم بالله من سنة ٢١٨ إلى ٢٢٧ هـ (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، فقد أولع باقتناء المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم عند وفاته ثمانية آلاف ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، وبنى من أجلهم مدينة سُرَّ مَنْ رأى — أو سامرا — ثم أخذ الملوك منذ ذلك العهد ، فى معظم البلاد الإسلامية ، يعززون جيوشهم بالمماليك الأجانب ، بل يكونونها جملة منهم .

فاذا كان الملك الصالح أيوب لم يحدث بدعة فى التاريخ ، فإن جيش المماليك الذى كوّنه فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر وخصص له جزيرة الروضة هو أساس قيام حكم تلك الدولة التى انتزعت الحكم من أسرته ، والتى تتابع منها على تبوء عرش الديار المصرية سبعة وأربعون سلطانا ، كان اثنان وعشرون منهم أرقاء ، قبل أن يرقوا إلى السلطنة ، والخمسة والعشرون الآخرون من ذراريهم .

وأصل كثرة هؤلاء المماليك من بلاد القبجاق أو القفجاق ، شمالى البحر الأسود والقوقاز ، وهى بلاد كان أهلها فى ضيق من العيش ، وكانت قاعدة مملكتهم ، « فرصة عظيمة للتجار ورقيق الترك » . وقيل عن هؤلاء الأتراك إنه « ليس لهم تمسك بدين ولا رزانة فى عقل ، ومع ذلك فهم من خيار الترك أجناسا ، لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قاماتهم وحسن صدورهم وظرافة شمائلهم » .

ومن هؤلاء الأتراك أكثر الصالح أيوب شراء عبيده حتى أصبح منهم معظم الجيش المصرى . فلما انتهى الملك إليهم « مالت الجنسية إلى الجنسية ووقعت

الرغبة فى الاستكثار منهم ، حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، وحمد الاسلام مواقفهم فى حماية الدين حتى إنهم جاهدوا فى الله أهليهم » .

غير أنه لما قام السلطان الملك الظاهر برقوق وكان من جنس الجركس أكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند ، وقلّت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم فى أواخر هذا العصر إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

وتجارة الرقيق فى ذلك العهد كانت تجارة رائجة ، وكان اقتناء الرقيق أمراً سهلا ، وكانت مراكز هذه التجارة منتشرة فى جميع البقاع ، فلم تقتصر على بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغول والأروام والأكراد والفرس وغيرها من بقاع آسيا الصغرى والقرم والجزيرة ، بل تعدتها إلى بلاد الغرب ، حتى إن التجار الأوربيين كانوا ينافسون تجار البلاد الآسيوية أشد المنافسة ، فكان يباع بمصر رقيق أتى التجار به من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، ومن الصرب وصقلية وألبانيا وهنغاريا .

وكانت هذه الجموع تخفى بينها قوما جُبِلوا على الشر ، أو تشربوا بالمطامع والجشع ، أوأضمروا الحقد ، أوألفوا المغامرة ، أو تطلعوا إلى الوثوب . وكانوا على كل حال مرتعاً للفساد ، سواء فى ذلك أولئك الذين حكم عليهم بالبقاء أجناداً ، وأولئك الذين كتب لهم أن يرقوا من الرق إلى الإمارة أو إلى السلطنة .

وقد انتشرت الفوضى فى أيامهم ، بل إن النظام الذى وضع لهم كان مبعثاً لهذه الفوضى . إذ كان الأمير منهم يعمل جهده لزيادة عدد مماليكه ، حرصاً على نفسه ودفاعاً عن سلامته . وكثيراً ما كان الأمير يترك هؤلاء المماليك يسلبون الناس أقواتهم ، عوضاً عن الأجور التى كان يجب عليه دفعها لهم ، أو استغلالا لمركزه فى وظيفته ، ليستولى على الأموال أينما تيسرت له ، وكيفما اختار الوسائل الى ذلك ، إما طمعا منه فى الوصول الى وظيفة أعلى مركزا وأوسع ايرادا ، عن طريق الرشوة أو عن طريق الشراء ، وإما ادخارا ليوم تفرض عليه الضرائب الباهظة ، أو المغارم الفادحة . وكان مما يشجع هؤلاء المماليك على أعمال السلب والنهب والدس والقتل ، أنهم كانوا يعيشون عيشة عابرة مخيفة لا ثقة بغد فيها ولا أمان ، فلم يتركوا فرصة تمر دون استغلال طباعهم وإرضاء أطماعهم . وكثيراً ما قاسى سكان القاهرة الأهوال من اضطرابات المماليك

وأعمالهم الوحشية ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة ميداناً لمعاركهم وحروبهم عند ما كانوا يستضعفون سلطانها ، أو عند ما كانت تقع المنافسة بين عظيمين من أمرائها . وكل هذا أحاط عصر المماليك بسلسلة ممتدة من الفوضى ، وجعل القاهرة أشبه ببلد رزئ بالهزيمة ، وتدفق فيه الغزاة ، فاختلطت الجماهير فيه بالأجناد ، وأعملوا السلب والنهب فى الحوانيت والمتاجر والبيوت .

والغريب أن هؤلاء المماليك كانوا يستطيعون الجمع بين القسوة والوحشية ، والعطف الانسانى ، وبين الجبروت التعسفى ، والخضوع الربانى ؛ وذلك إما عن عقيدة راسخة ، أو عن سياسة كمينة ، كما كانوا يتصفون على السواء بالجد والفكاهة ، وبالنظام والثورة ، وبالخوف من الحكام والشجاعة الفائقة أمام العدو .

كانت أطماع هؤلاء المماليك لا تقف عند حد . والمدهش أنهم حققوا هذه الأطماع جميعاً وجعلوا من مصر عاصمة إمبراطورية شاسعة الأطراف ، وزعيمة البلاد الاسلامية ومقر خلافة المسلمين . وقد حق لسلاطينهم إلى حد كبير أن يحملوا تلك الألقاب الخلابة التى كانوا يتخذونها فى مكاتباتهم ، ومن بينها « السلطان الأعظم ، وسلطان الاسلام والمسلمين ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، فاتح الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، سيد الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين »

أما كيف أن المملوك كان يثب إلى السلطنة ، فقصته فى تسلسل درجات رجال الجيش ونظمها .

كان للأمراء كما كان للسلاطين مماليك . أما مماليك الأمير فكانوا عرضة لأن يختار السلطان أحدهم أو بعضاً منهم فيشتريه . وأما مماليك السلطان فكانوا ملكا خاصًّا به ، يتوارثهم خلفه ، أو خلفاؤه من السلاطين ، وكتب على الواحد منهم أن يظل فى عبودية الرق مدى الحياة ، ما لم يعتقه السلطان ، ويدخله فى إحدى طائفتى المماليك السلطانية ، أو المماليك البحرية ، ويقطعه اقطاعا من الأراضى يتصرف فيها تصرف المتنظر عليها ويستغلها لنفسه .

وكان الجيش المصرى مكوناً من ثلاث طبقات أو طوائف : طائفة أجناد الحلقة ، وهم كثرة الجيش وعامته ، وكان لكل أربعين نفساً مقدم منهم ،

ليس له عليهم حكم ، إلا إذا خرج العسكر ، فهم أشبه باحتياطى الجيش أو بالجيش المرابط . والطائفة الثانية طائفة البحرية ، وكانوا أشبه بحرس السلطان وأولى الحظوة عنده . ثم طائفة المماليك السلطانية ، وهم أعظم الجند شأناً ، وأشدهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا . ولهؤلاء أمراؤهم أو ضباطهم ، يختارون منهم ، أو يؤمّرون عليهم ، أمراء المئين ، وأمراء الطبلخاناه ، وأمراء العشرات ، وأمراء الخمسات .

أما أمراء المئين ، فكانت عدة كل منهم فى الغالب مائة فارس على الأقل ، وكان للأمير منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة كانت أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم كان أكابر أرباب الوظائف والنواب ، وكانوا فى الغالب أربعة وعشرين أميراً مقدّما .

وأما أمراء الطبلخاناه (والطبلخاناه ، ومعناه بيت الطبل ، يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات) فكانت عدة كل منهم فى الغالب أربعين فارساً على الأقل ، ومنهم كانت المرتبة الثانية من أرباب الوظائف ، والكشاف بالأعمال ، وأكابر الولاة .

وأما أمراء العشرات ، فكانت عدة كل منهم عشرة فوارس على الأقل ومن هذه الطبقة كان صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

وأما أمراء الخمسات فكان عددهم قليلا ، وكانوا فى الغالب أولاد المتوفين من الأمراء ، رعاية لسلفهم ، وكانوا فى الحقيقة كأكابر الأجناد .

وهكذا كان الجيش المصرى مقسما الى فرق من ألف فارس ، عليها مقدّم أو أمير ألف ، وكل فرقة مقسمة الى طوابير من أربعين فارساً ، أو عشرين ، أو عشرة . ولم تكن زيادة عدة الامراء سبباً لارتفاع مرتبتهم ، فكثير منهم كانت عدة فوارسه أكثر من المصطلح عليها ، ولا يعد إلا فى أمراء طبقته ، إلا إذا رفعته الحظوة أو الإقدام أو الظروف ، الى إمارة أعلى من إمارته . وكان الباب مفتوحاً للارتقاء ، لا إلى إمارات الجيش فحسب ، بل كذلك إلى وظائف الدولة إذ كانت الحكومة حربية ، ووظائفها تسند الى أرباب السيوف .

وأجلّ وظائف السلطنة ما كان يعبر عنها بالنيابة ، وعن صاحبها بالنائب الكافل ، أو بكافل الممالك الإسلامية . وكان يرجع اليه فى جميع أمور المملكة ، ويحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعين أرباب الوظائف ، ما جل منها

وما صغر ، وكان يكاتب نواب الممالك ، فيما كانوا يكاتبون فيه السلطان ، فكان النائب الكافل هو السلطان الثانى للمملكة ، بل إنه كثيراً ما كان السلطان الفعلى لها . وقد مر أكثر سلاطين المماليك — ممن لم يرثوا الحكم عن آبائهم — بهذه الوظيفة أو بوظيفة الأتابك ، أو أتابك العساكر ، التى كانت تلى وظيفة النائب مباشرة فى الرفعة وعلو المقام ، وكان صاحبها أكبر الأمراء المقدمين من بعده ، وكان له قبل إنشاء وظيفة النيابة ، ما للنائب الكافل من الشان فى تدبير أمور المملكة .

وكان الأمراء المقدّمون يقلّدون وظائف الدولة الهامة ، التى كان من بينها رأس النوبة ، والامير أخور والدوادارية ، والحجوبية ، والامير جاندار ، والاستادارية ، والجاشنكيرية ، والخازندارية ، وغيرها من وظائف الشرطة وولاة الأقاليم ، ووظائف الممالك التابعة لمصر وولاياتها ، فى دمشق وصفد وحلب وحماة وطرابلس والكرك .

ولكل من هذه الوظائف اختصاصات محدودة ، ومزايا عديدة ، وإقطاعات واسعة ، كما أنه جرت العادة أن يكون لكل منها نواب من أمراء الطبلخاناه ، وأتباع كثيرون من أمراء العشرات ، وجند لا حصر لعددهم .

وكان للسلطان دواوين عدة ، تموج بطبقات من الموظفين ، ممن كانوا يسمونهم حملة الأقلام ، وتتبعهم طبقات عدة أخرى من الخدم أو الجند أو الحاشية . وأهم هذه الدواوين تسعة، وأجلها وأرفعها رتبة ديوان الوزارة، وكان ناظرها يلى السلطان مرتبة ، حتى أحدثت النيابة والأتابكية ، فتأخرت مرتبتها ، واقتصر اختصاص الوزير على النظر فى أموال الدولة ، وصار يتبعها كبراء من الموظفين ، منهم ناظر الدولة أو الصاحب الشريف ، وكان مشاركا للوزير فى هذا الاختصاص المالى . ومستوفى الصحبة ، وله ديوان تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية فيه . ومستوفى الدولة ، الذى كان يتولى مراجعة أبواب مصروفات الدولة وإيراداتها .

أما الدواوين الأخرى فكانت تختص بكتابة السر ، ونظارة الخاصة السلطانية ، ونظارة الجيش ، ونظارة الخزانة ، ونظارة البيوت والحاشية ، ونظارة بيت المال ، ونظارة الإصطبلات ، ونظارة دور الضيافة والأسواق .

ولا شك أن أهمية هذه الوظائف كانت تتغير بتغير السلاطين ، ومنها ما لم

تكن حددت اختصاصاته ، ولكنها استقرت على هذا النظام تقريباً ، بتولى المماليك الشراكسة سلطنة مصر .

وترتسم من درجات هذه الوظائف صورة واضحة لما كانت تستند عليه حكومة المماليك ، وتبين كيف أن النظم الحربية جعلت لأمراء الجند سلطة تامة على جميع مرافق الدولة ، ومهدت لصغارهم سبل الترقى فى درجات الوظائف ، وهيأت لبعضهم فرصة الوثوب الى السلطنة .

وقد جرت العادة أيضاً أن يكون لكل أمير من كبار الأمراء ، أمراء المئين او امراء الطبلخانات ، بيوت خدمة ، مثل بيوت خدمة السلطان ، من طشت خاناه ، وفراش خاناه ، وشراب خاناه ، وركاب خاناه ، وزرد خاناه ، ومطبخ وطبلخاناه . وبينما كانت البيوت السلطانية تسمى بالبيوت الشريفة ، كانت بيوت الأمراء توصف بالكريمة .

ولكل بيت من هذه البيوت مهتار ، أى كبير ورئيس مسئول عنه ، وتحت يده رجال وغلمان ، ولكل منهم وظيفة تخصه . وللأمير فوق هذا موظفون من حاشيته العساكر تشبه وظائفهم وظائف السلطان نفسه ، وتتخذ ألقابها مثل رأس نوبة ، ودوادار وأمير مجلس وجمدار وأمير أخور وغيرها .

وكذلك كان لكل أمير ، مثل ما كان للسلطان ، حواصل من إصطبلات وخيول ومناخات الجمال ، وشون الغلال . وكان الأمير منهم اذا خرج يخرج فى موكب حافل ، تتقدمه أكابر عساكره من أرباب الوظائف عنده ، وتسير من خلفه مماليكه وغلمانه . واذا جلس نُصِبَ خلف ظهره ستار أو بشتميخ من الجوخ الأحمر المزهر بالألوان والمطرّز عليه رنك ذلك الأمير وألقابه .

والرنك ستار الأمير وعنوان المجد ، تنوعت أشكاله ، وجرت العادة أن يكون دائرة تحصر فى داخلها رسم صقر أو أسد أو سيف أو دواة أو فرنسيسة ، وهى زهرة اللوتس شعار ملك فرنسا ، وكان الأغلب رسم الكأس أو الدواة . وقد تكون منقسمة إلى قسمين أو ثلاثة ، بكل منها رسم خاص . وهذه الرنوك مختلفة الألوان ، يجعل الأمير ما يختاره منها ، دهاناً على أبواب بيوته واملاكه أو طرازاً على أقمشة خيوله وجماله ، أو نقشاً على سيوفه وأقواسه ، أو طبعاً على أوانيه من زجاج وفخار .

وحياة الأمراء المماليك كلها مظاهر خلابة . كان من عاداتهم فى القاهرة ،

أنهم يركبون فى مناسبات مختلفة فى مواكب طنانة ، مع النائب الكافل او مع حاجب الحجاب ، أو فى حاشية السلطان ، وكانوا يلبسون الملابس الثمينة الظريفة ، ويتحلون بالعدد والسيوف الفائقة الثمينة ، فالملابس مطرزة مزركشة ، والمناطق مطلية بالذهب أو الفضة مرصعة ، ولا يركبون إلا الخيل المسومة ، أما البغال فلا يركبونها بحال ، بل يركبها غلمانهم خلفهم .

وإذا استعرضنا الألقاب التى كانوا يتخذونها ، أو التى كانت تطلق عليهم فى المكاتبات الرسمية ، زدنا اقتناعا بما كان يربط المملوك بالسلطان ، من صفات مشتركة وصلات ممتدة .

فقد كان النائب الكافل تطلق عليه ألقاب رنانة منها : الجناب الكريم ، والعالىّ الأميرى ، عز الاسلام والمسلمين ، وسيف الأمراء فى العالمين .

وكان رسم المكاتبة للأمراء مقدَّمى الألوف ، لا يختلف عن رسم المكاتبة للنائب الكافل ، إلا فى استبدال الجناب العالى أو المجلس العالى بالجناب الكريم وحسام أمير المؤمنين ، بسيف أمير المؤمنين .

وكان لكل طبقة من الأمراء ألقابها الخاصة ، فاذا وصلنا الى الجندى المملوكى نفسه رأيناه يلقب فى المكاتبات الرسمية بالأمير الأجل .

كان للجندى المملوكى إذن مرتبة جليلة ، تميزه عن سكان البلاد وأهلها ، بل تميزه عن طبقات عدة من موظفى دواوين السلطان ، من طبقات أرباب الأقلام . وبينما كان لهؤلاء كما كان لأرباب الوظائف الدينيــة مرتبات شهرية محدودة تصرف اليهم كان للمملوك ، منذ اليوم الذى يعتق فيه ، إقطاع من بلاد المملكة وأواصيها ، يستغله كيف شاء ، ويسخر فيه من عامة الشعب وفلاحيه من أراد ، ويتصرف فى ذلك تصرف المالك والسلطان .

وتختلف قيمة الإقطاع باختلاف مرتبة المملوك ، فكان للأمراء المقدمين إقطاعات ، يخص كل واحد منهم ما قد تبلغ قيمته مائتا ألف دينار أو تزيد . وكانت تبلغ قيمة إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألف دينار ، أو أكثر . وكان يقطع كل من أمراء العشرات أراضى تصل قيمتها الى تسعة آلاف دينار . أما مقدمو الحلقة فكان يبلغ إقطاع الواحد منهم ألفا وخمسائة دينار وأخيراً كان الجندى المملوكى نفسه يفوز يوم إعتاقه ودخوله فى زمرة المماليك السلطانية ، باقطاع قيمته مائتــان وخمسون ديناراً ، أى ما كان يعــادل راتب

الوزير فى الشهر الواحد ، وذلك بخلاف ماكان يحق له من الرواتب الجارية ، من لحم وتوابل ، وخبز وعَلَف ، وزيت وكسوة وشمع ، وبخلاف ما كان يُمْنَحُه فى مناسبات زواجه أو مواليده ، وبخلاف ما كان ينتظره من حظوظ الانتقال الى مرتبة العشرة ، أو الطبلخاناه ، والفوز بما كان يخصها من الاقطاعات .

سردنا من أحوال المماليك ، وألقاب أمرائهم ودرجات وظائفهم ، وقيم إقطاعاتهم بعض ما يدلنا على أن المملوك كان فى الحقيقة سلطاناً مصغراً أو مختصراً ، أو أنه كان له فى حدود إقطاعه ووظيفته ، تلك السلطة المطلقة التى كانت للسلطان فى حدود مملكته ، كما كان له بعض ما كان للسلطان نفسه من ألقاب ومزايا وبيوت . غير أنه فى كل هذا ، ومهما بلغت مرتبة وظيفته من العلو ، كان رهن إشارة السلطان ، ومملوكا من مماليكه ، وعرضة لأن يفقد جميع ما كان حظى به فى إمارته ؛ فقد كان السلطان يستطيع اذا شاء أن يسترد منه إقطاعه ، أو يقصيه عنه ، ليتصرف فيه . وكان السلطان يستطيع فوق هذا أن يفتك به ، ويقضى على أسرته وخاصته وأتباعه . ولم يكن السلطان نفسه أسعد حالا من مملوكه ؛ فقد كانت الغلبة فى السلطنة لأشد الأمراء قوة وأكثرهم حيلة ، فكان السلطان فى هذا شبيها بمملوكه ، يعوزه الاطمئنان الى غده ، والثقة بالاحتفاظ بسلطنته .

وكان الاقطاع يتبعه الارتقاء الى الإمارة ، وكانت أهميته بنسبة درجة الأمير . ولكل منشور أو أمر باقطاع صورة يكتب بها ، كانت تختلف حالها ، باختلاف مراتب أصحابها . وكانت صيغة المنشور الذى يُمْنَحُه الجندى المملوكى والذى كان ينتظم به هذا الجندى فى سلك الأمراء ، تنص على أن هذه المنحة كانت الخطوة الأولى للترقى « فى درج السعادة » وللبلوغ بالمملوك الى « رتبة السيادة » فهى تعبر أصدق تعبير عما كان يخالج نفوس هؤلاء المماليك من الطموح الى أعلى المراتب ، وترسم الخطة التى أحكمها المماليك ، للتدرج من الرق والعبودية ، الى الحكم والسلطنة .

أحمد فكرى

زورق فى حجب الظلام

الشاطئان تناجيا والفرقدين
والموج يعبث جاريا بالضفتين
العاشقان تلاقيا فى زورقين
فتجافيا وتنائيا عن كل عين

فى مكمن بين الغصون
جمعا وإن أبت السنون
لم يرهبا حتى المنون
وتشاكيا رجم الظنون

وتراجعا بعد الوطر فى زورق
والنهر يضحك والقمر فى المشرق
وإليهما مال الشجر بتشوق
غفت المدينة والقدر فلنلتق

فسرى التهامس فى الزهور
وجرى التناجى فى الطيور
قد فاز فى الدنيا الجسور
ومشى على هام الدهور

يامىّ هاتى قبلةً من وجنتيك
ولتمنحينى جذبة من معصميك
ألقى حنينى دمعة فى عارضيك
شعت فظنت نجمة هبطت عليك

وصعت فيها العسجدا
لتزين خدًّا وردا
يغشى العيون إذا بدا
فتظنه متوقدا

فتمنت الأيام ليلا دائما
والنوم يرعى كل عين — سائما
فيظل طول الدهر حيًّا نائما
والساع لاتلقاه طيًّا هادما

إذ ذاك يصفو عيشها
تزهو على رغم المها
وتضمّه ويضمّها
صب يبيت مولها

(بغداد) ضياء الدهلى

من هُنا وهُنالك

عمر فاخوري

كل شيء فيه كان يشف عن الرقة : نحيف ، ممشوق ، مقتضب الحركة ، ناعم الطرف ، خافت بصوته، ومن وراء « نظارته » كان اللحظ يثب إلى الدقائق من كل فن . كان شحذ حسه وبرى فهمه، وكان وسع أفقه وكبر قلبه وهو يتلقى لطائف العرفان فى باريس ، فى السربون خاصة : لطف مكتسب وافق رقة مستقرة ، فخرج من امتزاجهما ذوق رهيف وإدراك صحيح .

عرفته فى بيروت ، ولكنى لم أجلس إليه سوى مرات فى كل رحلة . كان فى شغل شاغل وهم لازم . كان الفنان الحيران القلق . يقرأ ويكتب أحسن ما تكون القراءة والكتابة . لمست فيه الفضيلة العظمى : الاخلاص للفن ، والمقدرة الكبرى : التعبير الفائر .

إسمعه يقول فى « الفصول الأربعة » : « الأديب فى بلادنا صورة رجل من ورق وحبر ، لا نكاد نجد فرقاً إلا فى لون الحبر ونوع الورق » ، ثم : « يجب على الفنان أن يتصل بهذا الوجود فلا يعتمد على الحفظ والقراءة» ، ثم : « لا يهم الأديب إلا أن يخرج آية فن باقية على الزمان» ، ثم : « إن الشعر لا يحتمل أوساط الأمور ، فاما أن يكون بالغا مرتبة الكمال ، وإما ألا يكون البتة » .

بذكاء متلهب وعقيدة صادقة يثور عمر فاخورى على الجمود والدعوى وعلى التلفيق والارتجال . إنه لمثل الدراية والأمانة يضرب لأهل الغرور والزور .

ثم إن داعياً فى نفس عمر دعاه إلى شؤون السياسة ، لا السياسة الصاخبة ولا المغرضة ، ولكنها السياسة التى يغذيها الايمان بحقوق الانسان . هل تسمع إلى قوله فى كتابه « لا هوادة » : « الشباب البصير الواعى وعياً قومياً صحيحاً مادياً ، إذا أمكن القول ، لا يؤخذ بالترهات والأباطيل . . . هو ليس من المشتغلين بالسياسة مهنة أو تكسبا ، ولا تظرفا أو تزيداً ، بل ببساطة طواعية ، و «حياتياً » إذا صح التعبير . » . على هذا النهج نشط الفاخورى وعمل للشعب ووقف قلمه للديمقراطية ، للسواد الأعظم من بنى وطنه .

وعى سليم فى الأدب وكذلك فى الوطنية ، مع قلم متمكن متصرف ، يجريه فكر فطن مستحصف .

رحمك الله ، يا أخى فى الفن الأسمى ! لقد كنت من أنفذ الكتاب بصراً وألمعهم بصيرة فى لبنان ، وفى غير لبنان .

بشر فارس

معرض الفكر الحديث الأول ببغداد

أقامت مجلة « الفكر الحديث » فى بغداد معرضاً واسعاً للرسم والنحت والعمارة اشترك فيه جمع من الفنانين العراقيين والأجانب من بولونيين وإنكليز . . .

وقد كان من أبرز العارضين فيه ، الأستاذ جميل حمودى صاحب مجلة « الفكر الحديث » ورئيس تحريرها ومنظم هذا المعرض الفخم ، برسومه وتماثيله التى نحا فيها نحو الانطباعية الحديثة post impressionism والسريالزم surrealism وقد كان فى بعض تماثيله الخشبية مثل « رأس فتاة » و « نحت » من الصفات الجديدة المبتكرة ما يجعله فى صف واحد مع الفنانين العالميين الحديثين ، فانه حقق فيهما أفكاره وآراءه الخاصة فى الفورم والصياغة الفنية المطبوعة بطابعه العميق . كما بلغ بتمثال أبى العلاء المعرى مرتبة رفيعة فى القدرة على الاخلاص للفكرة وإجادة العمل الفنى فى نفس الوقت ، مما يدل على سعة مقدرته واطلاعه . . . ولا ريب فى أن الأستاذ جميل حمودى من أعمق الفنانين العراقيين تفكيراً واطلاعا على الموجات الفنية والفكرية فى العالم .

كذلك الأستاذة نزيهة سليم كانت فى هذا المعرض من الخارجين إلى أجواء ملونة أكثر انطلاقاً ، حتى لكأننى وأنا أتساوق مع صورتها « فى غرفة الصف » التى تمثل التلميذات إبان الدراسة ، أكتشف شيئاً جديداً من الاحاسيس وأسبح فى بحر خضم من الروح الطفولى الحبيب .

والمسيو ماتوشاك (وهو رسام بولونى) قد أثار فى نفسى العجب ورسم على وجهى الاستفسار ، فقد كانت فى رسومه فلسفة يصعب أن يدرك كنهها إلا بالدرس والتعمق . وقد أظهر فى جميع رسومه تأثره العميق بالجو والحياة فى العراق . . .

وأما المستر كينث وود (وهو رسام إنكليزى) فقد أخرج فى هذا المعرض كثيراً من الصور التى تمثل انطباعاته عن العراق الذى عاش فيه حوالى ثلاث سنوات ، إلا أنه لم يستطع التحرر من إنكليزيته (من حيث الألوان) ولا من تأثره السطحى بأقاصيص ألف ليلة وليلة . . . فان العراقى حين يقف أمام صوره يعجب ويأخذه الذهول . . . ومع كل هذا ففى صور هذا الفنان انسجام وترابط يستحق عليهما التقدير . . .

وجواد سليم (وهو عراقى) لم يعرض إلا تمثالا خشبياً واحداً ، على حين عرض ما يقرب من أربعين صورة وتخطيطاً . . . وفى كلها يريد أن يخبرنا عن جهاده المتواصل من أجل خلق الشخصية العراقية بفنه دون الانهيار فى تأثير بيكاسو وماتيس ولوتريك ، إلا أنه ما يزال فى طريقه ، كما أعتقد ، غارقاً فى ذلك التأثير . . .

وقد عرض بعض الانكليز والبولونيين والعراقيين الآخرين صوراً تختلف روحا وطريقة ، إلا أن أكثرها يميل إلى التجديد والابداع والانطلاق من القيود الأكاديمية (ما عدا الانكليز فهم ما يزالون ينقلون الطبيعة كما تنقلها الكاميرا) .

هذا وقد افتتح المعرض معالى وزير المعارف العراقية السيد نجيب الراوى الذى يدأب على تشجيع الفن والفنانين . . . وزاره عدد كبير من الشخصيات البارزة فى بغداد ممن يهتم بالفن ، ومن الجاليات الاجنبية .

كما كان إقبال الجمهور على زيارة المعرض عظيما جداً ، مما دل على كثرة اهتمام الشعب العراقى بالفن ، وقد كتبت الصحف العراقية كلها تلهج بابداء تهنئتها للاستاذ جميل حمودى لنجاح معرضه الأول هذا .

وأخيراً أحب أن أسائل : لماذا لا يتفضل إخواننا الفنانون المصريون فيقيموا معرضاً لانتاجهم فى بغداد . . . إن هذا العهد الجديد الذى نريده فصلا فى تاريخنا الحديث ليشجعنا على أن نتقارب نحن العرب ونزيد التفاهم بيننا .
فليكن ذلك عن طريق الفن أيضاً !

[بغداد]

صاحب الصباغ

الشاشة البيضـــاء فى مصر

بل هى السوداء إن لم يكن شر من الســواد ، فما استطاع الذين شاءوا تجنيب مصر ويلات الحرب وعملوا له ، أن يجنبوها ذلك البلاء المطبق فى سوق الأرزاق وسوء الأخلاق .

وبينما كان الناس هناك فى روع القتال وهوله ، كان عبيد المال من أشباه الناس يمسكون القوت ، ويرسلون العذاب على الناس ألواناً من العوز وفحش الغلاء ، حتى اكتسوا من عرى الكريم وشبعوا من جوعه . ثم طاف بهؤلاء وهؤلاء طائف من أصحاب الوجوه المستعارة جاءوا برسالة الفن ، وعز عليهم ألا يكون للسينما فى مصر مكانة كما لها فى أخوات مصر من ممالك النور ، وعز عليهم كذلك أن تسير قنوات من الذهب والفضـــة بين الآكل والمأكول فلا يذهبون منها بنصيب .

وبعد ، فبأى خير جاء القـائمون بالأمر فى صنـاعة السينما المصرية ؟ وماذا قدموا لهذا الشعب المسكين ، الصادى إلى المعرفة ، المتطلع إلى النور ؟ أتراهم بينوا للناس صوراً واضحة من الخير فى شتى مذاهبه ، يتأسى بها روادهم الكثيرون من صغار وكبار فى جميع الطبقات ؟ أم تراهم عمدوا إلى عقـد المجتمع ومشكلاته فتناولوها بأساليب مختلفـة : من التهويل والتهوين ، ووضـعوا لها حلولا حازمة ، صريحة ، حاسمة ، تقيم الأود وتثبت الايمان بالفضيلة وتذهب بأوهام الشك من العقـــول الضئيلة والنفوس الخاوية ؟ إنهم ولا شك قد رغبوا فى هذا كله أوفى شئ من هذا كله وحاولوه ، وما ينكر أحد أنهم ينفقون كثيراً من الجهد والمال فيما يفعلون ، وأن فيهم كثيراً من أصحاب الرغبة الصـادقة فى أداء هذه الرسالة على وجهها . ولكن أحداً لا يستطيع أن يقول بحق إنهم كانوا موفقـين فى كثير مما اختاروا وقدموا للناس ، أو أن فى رواية السينما المصرية شيئاً يستحق أن يخرج له من البيت ، أو يدخل إليه من الطريق ، وفيها من صور المآسى والمهازل ما يقطر دماً ، وماء حياة .

وفى السينما المصرية حب وغناء . والحب جميل إلا أن يكون حب المس والتشهى ، وصناعة الأجساد ؛ فهو جميـل فى الغيرية والايثار فتضفيه على أخيك وصاحبك وجارك والناس جميعاً ، وجميل فى الأثرة والأنانية فتضفيه على نفسك بكسب المحامد فى بذل النعمة وإسداء المعروف . والغناء جميل فى حلاوة الصوت ، وعـذوبة اللحن ، ولطف الأداء ، وشرف المعنى ، لا أن يكون غنـاء تمجه الأذن ، وتستحى منه العذارى ، ويعافه اللسان العفيف .

وفى السينما المصرية نقص وبها حاجة إلى الأناة فى الانتاج . ولست هنا فى مقام نقـد

رواية بعينها ، أو التعرض لشخص بذاته ، وإنما هى رغبة صادقة فى الاصلاح ، ونداء من قريب ، إلى هؤلاء الذين يتصدون لهذا الأمر فى مصر ، أن يحسنوا الاختيار ، ويترفعوا عن الاسفاف ، وأن يقتصدوا فيما يأخذون عن الغرب ، إلا ما سبقوا إليه من عدة أو صناعة ، فهم يرون أن حضارة الغرب لم تجعل منهم أمة صالحة فاضلة ، وهم يعلمون أن حظ الشرق من الدين والفكر والأدب عظيم ، وأن كل ما فى الغرب أو كثيراً منه هو بعض هذا التراث ، مطموراً فى الجليد أو تراب الفحم ، محروماً من ضوء الشمس ووضح النهار .

عبد اللطيف ابراهيم

« جناية »

سيدى عميد الأدب العربى

تحية واحتراماً . وبعد ، ما كدت أنتهى من تلاوة الشطر الثانى من قصة « جناية » للأستاذ حبيب الزحلاوى فى العدد السابع من مجلة « الكاتب المصرى » ، حتى تذكرت قراءة هذه القصة فى مجلة « الرسالة » . فرجعت من ساعتى لمجلدات « الرسالة » أبحث فى فهارسها ، ولكن دون جدوى ؛ إذ لم أجد لها أثراً فى الفهارس . وقد غلبنى حب الاطلاع ودفعنى الاستفسار ألا أكتفى بالفهارس فقط ، بل صرت أقلب صفحات مجلدات « الرسالة » واحدة بعد الأخرى ، مراعياً نظام التسلسل فيها . نعم بقيت أقلب الصفحات أكثر من ساعة متحملا الجهد والعناء ، حتى وجدتها منشورة فى عدد (٦٠٤) من المجلدة الثالثة عشرة ، تحت عنوان « الجارم البرىء » فعجبت لهذا التغيير فى العنوان ؛ إذ كيف أجاز الأستاذ الزحلاوى لنفسه أن ينشر قصة واحدة بعنوانين فى مجلتين لهما مكانتهما فى الأوساط الأدبية . فلذا جئتكم برسالتى هذه مستفسراً عن هذا النمط من الأدب . هل الأستاذ الزحلاوى بعث بقصته لكم كما بعث بها لمجلة « الرسالة » ؟ أم أنكم نقلتموها من « الرسالة » بعد أن غيرتم عنوانها ؟ وهل يجوز هذا ؟ أما أنا — مع قلة معرفتى بالأدب — فانى أستنكر هذه الطريقة من « الكاتب المصرى » التى انفردت دون سواها بالأبحاث الجديدة . نعم أستنكرها من المجلة لأنها الوحيدة التى نقلت آداب الغرب إلى اللغة العربية قبل أن تقرأ بلغتها الأصلية . فكيف أجازت لنفسها نقل قصة أكل الدهر عليها وشرب ؟

هذا وتفضلوا بقبول فائق احترامى يا سيدى العميد ؟

[عراق نعمانية] على ابراهيم الظاهرى

يؤكد سكرتير تحرير المجلة أنه لا يزال محتفظا بأصل القصة التى كتبها الأستاذ حبيب زحلاوى ، وأنه كان له فيما مضى من الثقة بأدب الأستاذ ما جعله يعمل على نشر هذه القصة . والأستاذ حبيب زحلاوى يحترف مهنة التجارة وهو على علم بأصولها ، فما رأيه فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

شهريات

شهرية العلم

اختفاء البكتريا

كنت فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ ألعب بمكروب مرض عادى وهو ستفيلوكوك ، وهو الميكروب الذى يسبب الأخرجة والدمامل وأمراضاً أخرى ، ولم أكن مشغولا فى بحث عميق ، فقد قال بعضهم إنه يمكنه بطريقة ما أن يغير مظهر مستعمرات هذا الميكروب فأردت أن أعرف أهذا حقيق . وتستنبت تلك الميكروبات فى أطباق زجاجية مسطحة على مادة زرع تشبه الجلاتين (الهلام) ، وتغطى الأطباق بغطاء لكى يدرأ عنها التلوث بميكروبات الهواء . وفى أثناء بحوثى اضطررت أن أنزع الغطاء لكى أفحص نموها تحت الميكرسكوب ثم غطيت الطبق ثانية وأزحته جانباً لفحصه بعدئذ . فكان نزع الغطاء هذا السبب فى حدوث متاعب بسبب التلوث من الهواء . وفى الواقع حدثت المتاعب إلاأن البنيسلين نتج من أحدها .

وهذا هو ما حدث : كان لدى طبق منبت مغطى بمستعمرات من الستفيلوكوك ، وفى أحد الفحوص وقعت بذور *spores* من البنيسليم *penicillium notatum* من الهــواء فى الطبق وهذه وجدت وسطاً مناسباً فنمت . ولما رأيت المزرعة عقب ذلك بحوالى خمسة أو ستة أيام كان بها مستعمرة من العفن . ولم يكن هذا غريباً ؛ فقد تصادف كل بكتريولوجى مثل تلك المتاعب ، فكان يرمى المزرعة مصحوبة بالنعوت اللائقة بها . إلا أن تلك المزرعة بالذات أظهرت شيئا آخر ؛ إذ أن جميع مستعمرات الستفيلوكوك حول العفن ، وكانت قد نمت جيدا قبل ذلك ، قــد اختفت . وبدا كأن شيئاً قد أذابها .

ولقد أثارت هذه الظاهرة اهتمامى أكثر من المشكلة التى كنت مشغولا بهــا ، وكنت رأيت قبــلا ميكروبات تذوب ، وقد كنت شرحت منــذ بضع سنوات أن أشياء بسيطة مثل دموع الانسان أو بياض البيض قد تذيب كميات كبيرة من الجراثيم فى بضع ثوان حتى إن ماكان من قبل شيئاً معتما معلقاً مثل الحليب صار شفافاً ، غير أن الميكروبات التى تذيبها الدموع أو بياض البيض لم تــكن من النوع الذى يسبب الأمراض . ولكن هنا مع العفن وجد ميكروب يسبب المرض فى طريق الذوبان ، وليس هذا أمراً يجوز تجاهله

ثم لمست سطح مزرعة العفن بسلك بلاتين معقم ، واخذت بضعة بذور ونقلتها إلى أنبوبة مزرعة جديدة ، وهكذا توافر لى عفن ينمو نقياً وأمكننى أن أعبث به وقت الفراغ كما أريد .

وأول ما فعلت هو أنى نقلت بضعة بذور من مزرعتى الجديدة (العفن) إلى طبق مزرعة جديدة وتركتهــا تنمو مدة خمسة أيام ، ثم مددت من مستعمرة العفن إلى حافاته تشكيلة من الميكروبات المختلفة ثم أودعت الطبق فى جهاز التفريخ ولمــا نظــرته فى اليوم التالى كانت النتيجة تدعو لــكثير من الاهــتمام ،

فبضعة ميكروبات لم تكن تنمو فى أية جهة بجوار العفن وميكروبات أخرى نمت لغاية العفن .

والآن بدأنا معرفة شيء عن العفن ، وكان من الواضح أنه فى نموه أنتج شيئاً انتشر فى مزرعته .

فكان لهذا الشيء تأثير فى بعض الميكروبات دون بعضها الآخر . وهكذا أخذت أهمية المسألة تزداد أكثر فأكثر .

والشيء التالى الذى فعلته هو أنى زرعت العفن على مزرعة سائلة بدلا من الهلام الجامد فزرعت بضعة بذور على سطح السائل وفى بضعة أيام صار سطح السائل مغطى بنمو سميك متعرج من العفن يشبه اللباد ، واتخذ السائل الذى تحته لوناً أصفر فاقعاً . ثم أخذت بعض السائل الأصفر واختبرت خواصه بنفس الطريقة التى اتبعتها قبلا ، وذلك بأن نزعت قطعة من الهلام من طبق مزرعة وملأت الحفرة التى نشأت بالهلام المحتوى على سائل من مزرعة العفن ، ثم طعمت طبق المزرعة بميكروبات مختلفة مدها من الحفرة المذكورة إلى حافة الطبق وكانت النتيجة مماثلة تماماً لما حدث فى المشاهدة السابقة ، فبعض الميكروبات لم تكن لتنمو بجوار الحفرة والأخرى نمت حتى وصلتها . وهذا يرينا أن المادة المطهرة أياً كانت التى كونها العفن لم تكن ضمن نفس مادة العفن بل وجدت فى السائل الذى نمت فيه .

وبالمصادفة أن الطريقة المذكورة هى المتبعة الآن عادة لمعرفة الجرثومة المسببة للعدوى فى مريض ما أهى حساسة للبنيسلين . فاذا كانت الجرثومة لا تنمو لغاية البنيسلين فهى حساسة لتأثيره ويصبح الأمل عظيما فى أن يكون العلاج بالبنيسلين ناجحاً . أما إذا كانت الجرثومة تنمو لغاية البنيسلين فان الأمل يكون قليلا فى العلاج بالبنيسلين .

ومما تقدم نكون قد حصلنا على مادة تمنع نمو بعض الجراثيم التى تنقل لنا العدوى عادة . ثم اختبرت منتخباً صغيراً من أنواع العفن الأخرى ولكنها لم يكن لها أى مفعول كهذا .

ثم اختبرت درجة قوته بعمل تخفيفات لأرى إلى أى حد يمكن أن يخفف قبل أن يفقد مفعوله فى منع نمو جرثومة حساسة . وقد اختلفت أنواع النمو ، إلا أن أحسن ما وصلت إليه أمكن تخفيفه ١٠٠٠ ضعف قبل أن يفقد قوته المنعية . ويمكن أن نقارن هذا بحامض الكربوليك وهو مطهر قديم نموذجى . فاذا خففنا حامض الكربوليك أكثر من ٣٠٠ ضعف فانه لن يمنع نمو الجراثيم . إذن فان العفن أنتج مطهراً كانت قوته ثلاثة أضعاف قوة حامض الكربوليك على كثير من الجراثيم .

وإلى هنا سئمت الكلام « عن سائل العفن » . لذا سميت الناتج « بنيسلين » لأن العفن الكامل التطور أو النمو يشبه قلما أو فرشاة مما يسمى بنيسلين .

ثم حقنت بضعة حيوانات بقليل من البنيسلين فوجدت أنه على ما يبدو لم يكن له أى خواص سامة ، وهذا يختلف عن كافة المواد المطهرة المعروفة . وهذه نقطة فى غاية الأهمية .

لأنى قبل ذلك بحين كنت تقدمت بطريقة أثبت فيها أن المواد الكيماوية المطهرة المعتادة كانت أكثر تسمما لخلايا الدم منها للبكتريا .

ودم الانسان مهم فيما يختص بالبكتريا ، فهو يحتوى على خلايا الدم البيضاء leucocytes وهى مبيدة قوية للجراثيم ، وهى تتكون فى نخاع العظم وتسير فى الدورة وعندما تنفذ الجراثيم إلى الجسم وتبدأ فى النمو تخرج خلايا الدم البيضاء من الأوعية الدموية إلى النقطة التى بها العدوى وتبذل جهدها فى أن تهزم الجراثيم بأن تأكلها وتهضمها .

فاذا كانت الجراثيم قليلة والخلايا لا تأكل منها الكثير أمكنها أن تهضمها جيدا ، إلا أن الخلايا نهمة — مثل الكثيرين منا — ، وهى على

استعداد لأن تأكل كمية أكثر جدا مما يمكنها هضمه ، وفى هذه الحالة تستمر بعض الجراثيم فى النمو فى الخلايا ، وعندئذ تباد الخلية لا الجرثومة . فاذا تغلبت الجرثومة على الهجوم الأولى للخلايا فحينئذ ينتج خراج أو دمل أو طلوع أو أردأ من ذلك ، لأنك إذا أخذت قيحاً من خراج ما ، وجدته عبارة عن تجمع من خلايا الدم البيضاء فى سوائل تحتوى على جراثيم .

إذا أخذت دما وفرخته فى أحوال مناسبة مع الستافيلوكوك (جرثومة الدمل أو الخراج) فان ٥ ٪ أو أقل من الجراثيم تبقى حية ، فاذا أضيف إلى هذا الدم المغذى بالجراثيم حامض كربوليك بنسبة ١ــ٦٠٠ فان جميع الميكروبات تظل حية ، وذلك لأن محلول حامض الكربوليك بنسبة ١ــ٦٠٠ سيميت خلايا الدم دون أن يعوق نمو الجراثيم . ووجدت نفس الشىء فى جميع المطهرات المستعملة ، وأول مادة جربتها وأثرت فى الجراثيم أكثر من خلايا الدم كانت البنيسلين ، وقد كان فى هذا خاصة ما أقنعنى أنه سيحتل المكان اللائق به فى علاج المرض الجراثيمى .

وفى ذلك الوقت كان لدينا بنيسلين خام ، بيد أنه يجدر بنا أن نوضح لكم مقارنة بين مفعول البنيسلين النقى فى خلايا الدم والجراثيم ومفعول المطهرات الأخرى المعروفة فيما يأتى :

التخفيف يؤثر فى

	كريات الدم البيضاء	الستربتوكوك جرثومة سبحية	النسبة
حامض الكربوليك	١ــ١٢٠٠	١ــ٣٠٠	١ــ٤
T. C. P.	١ــ٨	١ــ٢	١ــ٤
أكروفلافين	١ــ٥٠٠٫٠٠٠	١ــ١٠٠٫٠٠٠	١ــ٥
سلفانيلاميد	١ــ٢٠٠	١ــ٢٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠
بنيسلين	١ــ١٠٠	١ــ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠	٨٠٠٫٠٠٠

وإنى أوجه التفات القراء إلى الرقم ١ــ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فانه بالطبع يمثل البنيسلين النقى (لا النوع الخام الذى كنا نتداوله منذ ١٥ سنة مضت) . ولكن هل تدركون ما هو المعنى الحقيقى لجزء من ثمانين مليوناً ؟ ولما كنت أسكتلنديا فسأقرب المسألة لأذهانكم فأقول : هذا يمثل نقطة من الماء فى ٦٠٠٠ زجاجة ويسكى ، ولو انه من الصعب فى يومنا هذا أن نتصور ٦٠٠٠ زجاجة ويسكى .

وهذا الجدول يبين أحد الفوارق بين المطهرات القديمة والمطهرات الحديثة ، فان المطهرات القديمة التى تتلف خلايا الدم بسهولة أكثر من إتلافها للجراثيم لم تكن ذات تأثير فى علاج العدوى داخل الجسم مع أنها قد تكون قوية جداً خارجه .

وثمة ملاحظة أخرى أبديناها فى تلك الأيام ولكنها لم تنشر إلا فى الوقت الحاضر وهى عبارة عن مقارنة أخرى بين البنيسلين وبعض المطهرات القديمة ، فقد ثقبنا أقراصاً من طبق به مزرعة هلامية ، وفى الثقوب الناتجة وضعنا أقراصاً من ورق النشاف منقوعة فى مطهرات مختلفة ، ثم ملأنا الثقوب بهلام جديد ، ولما تجمد الهلام زرعنا جراثيم على كل سطح الطبق .

ولكيما يؤثر المطهر فى الجرثومة يجب أن ينتشر مجتازاً حوالى $\frac{1}{8}$ بوصة من الهلام ، فكان البنيسلين هو الوحيد الذى فعل ذلك ،

بل المحلول الخفيف منه أوقف نمو الجرثومة فى مساحة قطرها بوصة ، وأجرى كل هذا فى سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، وقد نتساءل لماذا لم تستمر تلك البحوث إذا كانت فائدتها بهذا المقدار ؟ ولكن الذى غلبنا فعلا هو عدم ثبات البنيسلين ، بحيث إذا أنمينا مزرعة منه لمدة عشرة أيام فانها تكون فعالة جدا . أما إذا تركت لمدة خمسة أو ستة أيام أخرى فربما اختفت فاعليتها تماما . ثم إنى بكتريولوجى فقط ولست كيميائيا ، ولم تنجح مجهوداتى ومجهودات زملائى البكتريولوجيين فى مستشفى سانت مارى فى تركيز أو تثبيت المادة الفعالة ، وقد كان ينقصنا كيميائيون ماهرون لمساعدتنا .

وعقب ذلك بحوالى سنة تناول مشكلة استخراج البنيسلين كيميائى ماهر جداً وهو الأستاذ ريسترك بلندرة ، فانه أنمى العفن فى سائل بسيط يحتوى على أملاح قليلة وقليل من السكر ، وقد أمكنه أن يبرهن على أن العنصر الفعال يمكن إذابته فى حامض الأثير . وكل التجارب عن البنيسلين كانت بكتريولوجية ، إلا أن معاونته البكتريولوجية لم تحقق أمله فترك المسألة واشتغل ببحوث أخرى .

وكنا فى مستشفى سانت مارى ينقصنا الكيميائى ، وكان ريسترك ينقصه البكتريولوجى وهكذا ظلت المسألة ساكنة ثمانى سنوات ، إلا أننا داومنا عمل المزارع طيلة ذلك الوقت فى مستشفى سانت مارى . وإنى أحتفظ فعلا بالمزرعة الأصلية التى لاحظنا فيها تأثير البنيسلين وما زالت عندى فى معمل ذلك المستشفى ، وفى خلال ذلك كنا نستخدم البنيسلين الخام فى معمل سانت مارى ، وهذا لغرض سهولة عزل جراثيم معينة من الجسم . وكان المعتاد أن عزل باسيل السعال الديكى هو من الصعوبة بمكان ، إذ أنه يكون فى الجسم غالباً مصحوبا بجراثيم أخرى . وباسيل السعال الديكى غير حساس للبنيسلين فى حين أن كل مسببات التلوث التى تصاحبه حساسة تقريباً له ، ولذلك فاننا إذا وضعنا قليـلا من البنيسلين على المزرعة فان الجراثيم الملوثة لاتنمو ، على حين يستمر باسيل السعال الديكى فى النمو .

وقـد قرر فلور وشين فى سنة ١٩٣٨ فى أكسفورد أن يقوما بأبحاث فى المطهرات التى تنشأ فى الطبيعـة . وكانت أبحاثهما مبنية على lysozque وهى المـادة المذيبة للبكتريا فى الدموع وبياض البيض التى وصفتها فى سنة ١٩٢٢ ، وبعد دراسة المراجع وصلا إلى أنه قد يكون من المفيد أن يحاولا تركيز البنيسلين ، وقد استخدما مزرعتى ومزرعة ريسترك وطريقة استخراج مثل ما اتبعه ريسترك تقريباً من قبل ، إلا أن كل الفرق كان فى طريقة الاستخراج ، فنجحـا فى تركيز العنصر الفعال وتجفيفه فى شكل مسحوق أصفر ، وقد جربا مفعوله على البكتريا فأيدا نتائجى القديمة ، وحقنا به الحيوانات واثبتا أنه حتى المـادة المركزة منه كانت بلا ضرر وكانت أيضاً لا تضر الدم .

ثم إنهم أعدوا الجرذان ببضع جراثيم معينة كالسـتربتوكوك والسـتفيلوكوك vitrion septique التى تسبب دائماً موت الحيوانات ، وقد عالجوا بعضهـا ببضعة ملليجرامات من مسحوق البنيسلين والبعض الآخر لم يعالجوه ، فالتى لم تعالج ماتت كلها فى مدة سبع عشرة ساعة وعاشت كل الحيوانات التى عولجت ، فبرهن هذا على قوة البنيسلين الباهرة .

ثم جرب فى الانسان ، وإن لم تكن النتائج الاولى ذات حظ كبير من التوفيق ، فانها أظهرت بوضوح أن البنيسلين كان عاملا قويا ضد بعض أنواع العدوى العادية المعروفة .

وقد وسعوا مدى صناعته فى أكسفورد ولـكن فى ذاك الوقت (سنة ١٩٤٠) كان صانعو الأدوية بانجلترا مشـغولين جداً

بالمجهودات الحربية لدرجة لا تسمح لهم بالوقت الذى يحاولون فيه الانتاج على نطاق واسع، فطار فلورى إلى أمريكا ، وبفضل مساعدة الدكتور ريتشاردز اتصل بالدكتور كوجهل من بيوريا وبضعة مصانع أمريكية للأدوية فزودهم بجميع المعلومات التى توصل إليها ، وبقى بأمريكا أحد معاونيه الدكتور هيتلى ليساعدهم فى بداية تحضير البنيسلين .

وهنا كان أول ما ظهرت الولايات المتحدة فى منظر البنيسلين ، إلا أنهم شرعوا فى العمل فتطورت طرق الصناعة إلى أن صار الانتاج الآن موازياً تقريباً للطلب . وقد توصلوا أيضاً إلى تحسين المزارع التى ينمو فيها العفن حتى زاد الانتاج حوالى عشرة أضعاف . وحدث بالمصادفة أن جميع البنيسلين الموضوع فى ذلك الوقت حضر من نسل بذور العفن التى لوثت طبق مزرعتى فى مستشفى سانت مارى فى سنة ١٩٢٨ .

فأولا صنع كل البنيسلين بانماء العفن على سطح المزرعة فى زجاجات — ألوف منها — ولكن عقب ذلك ابتكرت طريقة بانمائه فى قاع مزارع فى أحواض . وأظن أن أكبر أحواض استخدمت لهذا الغرض كانت سعتها ١٥٠٠٠ جالون ، وهذا مما ساعد الانتاج كثيراً جداً وأمكن به معالجة كل مصابى الحرب على شاطئ المحيط الاطلانطيق فأنقذ حياة رجال كثيرين لولاه كانوا من الهالكين .

سير الكسندر فلمنج

نقلها عن الانجليزية دكتور عيسى حمدى المازنى بك

شهرية السياسة الدولية

شهر حافل

حفل الشهر الذى ينقضى ساعة كتابة هذه الشهرية فى العشرين من مايو بالحوادث الدولية، وقد عقدت خلاله الدورة الثالثة من دورات مجلس الأمن الدولى بمدينة نيويورك ، واجتمع مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة فى مدينة باريس، وأذيع تقرير لجنة التحقيق الانجليزية الامريكية عن فلسطين ، وجرت المفاوضات بين رئيس الوزارة الايرانية وزعيم الوطنيين فى أذربيجان.

فى مجلس الأمن

وكان جدول اعمال مجلس الامن متضمناً الموقف الايرانى السوفيتى ، ومسألة الحكم فى اسبانيا ، وكذلك النظر فى طلبات الانضمام إلى هيئة « الأمم المتحدة » ، واللائحة الداخلية .

وكان الموقف الايرانى السوفيتى معلقاً ، وكان تعليقه راجعاً إلى أن الاتحاد السوفيتى كان قد اعلن ان جلاء الجيش الأحمر عن الاراضى الايرانية سيتم فى السادس من شهر مايو من ناحية ، وإلى أن مندوب الاتحاد السوفيتى كان قد أعلن أنه لن يحضر جلسات يعرض فيها المجلس لذلك الموقف ما دام قد رفض رأيه فى عدم الاحتفاظ بالموضوع فى جدول الأعمال . وكان المجلس قد قرر الاحتفاظ به إلى أن تخطره الحكومة الايرانية بتمام الجلاء . فلما انقضى اليوم السادس قرر المجلس أن يعرض للموقف فانسحب الرفيق جروميكو المندوب السوفيتى من الاجتماع تنفيذاً لسابق إخطاره ، وقرر المجلس فى غيبته أن يؤجل عرضه إلى اليوم العشرين عسى أن تصل إليه خلال الاسبوعين ما يؤكد له الجلاء . واليوم ينتهى الاسبوعان ولم يلح فى الأفق شىء مادى جديد اللهم إلا ذلك الخطاب الذى ألقاه سفير إيران فى الولايات المتحدة ، وقد ذكر فيه أنه لم يتلق من حكومته أى نبأ يدل على تمام الجلاء . وإذن فالحال فى مجلس الأمن الدولى بالنسبة للموقف الايرانى السوفيتى لم يتبدل : يستمسك الاتحاد السوفيتى بأنه ليس للمجلس اختصاص النظر ؛ إذ لا خلاف بعد أن أعلن رئيس الحكومة الايرانية أن الأمور بين إيران وروسيا قد سويت ، ويستمسك المجلس بالاحتفاظ بالموقف ضمن جدول أعماله إلى أن تصل إليه أنباء رسمية من الحكومتين الايرانية والسوفيتية بتمام الجلاء . وأغلب الظن أن الدورة الرابعة ستشهد مثل ما شهدته الثالثة : كل متشبث بنظريته ، وكل راض بعواقبه .

اما الموقف الأسبانى وهو الذى نشأ عما تقدمت به بولاندا من اقتراح إعلان « النظام الفرنكى » — الذى تحكم به أسبانيا الآن — مهدداً للسلم والأمن الدولى ، بحيث ينبغى أن تتخذ قبله الاجراءات المنصوص عليها فى ميثاق الامم المتحدة من قطع العلاقات وتوقيع العقوبات الاقتصادية ، ثم الالتجاء إلى وسائل العنف

إذا اقتضتها الحال . وقد تغلب مجلس الأمن فى دورته المنقضية على صعوبة هذا الموقف الأسبانى بأن أحاله إلى لجنة دراسة وتحقيق قدمت إليها الأسانيد والمذكرات التى أخذت تكشف عن اتصالات وثيقة طوال الحرب العالمية الثانية بين فرانكو وهتلر وبين الادارة الأسبانية والسياسة الألمانية . لكن نتيجة تلك الدراسة وذلك التحقيق لم تبلغ بعد إلى هيئة المجلس ، وسيكون أمرها محل نظره بلا ريب خلال الدورة الرابعة التى بدأت منذ يومين .

وكان جدول الأعمال متضمنا كذلك مسألة قبول أعضاء جدد فى هيئة الأمم المتحدة ، وكانت ألبانيا بالذات محل طلب من طلبات القبول . ودخول ألبانيا تحبذه روسيا ، وتتأنى فيه — إن لم تعارضه معارضة — بريتانيا العظمى ؛ إذ لا ترضى عنه اليونان « الحالية » وثيقة الصلة بها . وقد أثارت أستراليا اعتراضاً شكلياً إذ رأت أن طلبات الانضمام يجب أن تعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل أن تعرض على مجلس الأمن . لكن مجلس الأمن قرر باجماع العشرة الأعضاء — غير أستراليا — أن الأمر من اختصاصه ، ولكنه أحال طلب ألبانيا بالذات إلى لجنة فرعية للدرس وتقديم التقرير . . .

وكانت اللائحة الداخلية هى آخر ما عرض له المجلس فنظرها وأقرها فى وقت قصير ، وقد كان فى حاجة قصوى إليها . إذ عمل طوال الدورات الثلاث الأولى دونها فكان حمل الرؤساء ثقيلا إذ كان عليهم أن يبتكروا الحلول من تلقاء أنفسهم ،

وقد تميزت تلك الدورة الثالثة بأن ألقى رئيسها — وكان هو مندوب مصر الدائم حافظ عفيفى باشا — خطابا ختامياً على غير العادة المتبعة . والعادة المتبعة هى أن يشكر أحد الأعضاء الرئيس الذى تنتهى دورته ، فيرد الرئيس بكلمات قليلة عامة ويسلم الرئيس الجديد زمام المجلس . وقد تقدم المندوب البريتانى يشكر الرئيس لمناسبة انتهاء دورة رئاسته ، لكن عفيفى باشا بدل أن يقتصر على مجرد الشكر وعموم التعبير ألقى خطابا سجل فيه الشعور بخيبة الأمل ؛ إذ تتطاحن الدول الكبيرة بعضها مع بعضها الآخر ، وإذ لا تزال تتنافس فى سبيل السيطرة دون عناية بمبدأ المساواة مع الدول الصغيرة ، وإن كان قد رجا آخر الأمر ألا ييأس الناس يأساً ، فالمجلس لا يزال مبتدئاً ، والمبادئ التى قامت الحرب العالمية الثانية من أجل تحقيقها قد تعود من جديد إلى الايمان ...

مؤتمر وزراء الخارجية

وعقد مؤتمر وزراء الخارجية للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا فى قصر لوكسمبور بباريس فى الخامس والعشرين من شهر أبريل وتتابعت اجتماعاته ثلاثة أسابيع سويا .

وكانت « المعاهدة الايطالية » هى أول المسائل الواردة فى جدول أعماله ، وكانت مشاكل المستعمرات والتعويضات وتريستا والحدود الايطالية والحدود النمسوية ، هى أهم ما يتصل بشؤون تلك المعاهدة .

فلما جاء دور المستعمرات ، وبدا الحديث لمناسبتها بطرابلس الغرب — برقة وطرابلس وفزان — تقدمت روسيا باقتراح منحها الوصاية على طرابلس مقابل منح انجلترا وأميركا الوصاية على برقة ، ومع استعدادها لأن يكون إيطالى وكيلا لحاكم طرابلس

السوفيتى . فتقدمت بريتانيا العظمى باقتراح إعلان استقلال « طرابلس الغرب » دولة موحدة تضم طرابلس وبرقة . ولم يكن فى الواقع هذا الاقتراح البريتانى إلا اقتراحا « مسرحياً » إذ لم تمض على إذاعته ساعات حتى عاد مستر بيفن وزير الخارجية البريتانية يستمسك بالوصاية على برقة ، ثم يقول إن انجلترا وعدت السنوسيين بعدم عودة الايتاليين إلى بلادهم بحال ، ثم راح يجمع بين برقة وطرابلس فى السنوسية والوعد بعدم الاعادة إلى إيتاليا . ولم يصل المؤتمر فى هذا الصدد إلى حل وأرجع الموضوع إلى مجلس وكلاء وزراء الخارجية يدرسونه من جديد ويتقدمون فى شأنه بمقترحات جديدة .

وكذلك كان الحال بالنسبة لتريستا التى تستمسك روسيا بضمها إلى يوجوسلافيا ، وتستمسك أميريكا بضمها إلى إيتاليا . ويلوح فى الأفق اتجاه جعلها ميناء حراً لايتاليا ويوجوسلافيا وأوربا الوسطى جميعاً .

أما التعويضات فقد أبدت روسيا تساهلا بالنسبة لما كانت تطالب به نصيباً لها واكتفت بثلاثمائة مليون من الدولارات ستدفع إليها من قيمة ما تصدره الولايات المتحدة لايتاليا من الاعانات ، حتى لا تثقل كاهلها فتحول دون نهضتها الاقتصادية التى تريدها لها أميريكا وبريتانيا العظمى .

وكانت مسألة الحدود بين إيتاليا وفرنسا هى التى أصاب حلها التوفيق دون عناء ، فأدخلت بعض المناطق الايتالية ذات الصبغة الفرنسية الواضحة من حيث اللغة ومن حيث الميول الشعبية فى الأراضى الفرنسية ، وكذلك بعض المناطق التى تصحح مواقع فرنسا الاستراتيجية .

وظلت مسائل الرور والادارة الألمانية ومعاهدات النمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا دون عرض وبالتالى دون حل إلى أن يعود المؤتمر إلى الانعقاد فى الخامس عشر من شهر يونيه . لكن النمسا وإيتاليا قد دعيتا لايفاد مندوبين عنهما للتقدم بوجهات نظرهما فيما يختص بالحدود بينهما إلى وكلاء وزراء الخارجية الذين يعملون هذه الأسابيع .

على أن أمراً جليا بالنسبة لايتاليا قد تم وهو تعديل شروط الهدنة القاسية إلى ما هو أقل قسوة وأكثر فسحاً لميادين النشاط والعمل خلال فترة الانتقال من الوضع غير العادى الذى نشأ عن الاستسلام إلى الوضع العادى الذى يتلو توقيع المعاهدة فى مؤتمر الصلح الذى لم يحدد بعد موعده .

تقرير فلسطين

اما تقرير لجنة التحقيق الاميريكية البريتانية عن فلسطين فلم يرض أحداً رغم صدوره باجماع الآراء . وهو لم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية ، وهو لم يدع مجالا لأمل عند العرب من ناحية ثانية ، إذ اوصى بفتح باب الهجرة وبرفع القيود عن نظام بيع الاراضى ، وهما الوسيلتان اللتان يألم منهما العرب ويعتبرونهما أداة استيلاء الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم .

وقد كان لاذاعة ذلك التقرير اسوأ الأثر فى البلاد العربية جميعاً ، فقامت حكوماتها وهيئاتها تحتج وتضرب إعلاناً عن استنكارها ورفضها ، وتوج ذلك كله باجتماع لرؤساء الدول العربية يتلوه انعقاد دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة هذه الدول .

أذربيجان

وتبقى مسألة أذربيجان ، وقد بلغت من التطور أن دارت لمناسبتها مباحثات بين رئيس الوزارة الايرانيـة وزعيم الحركة الأذربيجانية ورئيس حكومتها الفعلية قصد الوصول إلى حل يوفق بين الأوضـاع الدستورية الايرانية والمطالب القومية لأهل تلك المنطقة ، وهى — على حد ما عبر عنه الزعيم الأذربيجانى نفسه — غير انفصالية ؛ إذ تعترف بالبقـاء فى نطاق الدولة الايرانية الكبرى على أن تحظى بالاستقلال الذاتى متميزة بلغتها فى مدارسها وفى جيشها وفى إدارتها .

وأغلب الظن أن الأمور متجهة إلى التغلب على الصعوبات والتفاهم ، رغم ما يقيمـه «الرجعيون» فى نظر رئيس الوزارة الايرانية من عقبات ، وهم يذهبون فى إقامة هذه العقبات إلى حد الاستعانة بسفارات بعض الدول الأجنبية فى طهران ، فى حين أن قوام السلطنة يريد أن يعادل بين موقف إيران من انجلترا وأميريكا والاتحاد السوفيتى دون أن يكون لدولة أجنبية أى تدخل فى شؤون بلاده .

محمود عزمى

أول بختى تأليف سليمان نجيب بك

وسليمان نجيب بك فى غنى عن تقديمه للجمهور المصرى الذى عرفه منذ زمن بعيد ممثلا ومؤلفاً . وها هو ذا الآن يقدم لنا على مسرح دار الأوبرا الملكية مسرحية باللغة العامية من تأليفه أسماها « أول بختى » . ولا أرى مسوغاً لالتجاء المؤلف إلى اللغة العامية فى هذه المسرحية ؛ فانها لم تساعده مطلقاً على إتقان الحوار اللهم إلا فى الفصل الثانى ، ولم تساعده على صبغ هذا الحوار بالفكاهة الحلوة أو النكات المستحبة . وقد ذهب المؤلف أحياناً إلى استعمال ألفاظ كنا نود ألا نسمعها على مسرح دار الأوبرا الملكية ومن الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى .

و«أول بختى» مسرحية فى ثلاثة فصول ، تزجى إلينا قصة رجل طلق امرأته بعد أن أنجب منها ولدين — أحدهما متزوج — ليتزوج هو أيضاً من امرأة لعوب لم يرق له العيش معها ، فأراد الطلاق منها ، ولكنها خلقت له مصاعب عدة لم تنقذه منها إلا زوجته الأولى . ولست أرى فى القصة شيئاً من الطرافة ، إذ أننا رأينا هذا الموضوع أو ما يشابهه فى كثير من الأفلام الأمريكية حتى مللناه .

وحوار الفصل الأول مفكك لا تربطه أية صلة . فالأشخاص يتنقلون من موضوع إلى آخر دون أن يدفعهم إلى ذلك أى دافع . ولم يكن هذا التنوع فى الحديث من مستلزمات القصة ، ولكنه نتيجة ضعف التأليف . من ذلك هذا الدرس الذى يلقيه الابن الأكبر على امرأته من وجوب الحضور إلى المسارح قبل رفع الستار ؛ لأن التأخير يقلق الجمهور والممثلين .

وجاء الفصل الثانى متقنا تمام الاتقان ؛ فالحوار لذيذ ممتع مطبوع بروح الفكاهة والمرح .

وبانتهاء الفصل الثانى كان لا بد أن تنتهى المسرحية ، إذ يتبادر إلينا منه أن الزوجة المطلقة لا بد عائدة إلى زوجها ما دامت تستجيب لدعواته إلى العشاء والذهاب إلى السينما . ولكن المؤلف أضاف فصلا ثالثاً ليس له شأن فى حوادث المسرحية مطلقاً بل يعتبر إطالة لا تستساغ .

وقد لاحظنا أن الممثلين والممثلات دائبون على الاستهتار بجمهورهم ؛ فلم يكن أحدهم قد استذكر دوره ، فزاد ذلك الحوار تفككا . لقد كانت تمضى بين السؤال وجوابه دقيقة يتمكن فيها الممثل من الاستماع إلى الملقن ، فليعلم أعضاء الفرقة المصرية أن الجمهور المصرى غير مشغوف بصوت الملقن ، وأنه لا يذهب إلى المسرح ليستمع إلى الملقن بل ليستمع إلى الممثلين أنفسهم . فعلى هؤلاء الممثلين التزامات نحو هذا الجمهور ، والاستهتار بهذه الالتزامات معناه الاستهتار بالفن نفسه . فالممثلون هنا يقترفون خطيئة مضاعفة نحو الفن والجمهور . وهذه الخطيئة المضاعفة لا تؤدى إلا إلى انهيار المسرح المصرى انهيارا لن تقوم له بعده قائمة .

ولا أجد مناصا من الثناء على اثنين من الممثلين هما فاخر فاخر ، والسيدة إحسان شريف ، فكلاهما قام بدوره خير قيام فلا تكلف

لى تمثيله ولا تصنع على الاطلاق . أما الآخرون فنهم من كان لايمثل مطلقاً مثل سراج منير ، ومنهم من أثار سخطنا بصوته الذى تنفر منه الآذان مثل زينب صدق ، ومنهم من لازم أسلوبا تمثيلياً لايقبله الذوق لمغالاته فى التكلف مثل فؤاد شفيق .

رشدى كامل

شهرية السينما

زوار المساء (انتاج جاك حايك) [1]

تنفرد الآن الأفلام الفرنسية بتقديم آيات فنية رائعة ، فيها من الابتكار والتجديد مايبوئها المكانة الأولى فى عالم التمثيل . وليس الابتكار والتجديد فى أسلوب القصة فحسب بل فى الاخراج والتصوير أيضاً . وفيلم « زوار المساء » هو البرهان القاطع على هذا التقدم الهائل الذى يحمل لواءه الفن السينمائى الفرنسى ، مما جعل الأفلام الأمريكية تبدو الآن قليلة الشأن ركيكة الأسلوب ، متخاذلة باهتة .

و « زوار المساء » تجذب المرء بقوة تعبيرها وتفرده . فالفكرة فى القصة بسيطة جداً ، وهى أن الحب أقوى من كل شىء . فهو قوة لاتقهر مهما كان السلاح الذى يحارب به . فتاة أحبت فتى ما هو إلا رسول الشيطان إلى الأرض ؛ وقد قطع على نفسه عهداً ألا يقع فى شراك الحب . ولكن الحب كان أقوى من عهده ؛ فأحب الفتاة وأولع بها حتى نسى عهده ونسى المهمة التى من أجلها أوفده الشيطان إلى الأرض . ولكن هذا الكلف الشديد أغضب الشيطان ، فحضر بنفسه إلى الأرض وفصل بين العاشقين بأن تسبب فى سجن الفتى . ولكنهما واصلا الحب واللقاء حتى فى السجن . والفتاة بائسة لأن عشيقها حرم الحرية والنور ؛ فيستغل الشيطان بؤسها لينتزع منها العهد بأن تكون له إذا ما أطلق الحرية للفتى وأنساه عشيقته ، فعاهدته على ذلك . ويخرج الفتى من سجنه وقد نسى فتاته ، ولكن شيئاً خفياً يدفعه إليها ، وهو لايدرى له كنها . وما تكاد الفتاة تلحق به حتى يعرف أنه يحبها . لقد أخفق الشيطان للمرة الثانية فى فصل العاشقين وإخماد جذوة الحب فى قلبيهما . وبينا هما متعانقان يحاول للمرة الأخيرة أن يخمد هذه الجذوة فيحولهما إلى تمثالين من حجر . ولكن ما هذا الصوت الذى يسمعه ؟ يقترب منهما فيتبين أنه دقات قلبيهما .

وقد أتى المخرج بأسلوب جديد فى إخراج الرواية يلائم صبغتها الخيالية تمام الملاءمة . عند ابتداء الشريط تكون الشاشة سوداء إلا ركنا صغيراً منها على هيئة دائرة تأخذ فى الكبر شيئا فشيئا حتى تملأ الشاشة . وهذه النقطة المضيئة ما هى إلا فارسان متجهان

---

(1) Les Visiteurs du Soir (*Production Jacques Haïk*) .

نحو قصر من قصور العصور الوسطى . وقد راقنا أيضا وقف الحركة فى المنظر الذى أراد فيه رسول الشيطان أن يستأثر بالفتاة التى أحبها ، فوقفت زميلته الحياة فى القصر — وقد كانت هناك مأدبة والمدعوون يرقصون على أنغام الموسيقا ، فترى الراقصين قد ثبتوا فجأة بيناهم يتحركون والموسيقا تقف فجأة كأن اسطوانة مسجلة وقفت وهى تدور . وأخيراً نذكر منظر المباراة الذى يظهره الشيطان على سطح جدول ماء فيبدو كأنه صور متحركة على شاشة دار للعرض .

وقد قام مسيو جول بيرى بدور الشيطان ، فأدهشنا برشاقته أولا ، لأن مسيو جول بيرى رجل مسن ، وما كنا لنتصور أنه يستطيع أن يأتى بهذه الحركات الرشيقة ، وهذا التلاعب فى نبرات صوته ، وهذه النظرات والضحكات الشيطانية التى كثيراً ما ارتعد لها النظارة . ولم نؤد حقه من الثناء إن لم نتكلم عن المنظر الختامى حينما يحول الشيطان العاشقين إلى تمثالين من حجر ، فيسمع دقات قلبهما فيجن جنونه ، ويأخذ فى الصياح : « إن قلبهما يخفق . . . . يخفق . . يخفق . . . . » ويكرر كلمة يخفق على وزن دقات القلب . وهذا يدل على براعة فنية فائقة فى التمثيل .

ومدام مارى ديا والممثل الجديد ألان كونى أهل للثناء أيضاً . فقد وفقا كل التوفيق فى أداء دورى العاشقين اللذين انتصرا بحبهما على ألاعيب الشيطان .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم قد جاء آية فنية رائعة موفقة قصة وإخراجا وتمثيلا . ولا عجب فى ذلك فان فرنسا هى مبعث الفن والذوق المترف فى العالم بأسره . ونود لو أن الانتاج السينمائى الفرنسى يلازم دائماً هذا الأسلوب الرفيع .

لص غابة شروود (كولومبيا) (١)

من العبث أن يحاول مشاهد هذا الفيلم أن يبحث عن حقيقة تاريخية فى حوادثه أو أن يحدد العصر الذى تجرى فيه هذه الحوادث . فالمخرج حرص كل الحرص على أن يخفى اسم الملك أو الوصى ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وحرص أيضاً على ألا يذكر تاريخاً ما تيسر له ذلك . وكل ما أدلى به من حقائق هو أن الفيلم يجرى فى غابة شروود فى عصر وصى طاغية اغتصب الملك من ملك ما زال طفلا ، وعبث بالدستور الانجليزى المجنا كارتا عبثا جعل اللورد هنتنجدون يثور هو وأعوانه على هذا النظام الاستبدادى . واللورد هنتنجدون ما هو إلا روبين هود ، تلك الشخصية الخرافية التى تمثل روح الشعب الانجليزى وطموحه إلى الحرية وتمسكه بحقوقه . فينسحب اللورد إلى غابات شروود ويستدعى ابنه وهو شاب شجاع ماهر فى شؤون الحرب ، فهو فارس رشيق ورام حاذق . وفى هذه الغابات يدبرون حملة على الوصى لرد العرش إلى الملك الطفل وإنقاذه من مشروعات الوصى الشريرة . وتنجح المؤامرة فعلا ويصل ابن روبن هود إلى دخول القصر ويبارز الوصى ويقتله ويرد إلى الملك عرشه . والقصة لا تخلو من مغامرات غرامية . فوصيفة الملك تكلف كلفاً شديداً بهذا الشاب الباسل المخلص لوطنه وللملكه . وينتهى

---

(١) The Bandit of Sherwood Forest (*Columbia Pictures*).

الفيلم بأن يأمر الملك العاشقين بالزواج .
والفيلم بالألوان الطبيعية ، وتجرى حوادثه فى الغابات . فكان من المتيسر على المخرج أن يستغل هذه الناحية ليقدم لنا صوراً جميلة فنية ، ولكنه أهمل هذه الناحية إهمالا تاماً ، ولم يوجه اهتمامه إلا إلى الحوادث دون الديكور ، فأهمل تصوير المناظر الطبيعية على حين صرف عنايته إلى تصوير المبارزات وعدو الفرسان فى الغابات ودهاء المغيرين على قصر الملك ، وما شابه ذلك من أعمال البسالة .

ولا يمكن الكلام عن التمثيل فى هذا الفيلم . فقد آثر المخرج أن يختار شابا وسيم الطلعة ، قوى البنية يتقن ركوب الخيل والمبارزة والغزل ، واختار فتاة جميلة لا مميزات لها إلا فتنتها فقط .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم إنتاج رخيص لم يكلف أى عناء أو مشقة فى اختيار الحوادث أو فى الاخراج أو فى التمثيل . فالسينما الأمريكية أنتجت مئات من الأفلام المماثلة . فما على المخرج إلا أن يسلك الطريق التى سلكها من قبله كثير من المخرجين . والقصة تافهة تعيد فى ركاكة حوادث قصة روبين هود أو غيرها من قصص البطولة والمغامرات .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

وحدة العالم وحرية الشعوب

الف الروائى الفرنسى جول فرن قصة فى أوائل القرن التاسع عشر وسماها «الطواف حول العالم فى ثمانين يوماً» . واعتقد المسكين أنه روى إحدى الأساطير العجيبة ، وأخذ قراؤه هذه القصة مأخذ الخرافة التى تدعو المرء عند المطالعة إلى ترك الأعنة للخيال الخصب يسبح فى عالم الأوهام . ونرى اليوم أن جول فرن أخطأ فى التقدير وأن أوهام بنى زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ؛ إذ قام المستر وندل ويلكى فى شهر أغسطس من سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت خمسين يوماً قضى منها ثلاثين يوماً على الأرض والباقى فى أجواز الفضاء .

أما وندل ويلكى فهو أحد الشخصيات الأمريكية المعروفة فى محيط السياسة ، وقد كان رئيساً للحزب الجمهورى فى أمريكا وتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية فى عام ١٩٤٠ فخذله فيها المستر فرانكلين روزفلت . على أن هذا الأخير كان يطمئن إلى كفاية خصمه ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية دقيقة فى ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ كانت أمريكا وقتئذ مشتركة فى الحرب وكانت انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة فائقة لا سيما بعد كارثة «بيرل هاربور» كما أن زحف الألمان فى أوربا وأفريقية كان ينذر بشر مستطير .

غادر المستر ويلكى أمريكا مزودا بارشادات الرئيس روزفلت قاصداً تقصى حقيقة الأحوال باتصاله الشخصى برجالات الحرب وقادة الشعوب فى مختلف الأمم الحليفة والمحايدة . فطاف باثنتى عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقى الانسانية وبال حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر . تأمل المستر ويلكى طويلا فى مشاكل الدول المختلفة ، وأمعن فى فحص الأسباب التى تؤدى عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور الغابرة ، فتبين له أن طبيعة الانسان واحدة وغرائزه واحدة وأطماعه واحدة فى جميع بقاع المعمورة رغم بعد المسافات واختلاف الأمزجة والأهواء ، وتباين طبيعة الأصقاع والأقطار ، كما بدا له وهو يحلق فى الفضاء على متن طائرته . أن بلاد الله واسعة الأرجاء ، ولكنها متصلة الملتقات بعضها قريب من بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان وبغضاؤه ، وأن العالم الذى نعيش فيه عالم واحد تقطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء جسم واحد إن سقم عضو منه تأثرت بهذا السقم بقية الأعضاء . لذلك خلع المستر ويلكى على كتابه عنواناً جميلا خلاباً «عالم واحد» One World وما كاد ينشر هذا الكتاب فى عام ١٩٤٣ حتى تهافت عليه جمهور غفير من القراء فى جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، وبيعت منه ملايين النسخ فى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لمكانة واضعه وثاقب فكره ، وخطورة

المسائل التي تناولها بالبحث والتعقيب ، ورجاحة الحلول التي وفق لها بعد التمحيص والتنقيب . ومما يبعث على الأسف حقاً أن المنية لم تمهل المستر ويلكى طويلا بعد وضعه كتابه إذ توفى فى العام التالى - ١٩٤٤ - فلم يقدر له أن يحيا ليلمس بنفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التي كشفها فى كتابه بشأن عالم الغد . ولعل الله أن يكون قد أراد به خيراً .

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكى عرضاً موجزاً ، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق فى كل ما عن له من ملاحظات ، ولم ينج فى بعض الأحيان من الزلل ؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه لم يطل المقام فى كل بلد حل به .

استهل وندل ويلكى رحلته بمصر ، فاتصل ببعض الشخصيات العظيمة وتحدث مع أولى الأمر من المصريين وزار بعض رجالات الانجليز والأمريكيين بين قائد ووزير مفوض . ولا تهمنا أحاديثه الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصرى وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له ؛ إذ لم يخف عليه سوء الحالة الصحية فى مصر وتفشى الأمراض فيها تفشيا خطيراً بين بلهارزيا وتراكوما ، ولم تخف عليه حالة الفقر وما يجره فى أذياله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة فى التربية والزراعة والصناعة يرجع بعضه إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبعضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيداً فى بلده . ولكن المستر ويلكى أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس بمصر قاطبة مدرسة وطنية يمكن لمصرى أن يفخر بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيدة أمريكية لتعليم اليتيمات . ولعل مرشده لم يفطن لدعوته إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على الأقل . وقد عاب المستر ويلكى على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة فى الثراء وأغلبية مفرطة فى فقر مدقع .

ثم ذكر أن ما راعه فى بلاد الشرق الأوسط التي مر بها تهافت الناس على سؤاله : « هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل سياسة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها نكبت بوقوعها فى نقط استراتيجية على مفترق الطرق الحربية والتجارية الهامة ؟ » وعلق المستر ويلكى فى كتابه على هذا السؤال قائلا : إنه يرى لزاما عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التي تدافع عنها أمريكا فى الحرب ، وأنه كلما أمعنت الدول فى تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهياج التي تهدد هذا النظام .

ثم غادر رحالتنا الشرق الأوسط ويمم شطر تركيا ، فراعه فيها تقدمها الاجتماعى والطبى فى فترة وجيزة لا تعدو العشرين عاما . وأعجب بقوة الشعب التركى وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامى الذى أنهك الدول الأوربية ، ولكنه أظهر جهلا تاماً بعلم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة .

وقد أفرد وندل ويلكى لروسيا السوفيتية ستين صفحة من كتابه ولذا لزم التحدث عنها فى شئ من الافاضة .

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يمكث فى روسيا إلا خمسة عشر يوماً ، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل ، ولكنه قرأ عنها كثيراً ، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل التناقض متباينة كل التباين . ولذا سره أن يرى بعينى رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذى جعل العالم بأسره فى حيرة من أمره ، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

السوفيتية منحته الحرية التامة فى التجول أينما يشاء وارتياد مايشاء من الأماكن سواء فى ذلك المصانع الحربيــة ، ومصانع الغزل والعزب الزراعيــة والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتــال ، كما أتيح له أن يستفسر فى صراحــة تامة عن أية ظاهرة تثير دهشه ، وأن يلقى ما يروقه من الأسئلة لمرافقيه .

وقد أطـال المستر ويلكى الحديث عن شجاعة الجندى الروسى وبسالته وحسن بلائه فى فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد باخلاص الشعب وتفانيه فى الدفاع عن وطنــه رجالا ونساء وأطفالا ، وأظهر إعجــابه بالعمال الروس الذين يشتغلون فى المصانع الحربيــة والمدنية لاعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه فى صراعهم الجبــار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يأبهون لأخطار الغارات ولا يكلون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم فى نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أوغل الألمان فى غزوهم ، ومنها مانقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

وقد دار بينه وبين شــاب يافع يشغل مركز مدير الانتاج فى أحد مصانع الطائرات حوار طريف مفيد ، أنقله لأنه يلقى ضوءاً على النظام الاجتماعى فى روسيا السوفيتية وطرق المعيشة فى هذا البلد الذى ظل العالم فى جهل تام عما يحدث فيــه أعواماً طوالا . بادره المستر ويلكى بالسؤال الآتى :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لانتاج هــذا المصنع وأجر العامل العادى ؟

— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .

— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة فى الأجور !

— ليست المســاواة ضمن المبــادىء الاشتراكية المطبقة حاليا فى روســيا . ثم استرسل فى شرح هذه النقطة فذكر أن شعار الاشتراكية الستالينية هو : « من كل شخص حسب كفايته ، ولكل شخص حسب أعماله » وأن هذا الشعار سوف يتحول إلى : « من كل شخص حسب كفايته ولكل شخص حسب حاجاته » عند ماتتم المرحلة الشيوعية لتقدمهم . وأردف قائلا إنه حتى فى هذه المرحلة الأخيرة لن تكون المســاواة الكاملة لازمة أو مرغوبا فيها .

— لعلك تدخر جزءاً من إيرادك الضخم ؟

— نعم كلما أقلعت زوجتى عن الاسراف .

— وكيف تنتفع بما تدخره من المال ؟

— ابتعت منزلا جميلا بجزء من رصيدى

— وماذا تصنع بالجزء الباقى ؟

— اشتريت أيضاً منزلا بسيطا فى الريف أقضى فيه مع أسرتى أيام العطلة .

— وماذا تفعل بما يبقى لك من المال بعد ذلك ؟

— أشترى به سندات الحكومة وهى سندات لا تعطى حاملها ربحا أو فائدة .

— ولماذا لا تستغل نقودك فى أوراق مالية تأتى لك بفوائد رابحة ؟

— اتقصد يا مستر ويلكى أن أستغل رأس المال ؟ إن هذا محال فى روسيا ، وعلى كل فهو عمل ينافى مبادئى .

— إذن ما الذى يحفزك إلى العمل بهذا الجد ؟

— إنى أشرف على هذا المصنع ، وفى يوم من الأيام سوف أصبح رئيسا له . أترى هذه النياشين ؟ إنى فخور بها لأن الحكومة منحتنى إياها لجودة إنتــاجى وربما يكافئنى الحزب فى يوم ما باسناد منصب حكومى رفيع إلى .

— ومن يعولك فى شيخوختك ؟

— إنى أعول على ما ادخرته من المال وإلا فالحكومة سوف تعولنى .

— ألا تتمنى ان تهيئ لأبنـائك بداءة خيراً من بداءتك فى الحيـاة ؟ ألا ترغب فى إبعاد شبح العوز عن زوجتك إذا ما توفيت قبلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يا مستر ويلكى إنى بدأت حياتى عاملا ، وسوف يبدأ أولادى حياتهم مثلى . أما زوجتى فهى تعمل وسوف تدأب على العمل ما مهدت لهـا صحتها ذلك أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تعولها .

وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالا طالما رددته الدول الغربيـة لتثبت أن نظام السوفيت لا يمنح الفرد حرية القول والفكر :

— افرض جدلا أنك تخالف نظريات الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل لابداء آرائك والدفاع عنها ؟

عندئذ أنكر الروسى إمكان حصول مثل هذا الفرض وهز كتفيه ولم يجب . فأردف المستر ويلكى :

— أستخلص من موقفك أنك لا تتمتع بأية حرية !

هنا احتد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يا مستر ويلكى . إنى أتمتع بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما إذ كانا فلاحين استعبدتهما الارض فلم ينالا أى قسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من يعنى بأمرهما . أنا أول شخص من سـلالة أجدادى العريقة سنحت له فرصـة التعليم والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسميه الحرية . قد لا يعنى هـذا الحرية فى نظرك ، ولكن لا تنس أن نظامنا يجتـاز مرحلة التطور وسـوف نحظى فى يوم ما بالحرية السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة ونـدل ويلكى لأروى زيارته لاحدى «العزب الاجتماعية» . لقد تغير نظام الزراعة فى روسيا إذ صارت الأراضى الزراعية ملكا للدولة . أما هذه العزب فعلى رأس كل منها مدير ، ولـكل عزبة الحق فى أن تستأجر من مخازن الحكومة الآلات الزراعية الحديثـة وجميع أنواع المعدات الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحة علمية على أن تدفع قيمة الايجار للحكومة بتسليمها حصة من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل فلاح الحق فى أن يستبدل بنصيبه من المحصول أية سلعة يريدها من متجر قريب من العزبة ، كما له الحق فى بيع نصيبه إن أراد ، إلا أن الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع لها مباشرة . وقد لاحظ المستر ويلكى أن لدى الفلاحين رصيداً من المال غير قليل وأن الغـذاء لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟ فلم يفقهوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم لم يملكوا أرضاً فى حياتهم .

ثم ختم وندل ويلكى جولته فى روسـيا بمقابلة المارشال ستالين ، فألفاه رجـلا بسيطا هادئ الطبع شـديد المراس لا يأبه إلا للحقائق ولا يسبح فى الخيال والأوهام ، ملماً بكل تفاصيل القتـال وبكل ما يحدث فى روسـيا وفى العـالم الخارجى . وقد قال له ستالين ذات مرة فى سذاجة مؤثرة : « يا مسـتر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح فى مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنمق ، وغاية ما أستطيع أن أؤكده لك هو أنى أميل إليـك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكر منهم مولوتوف وزير الخارجيـة وفيشنسكى ولوزوفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال فوروشيلوف وزير الدفاع الأسبق والسيدة ميكويان وزيرة التموين ورئيسة إدارة العلاقات الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية، وقد ألفاهم جميعاً رجالا مثقفين ملمين بالمشـاكل الدولية إلماماً تاماً ، ولا يشبهون البتة لاشكلا

ولا لغـة ذلك المظهر القبيح الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة .

غادر وندل ويلكى روسـيا الأوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سـيبريا — روسيا الأسيوية — المترامية الأطراف التى يغطيها الجليد فى أكثر شهور السـنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية «ياكوتسك» الاشـتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هـذه المقاطعة فيقطنها قوم ينحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخا من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت المجاعات والأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً حتى انقرضوا تدريجياً أو كادوا . والجمهورية ياكوتسك فى عهد القياصرة شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشـغال الشاقة وللسجناء المنفيين لجرائم سياسـية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استهوته لغرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب : هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فقاده إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مضاءة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسـين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عـدد مرتاديها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الريفية المجاورة . ثم استفهم الزائر عن الملاهى بهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية راقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والغناء إعجاباً عظيما . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النائية فأجابه الرفيق موراتوف حاكم البلد أن اثنين فى المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انعكست هذه النسـبة تماماً . ثم أردف مبتسما : «إنى تلقيت أوامر من موسكو تقضى « بتصفية » هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنان فى المئة » . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأسمنت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأبدى إعجابه ببنائها ونظامها ، حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : « لا يغربن عن بالك يامستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخمدت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لمـا كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بقلبهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة بيضاء على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فان مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها شأواً عظيما وضعها فى المرتبـة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر المستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والنحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبترول . »

ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها كى يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوثبة منوها بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعـل من الروس قوماً أصحاء أشداء يعدون فى طليعة الأمم فى هـذا المضمار ، فضلا عن انتشار التعليم بينهم انتشاراً عم جميع طبقات الشعب بلا تمييز بعد أن كان يتخبط فى ظلام الجهل الحالك أجيالا عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتفانيهم فى الذود عنه والتضحية

بحياتهم فى سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه . وختم حديثه عن رحلته قائلا إن روسيا أضحت اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن فى عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم ميله إلى النظام الشيوعى لا يسعه إلا الاقرار بأن هناك أشياء كثيرة فى روسيا تستحق الاعجاب ؛ ولذا فهو يحث الشعب الأمريكى على التقرب من الشعب الروسى لادراك عقليته إذ يرى أن أمريكا وروسيا فى الوقت الحاضر قوتان جبارتان لا تدانيهما فى قوتهما دولة ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم فى كارثة فاجعة .

طال بى الحديث ولما أنته من سرد مشاهدات المستر ويلكى خلال رحلته حول العالم ، ويضيق على المجال لتناول جولته فى بلاد الصين الشاسعة التى عرج عليها وهو فى طريق الأوبة إلى الولايات المتحدة . ولئن فاتنى أن أتحدث عن الشرق الأقصى لا يفوتنى أن أشير إلى خاتمة الكتاب الذى أعرضه ، وهى خلاصة أفكار مؤلفه لما فيها من مغزى وعبرة ونصح .

عند ما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها البشر فأغرقوا فى خيالهم الخادع ، ولم يعمل أحدهم شيئاً نافعاً لملافاة وقوع كارثة أخرى . واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول مستعمرة لم تفد منها الانسانية فتيلا ، فهى حرب لم تحمل فى ثناياها أى مبدأ جديد من تلك المبادئ السامية التى تتمخض عنها المثالية والتى تدفع الأمم إلى التقدم الفكرى والتحرر من الأوضاع العتيقة البالية التى لا تتمشى مع تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال الاقتصادى ، وهما صورتان بشعتان من صور الاستعباد الحديث فى القرن العشرين ، إحداهما استعمار خارجى والأخرى استعمار داخلى . ومن المشاهد فى التاريخ أن الأمم تخطو خطوات واسعة إلى الأمام فى شتى الميادين العلمية والاجتماعية والطبية بعد الحروب أو الثورات أو القلاقل ؛ لما ينجم عن هذه الأحداث من انقلابات شاملة فى تحديد القيم الروحية والعقلية . لقد قال كارل ماركس عن الثورات إنها « قاطرات التاريخ » أى إنها تجر وراءها التاريخ وتقذف به مسرعة فى أحضان المستقبل . فاذا ما أخفقت الحرب أو الثورة فى تقريب الانسان من مثله العليا ذهبت جميع التضحيات التى تلازمها أدراج الرياح ، وأصبحت الحرب أو الثورة حدثاً تاريخياً أجوف لا طائل تحته .

والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف التى يتوخاها وندل ويلكى فى الحرب العالمية الثانية والتى يأمل أن تحققها حتى لا تكون الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً . أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها فى كلمة واحدة موجزة وهى « الحرية » . ومن الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشدق منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الخلابة . والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث عنها ليسلبها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة السلاح إن لم يكن من ذلك مفر ؛ إذ لم يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت إلى شعب مغصوب حريته على « طبق من الفضة » كما يقول الغربيون ليتناولها لقمة سائغة عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ويلكى قول أرى أن أنقله لما فيه من سخرية . ولعل تلك السخرية حقيقة واقعة فيكون الأمر أدهى وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تستبين الشعوب الأسباب التى دعتها إلى القتال

والآمال التى تعقدها على الفترة التى تعقب الحرب. » هذا ما يخشاه المستر ويلكى. وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هى إلا حرب استعمارية كسابقتها أفادت منها الدول المستعمرة كل الافادة، ولم تغنم منها الشعوب المهضومة أى غنم إلا ماحاق بها من خسائر مادية فضلا عن خسائر الأرواح فى بعض الأحوال. وإلا فما الذى غنمته الهند مثلا من إقحامها فى هذه الحرب رغم أنفها ؟

لقد أبرز ويندل ويلكى هذه الحقائق سافرة، وأثنى على الحريات الاربع أو الخمس وعلى ميثاق الأطلنطى وعلى كل العهود التى قطعتها على نفسها الدول الحليفة إبان المعمعة، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التى تحيق بالعالم إن هى نكثت وعودها، وقال تلك الجملة الرائعة «إن الحرية كلة لاتتجزأ». وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب العقول الراجحة فى الصين بصدد حبوط المفاوضات التى أجرتها انجلترا مع الهند أثناء الحرب توطئة لمنحها نوعاً من الحكم الذاتى — تلك المفاوضات التى قام بها وزير التجارة الحالى فى بريطانيا العظمى السير ستافورد كريبس، قال هذا الصينى للمستر ويلكى : « يوم أجلت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو انجلترا وحدها فى عيون شعوب الشرق الاقصى، وانما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً ».

ثم تناول الكاتب الأمريكى الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لنيل حقها الشرعى فى الحرية والاستقلال قائلا : « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شئون شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما ينبغى الدفاع عنه بقوة السلاح. ففى أفريقية وفى الشرق الأوسط وفى كل العالم العربى وفى الصين وفى سائر بلدان الشرق الاقصى الحرية معناها إلغاء النظام الاستعمارى، وسواء راقنا هذا الكلام أو لم يرقنا، فهذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ».

وليت المستر ويلكى استرسل فى دفاعه عن الحرية إلى النهاية الطبيعية التى يقودنا إليها المنطق السليم، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خليق بها أن تجلو عن البلاد التى تحتلها جيوشها على الفور أو بعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة. ولكنه وقف فى منتصف الطريق المؤدى إلى الحرية الحقة — وكأنه ندم على اندفاعه فى هذا التيار الحماسى الجارف — وعرض حلا لوضع حد للاستعمار لايشبع ولا يقنع، إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أى اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لما يسميه الانجليز كومونولث. ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة فجأة من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهر أنظارها أو يعلوها غشاء يجعلها تضل وتتنكب سواء السبيل، فلهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تتعثر فى حبوها وهى حديثة عهد بالاستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض. ومن الغريب أن المستر وندل ويلكى لم يلفظ كلة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به نفسه السمحة لم يعد لفظ « الحكم الذاتى ». وهناك، على ماهو معلوم، دول تتمتع بالحكم الذاتى دون أن تنفصم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يقال الآن فى لغة هيئة الأمم المتحدة — انفصاما كاملا. وما أبغض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكى من التحدث عن الاستعمار الخارجى ومجافاته للمثل العليا التى يأمل أن تحققها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كسابقاتها، تناول موضوع الاستعمار

الداخلى أو الاستغلال الداخلى الذى لاتخلو منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله نواح متنوعة ، منها ما هو خاص بأمريكا كمشكلة الزنوج فيها ومعاملة الامريكيين لهم معاملة شاذة قاسية لا مسوغ لها إلا اختلاف لون البشرة ، ومنها ماهو عام يشمل الدول كافة . وقد قال المؤلف فى سياق الحديث عن هذا النوع من الاستعمار أو الاستغلال: « تداؤنا بأهدافنا التى نرمى إليها من وراء هذه الحرب كشف لنا القناع عن ظلمنا . عندما نتحدث عن الحرية وتكافؤ الفرص لجميع الأمم تظهر لنا مفارقات مجتمعنا المضحكة ظهوراً جلياً لانستطيع معه سترها أو تجاهلها . إذا أردنا أن نتحدث عن الحرية وجب علينا أن ندرك هذا اللفظ على صحته، وهو أن لغيرنا أن يتمتع بالحرية كما نتمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب أن تمنح للجميع داخل حدودنا وخارجها ، فنصون مثلا حقوق الأقليات التى لا غنى للكثرة عنها ؛ إذ تعد الحافز القوى الذى يدفع عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار فى شتى الميادين . »

وهناك حرية لا تقل شأناً عن الحرية السياسية ، وهى حرية الدولة الاقتصادية ، فلكل دولة الحق كاملا فى توجيه اقتصادها الوجه الذى تراه ملائما لمصالحها دون التقيد بشروط أو اتفاقات اقتصادية تملى عليها ودون ربط عملتها قسراً بعملة أجنبية بحيث يصبح كل الغنم فى كفة والغرم فى الكفة الأخرى من الميزان . ويقترح المستر ويلكى فى هذا الصدد إلغاء الحواجز الجمركية التى تشل التجارة الدولية أو تعوق ازدهارها الطبيعى .

على أن هناك نوعاً من الاستعمار الداخلى لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استغلال بعض طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استغلال الطبقة المالكة للطبقة العاملة استغلالا فاضحاً . كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر المعروف باسم «الحريات الاربع» . ولعل مرد تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على لسانه فى سياق حديث آخر : أنه لا يميل إلى المبادىء الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرابة فى ذلك إذ هو أحد الأثرياء المعدودين فى أمريكا ، وأمريكا حصن منيع للرأسمالية المتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد الأرض قاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعد أن أهدرت هذه الكلمة لفظا ومعنى أجيالا طوالا . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمنع عن الجميع ؛ إذ أصبحت الحياة لاتطاق فى عالم أقله سادة وأكثره عبيد . فان حققت الحرب هذه الأمانى التى تجيش بها الصدور ، ردد الناس قوله تعالى: « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »، وإلا فعلى الأرض العفاء .

فؤاد وصفى أبو الذهب

من وراء البحار

روسيا وسياستها الخارجية

يهتم مستر فويجت فى مقالاته التى ينشرها بمجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » بتتبع سياسة روسيا الخارجية وما تنطوى عليه من أخطار نحو الامبراطورية البريطانية. ولقد ظل طوال سنى الحرب يكتب فى حماسة فى ذلك الموضوع حتى أثار عاصفة من النقد فى بعض الصحف فحملت عليه ، وأدى ذلك إلى قضية قذف شغل بها الناس منذ سنتين .

وهو الآن يعاود الكتابة فى سياسة روسيا . ففى العدد الأخير من تلك المجلة (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) عاد يشرح خطر هذه السياسة على انجلترا ، فهو يقول: إن انجلترا حاربت نابليون دفاعا عن سلامتها ، وقد قال وليم بت رئيس الوزارة فى ذلك العهد إن انجلترا تحارب « مذهباً مسلحاً » . ولكن الواقع أن انجلترا لا تحارب من أجل المثل العليا ، وانما تقصد السلامة ، ولو ضمنت سلامتها قبل التغلب على نابليون لما ترددت فى مصالحته . ولقد ضمنت السلامة بعد التغلب عليه مدة قرن كامل . وفى سنة ١٩١٤ دخلت انجلترا الحرب من أجل السلامة أيضاً . وفى سنة ١٩١٩ تدخلت فى الحرب الروسية الأهلية وقيل إنها فعلت ذلك من أجل المبادئ ، ولكن الحقيقة أنها تدخلت إذ كانت تخشى اتفاق روسيا وألمانيا حين بدا لها أن ألمانيا ستنقلب شيوعية .

ومما لاريب فيه أن هنالك طريقين لضمان السلام : أولهما توازن القوى ، وهو الطريق الذى تسلكه انجلترا . وثانيهما تفوق القوى وهو الطريق الذى سلكته فرنسا مرة وألمانيا مرتين ، وتعمل له روسيا الآن .

لقد تمكنت روسيا بفضل شجاعتها من جهة ، وبفضل بعد نظرها ووحدة غرضها من جهة أخرى ، وبفضل الكوارث السياسية التى حلت بانجلترا أثناء الحرب ، من أن تكون العامل الأساسى فى طبيعة السلم ، ولا تزال كذلك ، فهى الوحيدة بين الدول الكبرى المنتصرة التى حصلت على ما هو أكثر من هزيمة العدو المشترك ، فهى تهاجم الأعداء والحلفاء والمحايدين — الأعداء بالقوة الحربية وقد وصلت فى أقل من خمس سنوات إلى فتوح من أكبر ماعرف فى التاريخ ، ولكن هذه الفتوح فى بداءتها ولا تنتهى حتى تكون لروسيا السيادة على أوربا ، وحتى تحقق وحدة نفوذها فى آسيا ، وحتى تبلغ من القوة مبلغاً تتدخل به فى أمور العالم بأسره .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تنهى الحرب عن طريق الشرق ، ولكن روسيا عارضت وأبت إلا أن يهجم الانجليز من الغرب ، وبهذه الطريقة تمكنت من أن تفرض سلطانها على شبه جزيرة البلقان ماعدا اليونان ، وهذه أيضاً لا تزال مهددة . وفى طهران كسبت روسيا السلم ، وخسرته بريطانيا . ولقد صارت إحدى عشرة دولة خاضعة لروسيا ، وهن فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر ويوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا . ولقد استطاعت روسيا أن تضم أراضى كبيرة من ألمانيا ، وبلغت من النفوذ

فى النمسا أنها تستطيع من هذا البلد أن تكون لها الكلمة العليا فى مستقبل أوربا .

لقد حققت روسيا أحلامها داخل بلادها كما حققتها فى الخارج ، ونحن نعلم أن الكثيرين من أبنائها ، منهم دستويفسكى الكاتب الشهير ، كانوا ينادون باتحاد الشعوب السلافية تحت زعامة روسيا ، ولقد أدت السياسة الحالية إلى تحقيق هذا الحلم . وليس الغرض الذى ترمى إليه روسيا هو تحقيق السلام ، ولا هو غرض أدبى كما يفهم فى غرب أوربا . وإنما قوة هذا الغرض ناشئة عن الحيوية الكبيرة فى الروس ، وما ينطوون عليه من ذكريات تاريخية . فروسيا فى عهد القياصرة فى ميولها الاستعمارية واعتقادها بأنها منقذة البشر ، وروسيا لينين التى تعتقد فى الثورة العالمية ، يتلاقيان الآن تحت ستالين فى صعيد واحد .

لقد كانت الثورة الروسية بعد انتصارها فى أكتوبر سنة ١٩١٧ تقاوم كل نوع من الاستعمار ، بما فيه الاستعمار الروسى نفسه ؛ فقد كان القائمون بها يعتقدون اعتقاداً قاطعاً بأن الثورة لا تلبث أن تشتمل العالم بأسره ، وكانوا يراقبون فى اهتمام أمرين : الثورة الألمانية ، والثورة على الحكم البريطانى فى آسيا .

وانتظر لينين فى لهفة نجاح الثورة فى ألمانيا ، ومعنى ذلك حدوث انقلاب شيوعى فى سائر انحاء أوربا . ولكن الثورة لم تنجح لأن العمال الألمان كانوا لا يرغبون فى دكتاتورية من أى نوع . وكذلك الثورة على الحكم البريطانى لم تنجح ، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية أظهرت مرونة لم تكن متوقعة ، ومع ذلك ظل ستالين حتى سنة ١٩٢٥ يداعبه هذا الأمل .

لقد كان ستالين مخطئاً فى أنه ظن وتوقع هذا الحادث فى سنوات قليلة . ولكن هل يكون مخطئا لو توقع حدوثه فى عشرين سنة عند ما تصبح روسيا قوية بحيث يكون لها أصبع فى تسيير الأمور ؟

لقد حاولت بولندا فى سنة ١٩٢٠ أن تقضى على خطر الروس ، وكان من الطبيعى أنها لا تنجح . والآن قد عاد إليها الروس فاتحين ، وفرضوا عليها الثورة ، وروسيا عازمة الآن على ألا تقف بولندا فى سبيل أغراضها فى أوربا ، ولن تسمح روسيا لبولندا بقطرة من الاستقلال الحقيق . ويمكن لروسيا الآن أن تسير فى الطريق الذى لم تنجح فيه من قبل وهو التحالف الثورى بين روسيا وألمانيا . وهى تستطيع أن تفرض إرادتها فى شرق ألمانيا وأواسطها ، ولكنها الآن لا تستطيع أن تفرض هذه الارادة فى غرب ألمانيا ، لذلك نراها تنادى بالوحدة الوطنية الألمانية ، لأنها تريد أن تجعل من ألمانيا تابعة . وهذا التحالف الذى تسعى إليه روسيا ، ويفرض على أوربا الثورة ، يهدد الامبراطورية البريطانية بالزوال .

الحياة فى برلين

فى العدد الأخير من مجلة «هورايزن» الانجليزية (عدد مارس) رسالة كتبتها كلاريسا تشرشل تصف فيها الحياة فى برلين ؛ فقد كانت قادمة إليها من وستفاليا حيث منطقة الاحتلال الانجليزية . وكان القطار يقطع أحياناً جسوراً وضعت عليها لوحات بيضاء تدل على أنها مؤقتة . ولكن القطار يمر فى منطقة روسية وحينئذ يتغير منظر هذه اللوحات إذ كانت اللوحات الروسية مليئة بالعبارات التى تنتهى بعلامات التعجب ، وهى تحمل على

الغالب النداءات المألوفة لدى حكومة السوفيت وقد وضعت حولها رايات حمراء عدة .

والقادم إلى برلين من الضواحي قد يخدع في منظرها ، فلا تزال البيوت قائمة ، يدل منظرها الخارجي على أنها سليمة ، ولكنها في الحقيقة ليست الا مجرد قشور مجوفة من الداخل . أما وسط المدينة فهو أشبه ما يكون بمنطقة جوية أخرى ، فكأنه جبل عال لاتعيش فيه الأحياء ، ويقل فيه الزرع حتى ينعدم .

ولقد اتخذت اللجنتان البريطانية والأمريكية مقراً لها ولرجالها في المنازل السليمة بالضواحي . ويسمح لأصحاب المنزل من الألمان بان يقيموا في الدور الأرضي اذا كانوا من المعروفين بعدائهم للنازيين ، أما غير هؤلاء فيطردون طردا . وكلما زادت أعمال اللجنتين وزاد عدد الموظفين فيهما زاد عدد الالمان الذين يطردون من منازلهم فينضمون الى الآلاف من الألمان الذين لا يجدون مأوى إلا في المنازل المحطمة وتحت سلالم البيوت أو في الخرائب .

ومن المشاكل الكبيرة لدى الألمان في برلين أمر التدفئة . لذلك تجدهم يدورون في الغابات المحيطة بالمدينة ليحصلوا على شئ من الوقود . ولقد أتى الألمان على الأشجار في تيرجاردن ، حتى لم يبق من هذه الحديقة العظيمة غير التماثيل التي أنشئت تحيط بها الأشجار ، وهي الآن قائمة وسط ميدان كبير من الطين . ويحاول كل ساكن في برلين لديه شئ من القوة أن يحصل على عمل في تنظيف المدينة ، فان ذلك يضمن له بعض القوت .

ولقد نشأت في كثير من بلدان أوربا السوق السوداء حيث يحصل فيها الناس على ما لا يستطيعون الحصول عليه من طعام ، ولكنها تكون عادة مستخفية ، اما أن يظهر المتعاملون في السوق السوداء جهارا في رائعة النهار كما في برلين ، فتلك حال تدل على منتهى اليأس ؛ فانك ترى جماعات المتعاملين واقفة في الساحة الفضاء التي كانت تيرجاردن فيما مضى ، يطل عليهم ذلك الأثر الذي أقامه الروس ليخلدوا ذكرى انتصارهم على برلين وأقاموا فوقه تمثالا من البرنز يمثل بطلا من رجال الجيش الأحمر ، فهذه الكتل البشرية لابد إذا ما أزيح الضغط عليها أن توجه نشاطها بعد اليأس ، الى أن تسلك أقرب طريق لاحياء ألمانيا كأمة من الأمم .

وبين هذه الخرائب نجد حياة ثقافية تحاول أن تقف على قدميها ويساعدها الحلفاء . فقد قامت فرق الممثلين وجوقات الأوركسترا ، تعمل بعد أن طهرت من العناصر النازية ، يساعدها المحتلون . فقد عمل الروس على تمثيل أوبرا «أورفيوس» للموسيقار جلوك في الخريف الماضي بمعهد أوبرا الدولة ، كما مثلت الأوبرا الروسية «أوجين» أو «نجين» ومثلت كذلك أوبرا «ريجوليتو» .

وفي مسرح دويتش مثلت رواية «ناثان الحكيم» ، وقام الممثل بول فيجنر بالدور الرئيسي ، ومثلت كذلك رواية «فاوست» .

وتعمل فرقة الفلهارمونيك الشهيرة الآن تحت قيادة موسيقار روماني شاب اسمه سليبيداك إذ أن رئيسها ليو بورخارت الذي خلف فورتفنجلر أصيب خطأ برصاصة من حارس قضت عليه . ولقد أقيمت عدة معارض في التصوير والنحت ولكن لم يظهر فيها مايلفت النظر بنوع خاص .

وفي كل منطقة من المناطق المحتلة عدد من الصحف والمجلات ، منها ثلاثة تعنى بالأمور الأدبية أولها « ديراوث باو » التي تصدر في المنطقة الروسية تحت رقابة الميجر شليجلوف الكاتب المسرحي الروسي ، وهي حرة الآراء وتدل آراؤها على نظر بعيد في مشاكل ألمانيا

الحاضرة و المستقبلة من الوجهة الثقافية . والثانية نيوآوتليبى وهى تصدر فى المنطقة البريطانية . أما الثالثة فتصدر فى المنطقة الأمريكية .

وليس هناك حياة ثقافية بالمعنى المعروف إذ أن تبادل الآراء غير قائم . وقد ابعد جميع رجال الادب والفن ذوى النزعة النازية ، وتتشدد بعض سلطات الاحتلال فى ذلك مثل الأمريكان مثلا إذ يعتقلون كل من يظنون فيه ميلا للنازية ، ويعهدون إليه بأعمال يدوية مهما يكن من مواهبه الفنية والادبية .

موكب النصر فى لندن

تكلم ريتشارد جننجز فى ملاحظاته الطريفة بمجلة « القرن التاسع عشر » عن العرض العسكرى الذى يقام احتفالا بذكرى النصر فى لندن، فقال : لقد حذرنا بأنه لا يأتى الصيف حتى يكون ملايين من الرجال والنساء والأطفال الذين لاشك فى براءتهم فى مجاعة بجهات واسعة من أواسط وشرق أوربا ، ونحن نعلم أنه حتى الآن لاتوجد أمة أوربية لم تسلم من الخوف وخيبة الأمل الذى يتبع تلك الحالة الشاذة التى نسميها الحرب الاجماعية . فملايين من الناس بلا مأوى ، وأولئك الذين نجوا من وبال الغزو يعيشون كنقط صغيرة من الثبات النسبى فى محيط من الفوضى هو فى احتياج إلى مجهود هائل ليعود إليه شئ من النظام . فى كل مكان نرى الكراهية والارتياب . وقد تزيد صعوبات انجلترا نفسها وقد يزيد ما هى فيه من حرمان . فهل من المستطاع وهل من المتصور أنه فى مثل هذا المأزق الذى يقف فيه العالم يوافق شخص ذو تفكير أو شعور إنسانى أو يصفق لعرض النصر المقترح الذى سيحدث فى وقت يقام فيه عيد القديسين الذى هو من أجمل وأهدأ أعياد الكنيسة ؟ وهل يرضى عن ذلك رجال الدين؟ وما رأى الناس؟ ولماذا لا تأخذ الرأى بطريقة جلوب لكى تتحقق من الرأى العام ؟ لقد احتج بعض أعضاء البرلمان على الضغط الذى ينشأ بسبب هذا العرض على النقل وإدارة الأمن وحال الطعام . ولاشك أن وجود عدد هائل من الناس فى مدينة كبيرة قد يسبب كوارث كثيرة كالتى حدثت فى حادثة بولطن منذ شهرين . الواقع أنه من الواجب أن يقضى هذا العيد فى التفكير والصلاة من أجل السلم ، لا أن يقضى فى عرض جدير بأن يطلق عليه — على طريقة القرون الوسطى — رقصة الموت .

باريس تستعد للصيف

ينتظر فى هذا الصيف كما تقول الانباء الفرنسية أن تعرض خمسمائة من صور كبار المصورين الفرنسيين من القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر ، ويقام هذا المعرض فى القصر الصغير ، وذلك بمناسبة مؤتمر الصلح الذى يعقد فى قصر لوكسمبرج . وستبذل السلطات كل ما تستطيع كى تتخذ باريس مظهرها قبل الحرب ، وتكون الفنون عنصراً أساسياً فى هذه النهضة .

وتشترك المتاحف الباريسية فى شرف عرض

زهرة مجموعاتها الوطنية . وسيكون متحف اللوفر بطبيعة الحال هو المركز . وتجمع مجموعات القماش المصور النادر فى متحف الفن الحديث ، وتعرض فى متحف الاورانجرى الصور التى سرقها الألمان ثم أعيدت إلى فرنسا ، وفى متحف جى دى پوم تعرض صور المدرسة الفرنسية من عصر أصحاب مذهب اللمحة .

وستكون الصور التى تعرض فى القصر الصغير على نوعين : تلك التى تمثل الفن النبيل فتمثل الزارع والفرسان والقديسين وتلك التى تمثل الفن الظريف كصور الآلهات ونبات الغاب .

فالقسم الاول سيحتوى على صور لكلوى وشاردان وداڤيد وآنجر إلى دى لاكرواه وكوربيه ، والقسم الثانى سيحتوى على صور ساحرة من فونتنبلى وصور للبزيد وليبران وينتهى إلى ڤاتو وفراجونار .

ظهر حديثا

أرض البشر تأليف أنطوان دى سانت إكسوبرى ترجمة مصطفى كامل فوده
(دار الكاتب المصرى)

عند ما أخذ انطوان دى سانت إكسوبرى ينشر قصصه ، واتخذ حياة الطيران ، الطائرة ، وعيشة العاملين فى الطيارة موضوعا لهذه القصص ، انتقل بفن الطيران إلى عالم الأدب . والواقع أنه من الصعب خلق أدب يدور حول المخترعات الميكانيكية . فالأدب كالفن يقوم أولا على المشاعر والعواطف ثم يقوم على المؤثرات الطبيعية التى تحيط بنا وتتصل بحياتنا اتصالا لا يمكن تجاهله ، والعوامل الطبيعية هى جزء من المقدورات التى لا معدى للانسان عنها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها فى حياته ، لذلك كان تأثره بها شديداً ، وهو أشد فى الأزمنة الأقل حضارة . ولذلك كان الأدب الذى نشأ فى تلك الأزمنة شديد الاتصال بالطبيعة ، وهو فى الأزمنة الأخيرة ، بعد أن سيطر الانسان على العالم الطبيعى أقل اتصالا بالطبيعة ، ولكن الطبيعة خلقت فى كل وقت أدبا ، أو كان لها فيه أثر .

أما الآلات فلم تخلق أدبا ، أو يصعب أن تخلق أدبا . على أن سانت إكسوبرى أحب العمل الذى اتخذه مهنة وعمل فيه فأخرج أول قصص يعد فى مصاف القطع الأدبية عن الانسان وهو فى جو الطيارة ، حيث يستنشق ذلك الهواء النقى الذى يرق كلما ارتفع الانسان فى الجو .

فما هى قصة «أرض البشر» التى نقلها الاستاذ مصطفى كامل فوده اليوم ، وأخرجتها دار الكاتب المصرى ؟ إنها قصة أولئك القوم الذين يعملون على خطوط الطيران ، فينقلون الناس والأثقال كل ليلة من قطر قريب إلى قطر بعيد ، فهى قصة معيشتهم وانقطاعهم إلى عملهم ، وارتباطهم بالمواعيد ارتباطا أشبه بالأسر ، وركوبهم متن الجو ، حيث لا مساومة فى الأخطاء ، فأقل خطأ يرتكبه الطيار معناه الفناء والعدم ، أو الأبدية إن شئت لذلك اسما آخر .

وهى قصة الآلة التى اخترعها الانسان فى صلفه غير مكتف بأن يسيطر على جوانب الأرض التى جعلت له ولغيره من المخلوقات ، وأن ينفذ إلى أقصى جوانب المعمورة ، حتى لم يكد يترك السبيل لهذه المخلوقات لتعيش فى أى جهة من الجهات إلا إذا ذلت له من قيادها ، ونزلت عن حريتها ، وغير مكتف بأن يركب متن البحار حتى صار الآلاف من بنى البشر يعيشون فوق ظهر البحر لا يكادون يعرفون اليابسة ، وحتى كاد الانسان يسخر أحياء الماء لأوامره ، فهو الآن يريد السيطرة على طبقات الجو . وقد ذهب فى ذلك شوطاً بعيداً فى السنوات الأخيرة .

ولكن قصة «أرض البشر» وكنت أفضل تسميتها «أرض الرجال» أى الرجال المتازين بالصلابة والقوة ، وهى أحب صفات الرجولة ، إنما هى قصة أولئك المغامرين الأوائل الذين كانوا يطيرون فى آلات لم تبلغ بعد ما بلغته آلات الطيران الحالية من الاتقان . فالانسان فى هذه المرحلة لا يكون قد سيطر على وسائله

كل السيطرة ، بل هو مسير إلى مجاهل ، باذل نفسه فى سبيل نفع الانسانية ، أو ما يعتقد أن فيه نفعاً .

ولقد وفق الأستاذ مصطفى كامل فوده فى نقل هذه القصة كل التوفيق ؛ فاختيارها دليل على سلامة الذوق ؛ إذ أنها تدخل إلى الأدب العربى عنصراً من أحدث ما ظهر فى الأدب الأوربى وهو أدب الطيران ، كما أنه نقلها فى عبارة جميلة وأنيقة فيها كل مزايا المؤلف ومميزاته .

وقد نشرتها دار الكاتب المصرى فى طبعة لا تقل إتقاناً عن خير الطبعات الأوربية . ولا ريب عندى فى أن الدار ترمى إلى أن يكون إخراج الكتاب العربى فى مستوى الكتب الأوربية . وإنى لأرجو مخلصاً أن تنافسها فى ذلك دور النشر الأخرى ؛ فان تلك المنافسة تعود بالخير على الكتاب العربى ، وتوجد فناً جيلا جديداً كان إلى وقت قريب غير قائم .

الفن ومذاهبه فى النثر العربى تأليف الدكتور شوقى ضيف (مكتبة النهضة المصرية)

ليس عندى ريب فى أن الدكتور شوقى ضيف أسدى إلى القراء والأدباء أيضاً ، يداً بتأليفه هذا البحث الطريف بعد أن ألف كتابه فى « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ؛ فان هذه البحوث ذات قيمة خاصة فى هذه الأيام التى ترى نهضة فى التأليف ليس لها مثيل فى الأدب العربى منذ مئات السنين ، وهو بهذا البحث يذلل للقارئ العصرى ، وللمؤلف العصرى دراسة النثر العربى فى أيام تراث الأجداد .

ولا ريب فى أن الشعر العربى قد ظفر بالعناية والبحث منذ قديم الزمن ، وبعض الكتب التى وضعت فى نقد الشعر فى زمن ازدهار الحضارة العربية ، لا يزال يقرأ حتى الآن ، ولا يزال من السهل على الكاتب المعاصر دراسة الآراء القديمة فى الشعر . أما البحوث فى النثر فقليلة لا تغنى ، وهى فوق ذلك عسيرة على القارئ المعاصر ؛ لذلك كان كتاب الدكتور شوقى ضيف هدية ثمينة للمكتبة العربية .

وهو على ما فيه من بحوث وآراء جديدة فى عدة مواضع منه قد قسم وبوب خير تبويب ، فهو يقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام : مذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ومذهب التصنع . ثم يبتدئ بوصف مذهب الصنعة ثم يطبقه على النثر الجاهلى ثم النثر فى الصدر الاسلامى ثم النثر العباسى فيتناول زعماء النثر فى كل من هذه العصور واصفا حياتهم ، مبينا مميزات نثرهم ، فيتكلم عن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ .

ثم يعود إلى مذهب التصنيع فيصفه ويبين أثره فى الحياة العربية ودواوين الخلافة العباسية والامارات الفارسية ، ويتكلم عن ابن العميد وابن عباد وأبى إسحاق الصابى ، ثم يتكلم عن الخوارزمى وبديع الزمان وقابوس ابن وشمكير .

ثم يأخذ فى مذهب التصنع واصفاً حياة أبى العلاء ومؤلفاته والحريرى وتعقيداته والحصكفى .

وفى قسم آخر يتكلم عن مذاهب النثر فى بلدين إسلاميين لهما شخصية قائمة بذاتها وهما الأندلس ومصر .

وإنا لنعتقد أن هذا الكتاب جدير بأن يجد مكانا فى مكتبة كل أديب أو متأدب .

وكنا نود أن يكون إخراج الكتاب أنيقاً جديراً بأهمية موضوعه ، فانه مما يؤسف له أن أخرج فى حجم كبير متعب بحيث لا يسهل حمله لقراءته ، مع أن أكثر الناس يقتطعون من أوقات غدوهم ورواحهم للعمل ، أوقاتاً للقراءة ، فيستفيدون من هذه الأوقات . وكان هذا الكتاب من أجدر الكتب بأن يكون دائماً مع راغبيه فى غدوهم ورواحهم .

اللقاء تأليف ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر ببيروت)

عند ما ظهرت منذ عشرات السنين تلك المجموعة من النظم التى سميت « شعراء العرب فى القرن العشرين » اتجهت أنظار العالم العربى إلى ذلك الأدب الوليد الذى نشأ فى بلاد غريبة هى أمريكا بين نخبة من الشبان الذين هاجروا من أرض لبنان فى سبيل ابتغاء الرزق ، فلم يثنهم جهدهم المادى عن الاتصال الروحى ببنى وطنهم . ونفخت الحياة الجديدة والآفاق الواسعة التى رأوها فيهم روحاً جديدة كانت نسمة حياة هبت على التقاليد الراكدة فأنعشتها ، ومازالت تعمل على إنعاشها .

وقد تلألأ فى طليعة هؤلاء المجاهدين اسم جبران خليل جبران ، وأقبل الشباب فى أقطار البلاد العربية ينهلون من أدبه . وثمة اسم آخر يقترن بهذه النهضة الأدبية هو اسم ميخائيل نعيمة الذى نشر وقتئذ كتابه « الغربال » وهو مجموعة مقالات فى النقد ولكنها كتبت بأسلوب جديد وبروح جديدة ، وتناولت موضوعات شبيهة مما يكتب فيها كتاب الغرب ، فكانت نبراساً للشباب العربى فى تناول موضوعات النقد .

وهو اليوم ينشر قصة « اللقاء » وليست هى الأولى بين ما نقرأ له من قصص ، فقد قرأنا له « الآباء والأبناء » من قبل .

وهاتان القصتان من كاتب فى مقدرة ميخائيل نعيمة لا يمكن إلا أن تكونا جديرتين بالقراءة . ولكننا نعتقد أن المقام الأول لتفوق الأستاذ ميخائيل نعيمة هو فى النقد قبل أن يكون فى القصص . وإذا كان قد أحسن كل الاحسان فى كتابه عن « جبران خليل جبران » فذلك لأن كتابة حياة شخص تتطلب قوة فى النقد أكثر مما تتطلب مقدرة فى الرواية .

ولسنا نريد أن نقول إن قصة « اللقاء » خالية مما يجذب القارئ ، فحسبه أنه لا يستطيع أن يتركها قبل إتمامها ، وإنما نريد أن نأخذ عليها شيئاً من الاغراق فى الخيال ، وقد نأخذ عليها كذلك أنه ليس بين أشخاص القصة من هو جدير بالحب أو بالعطف من القارئ ، حتى تلك الفتاة التى سحرت بألحان كنجة ولم تقم من نومتها إلا إلى القبر .

الأوثان بقلم ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر ببيروت)

أما كتاب « الأوثان » فهو تحفة من تحف الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو مجموعة آراء له فى الأوثان التى يعبدها العالم الحديث . فقد تكلم عن المال والقوة والسلطان والرأى العام والقومية والكلمة السوداء والعلم ، كل ذلك فى أسلوب طريف وآراء مبتكرة .

ونحب ألا نترك هذين الكتابين دون أن ننوه بالمجهود الظاهر فى إتقان الطباعة والثوب الجميل التى ظهرت فيه قصة « اللقاء » بصفة خاصة وما فيها من صور جميلة متقنة .

التاريخ الانجليزى تأليف ا . ل . رواس ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة
(مكتبة النهضة)

قد تكون العناية بالاطلاع على تاريخ انجلترا بين جمهور القارئين فى بلاد الشرق أقل من العناية بتاريخ أمم كبيرة أخرى مثل فرنسا . وربما كان لدى القراء بعض العذر ، ففرنسا دولة تعيش قريبة من الدول الشرقية وعلى شواطئ بحر واحد ، وفرنسا تحتل قسما من أهم أقسام القارة الاوربية ، وفى تاريخها حادث واحد كان له رجة عالمية ولا يزال دويه يتردد فى أنحاء المعمورة ويؤثر فى الاجيال المتعاقبة من بنى البشر ، هذا الحادث هو الثورة الفرنسية . ولقد تدخلت فرنسا فى حياة الشرق فى الأزمان الحديثة تدخلا كبيراً وأصاب الشرق منها خير قليل وشر كثير . على أننا لو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن انجلترا أكثر تدخلا فى أمور الشرق والعالم ، وشرها فى العالم أكبر ، فكان تاريخها جديراً بالعناية والدرس .

والواقع أن تاريخ إنجلترا ، إذا كان للتاريخ قيمة ، حافل بسلسلة غير منقطعة من الحوادث ، يستطيع منها الباحث أن يقف على معلومات فى الاتجاه الذى يبحث فيه يصعب أن يعثر على مثلها فى تاريخ الامم الأخرى .

ولعل تكييف تاريخها ناشئ من مركزها الطبيعى كجزيرة منفصلة قد تستطيع أن تتلقى تأثير الدول الأوربية الأخرى إذا رغبت فى ذلك وأن تؤثر فى دول القارة الاوربية إذا ما أرادت .

ولقد أراد المجلس البريطانى ، وهو الهيئة التى أنشئت فى السنوات العشر الأخيرة لنشر الثقافة الانجليزية ، أن يصدر كتابا باللغة الانجليزية من قلم مؤرخ معروف عن روح التاريخ الانجليزى ، فكان كتاب الاستاذ رواس ، وهو الذى رأى الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الاول أن ينقله إلى اللغة العربية ، ليوفى ، كما قال فى مقدمته ، ديناً لانجلترا عليه هو دين تثقفه فى جامعاتها .

فالكتاب إذن فى ثوبه العربى خير مقدمة لمعرفة لاتاريخ انجلترا ، وإنما اللمحات من هذا التاريخ الذى لا يمكن أن يستوعبه هذا الكتاب الصغير . ولعل مؤلفه بالغ فى الاختصار ، أو لعل مؤلفه بالغ فى محاولة إظهار وجوه مختلفة من نواحى التاريخ الانجليزى ومميزات كل عصر من العصور المختلفة ، فأهمل النواحى الأخرى . فتاريخ انجلترا كما أشرنا يمكن أن يدرس من وجهات كثيرة متعددة ، وتوجد فى كل ناحية من هذه النواحى سلسلة غير منقطعة من الآثار والمستندات والوثائق تمتد إلى آلاف السنين . فقد تريد أن تدرس تجانس الشعوب التى تكون منها سكان الجزيرة واختلافاتها ، أو انجلترا فى القرون الوسطى وتأثير النظام الاقطاعى فيها ، أو استتباب الأنظمة الدستورية ، وتاريخ انجلترا خير تاريخ يدرس من هذه الجهة ، أو توسع انجلترا فيما وراء البحار ومحاولتها السيطرة على العالم ، أو تحولها الصناعى أو نمو الأدب والعلم فيها ، كل هذه الامور جديرة بالدرس ، وفى تاريخ انجلترا مجال متسع متواصل .

إذن نحن نرحب بنقل هذا الكتاب للغة العربية أكبر ترحيب وإن كان قطرة فى محيط من الدراسات الشيقة المفيدة . وقد أسدى الاستاذ يداً لقراء العربية بنقله ، بقدر ما أوفى بدينه . ولا ريب فى أن الثبت الذى وضعه تلميذه الاستاذ أحمد عيسى للرجوع إلى مواضع

الكتاب مفيد . وحبذا لو أضاف المترجم القائمة المختصرة من الكتب التى يرجع إليها والموجودة فى الكتاب نفسه . ولقد أشار المترجم فى مقدمته بأنه فسر بعض المواضع التى ظن أنها تكون غامضة على القراء بدلا من أن ينقلها إلى اللغة العربية . ونحن لا نوافقه على هذه الطريقة ، بل نرى أنه ليس من حق المترجم أن يفعل ذلك ، وعليه أن يحترم الأصل ويضع التفسير الذى يراه فى حاشية بسيطة فى ذيل الصفحة .

حسن محمود

الحكومة المحلية فى السودان للأستاذ محمد احمد محجوب (مطبعة مصطفى البابى الحلبى)

هذا كتاب وضع فى سنة ١٩٤٤ ، وطبع فى سنة ١٩٤٥ ، وألقى إلى فى سنة ١٩٤٦ ، وإنما ذكرت هذه التواريخ المتعاقبة لما لها من الدلالة فى مثل الموضوع الذى يعالجه هذا الكتاب ، وهو موضوع يشغل بال المصريين والسودانيين على السواء فى الوقت الحاضر ، بل لعله الموضوع الأول الذى يشغل بال المصريين والسودانيين فى الوقت الحاضر ؛ لأنه يتناول طرفا مهما من قضية السودان التى تدور بشأنها المفاوضة فى الوقت الحاضر بين مصر وبريطانيا ، أو التى نأمل أن تدور بشأنها المفاوضة ؛ فهو إذن كتاب يظهر فى أوانه ، لأنه يلقى ضوءاً على بعض الحقائق ، أو بعض الأباطيل ، التى ينبغى أن يلم بها المفاوضون المصريون ، أو المصريون عامة ، حين تتناول مباحثهم نظام الحكم فى السودان إن قدر لهذا الموضوع أن يكون موضع البحث والمفاوضات فى هذا الأوان !

أما مؤلف هذا الكتاب فهو سودانى فيما يبدو ، وأحسبه من أهل الجنوب ، عرفت ذلك من طريقته فى عرض الموضوع ، وأسلوبه فى البحث ، ومنهجه فى الاستدلال ؛ وثمة استنتاج آخر وصلت إليه من طريقته وأسلوبه ومنهجه ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب موظف فى حكومة السودان . . . وحسبى هذا تعريفا بالمؤلف ؛ لأنه كل ما بلغت إليه من المعرفة بالمؤلف ؛ وقد كنت فى غنى عن ذكر ذلك لولا أن له هو أيضا دلالته على موضوع الكتاب !

أما موضوع الكتاب فهو الحكومة المحلية فى السودان كما يدل عليه عنوانه ، وقد بدأه المؤلف بمقدمة يقول فى فاتحتها :

« إن الاهتمام بشئون الحكومة المحلية فى السودان فى السنوات الأخيرة ، وصدور القوانين واللوائح الخاصة بتنظيم عمل الحكومة المحلية وسلطاتها وواجباتها ، وإنشاء المجالس ذات الصبغة التمثيلية والسلطات التنفيذية ، جعلت اهتمام الناس بأمر الحكم « الذاتى » المحلى يتزايد يوما بعد يوم » .

ويمضى فى مقدمته ذاكرا الدوافع التى حدته إلى تأليف هذا الكتاب ، ونهجه فى البحث ، وطريقته فى تناول الموضوع ، ثم يقول :

« إنه عمل متواضع أتقدم به كلبنة فى أساس نهضتنا القومية وجهادنا فى سبيل ترقية بلادنا ونيل استقلالنا كشعب يحكم نفسه بنفسه . . . وإنى لأتمنى مخلصا أن يحفل به أبناء مصر حكومة وشعبا وأن يوليه إخواننا فى الشرق العربى عنايتهم . . . »

فاذا فرغ المؤلف من مقدمته مضى فى بحثه فوصف البلاد وسكانها ، ثم استعرض تاريخها

وتطور نظام الحكم فيها ، ثم انتقل إلى نظام الحكومة المحلية فى السودان ، وعقد فصلا للتعريف بنظام الحكومة المحلية فى انجلترا ، وقارن بينه وبين النظم المحلية فى بلاد أخرى ، ثم عرض صورة للحكومة المحلية فى السودان كما يود أن تكون . . .

تلك هى خلاصة مباحث الكتاب ، لم يعرض فيها المؤلف لشىء من حديث السياسة العليا بقول صريح ، وإن لم يغفل عن الايحاء والتلميح والاستخفاء فى كثير من المواضع وراء الضباب ؛ وهو مسلك لعل له ما يفسره من موظف فى حكومة السودان الانجليزى ... المصرى ! وفى الوقت الحاضر !

ولكنه على كل حال كتاب فى أوانه .

بين العلم والأدب للأستاذ قدرى حافظ طوقان (المطبعة التجارية بالقدس)

إجمع إلى عنوان هذا الكتاب اسم مؤلفه تعرف موضوعه ؛ فهذا الكتاب عنوانه « بين العلم والأدب » ومؤلفه هو الاستاذ قدرى حافظ طوقان ، وهو أديب من أدبائنا القلائل الذين جمعوا بين العلم والأدب ، فكان إنتاجهم الأدبى بابا من أبواب العلم ، وكانت مباحثهم العلمية فناً من فنون الأدب ؛ وما أقل أهل البيان فى العلماء ، وأقل منهم الذين يعنون بالعلم ويتعمقون نظرياته من أهل الأدب !

هل كان ذلك لأن بين العلم والأدب عداوة فلا يجتمعان ؟ فكيف كان فى الامة العربية أمثال الخوارزمى ، والبيرونى ، وابن سينا ، وابن الهيثم من أهل العلم وذوى البيان ؛ وكيف كان فيهم من مشاهير هذا العصر أمثال فلان وفلان وقدرى حافظ طوقان ؟

وهذا الكتاب الذى نعرضه اليوم هو برهان جديد على أن العلم والأدب قد يلتقيان فيكون كل منهما تماما لصاحبه وزينة له وزيادة فى معناه ؛ بل هو برهان — إلى براهين كثيرة — على أن العالم الذى لايحسن البيان ليس حقيقاً بصفته بين أهل العلم ، وعلى أن الاديب الذى لم يأخذ بحظه من العلم هو أديب ناقص الاداة فارغ المعنى سطحى التفكير ؛ فقد تغلغل العلم اليوم فى كل ناحية من نواحى الحياة وكشف عن عللها المستورة وأبان عن غاياتها وما تنتهى إليه . فمن أين يبلغ الأديب منزلته فى التعبير عن صور الحياة إذا لم يلتمس من العلم أسبابه للنفاذ إلى عللها والاستشراف إلى غاياتها القريبة أو البعيدة ؟

وإنما كان توهم الخلاف بين العلم والأدب نتيجة لتلك الكتب الأعجمية التى يرمينا بها بعض الباحثين فى العلم فى لغة لا يكاد يسيغها من القراء غير أهل التخصص المنقطعين لفنها ، بل لا يكاد يسيغها المتخصصون المنقطعون لفنها إلا لأن عندهم من مقدمات العلم ما يتيح لهم أن « أن يستنتجوا » ما يريد كاتبها أن يقول ؛ ثم نتيجة لبعض الكتابات الأدبية التى كان يلتزمها كتاب العربية فى جيل مضى ويصرفون هممهم فى إنشائها وتحبيرها إلى العناية بصقل اللفظ ورنين المقاطع ومحسنات البديع ثم لاشىء وراء هذه الموسيقى وذلك الرنين وتلك الزخارف مما يصح أن يسمى أدبا . من تلك الكتب الأعجمية لبعض الباحثين فى العلم ، ومن هذه الكتابات التى لا تصور حياة ولا تصف حقيقة ولا تنفذ إلى أعماق نفس إنسان ، نشأ توهم الخلاف بين العلم والأدب وليس ثمة خلاف .

ومعذرة إلى القارئ ، فلعلى قد بعدت عما قصدت إليه حين هممت أن أعرض هذا الكتاب ، ولكن فى بعض ماقدمت من بيان

الصلة بين العلم والأدب ماقد يغنى عن التعريف بكتاب الأستاذ طوقان ، فما هو إلا فصل من ذلك الباب ، وعنوان من ذلك الكتاب .

بضع وثلاثون مقالة أنشأها كاتبها فى فترات متباعدة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٤٥ تناول فيها بعض مباحث العلم بأسلوب الأديب وعقل العالم مع سلامة اللغة ودقة التعبير ، ونشرها فى مناسباتها فى مجلات مصر والشام أو أذاعها من محطة الشرق الادنى ثم جمعها بين دفتى هذا الكتاب .

هو كتاب قديم إذن وإن لم تخرجه المطبعة إلا منذ بضعة أشهر ، ولكنه بطرافة موضوعاته وأسلوب كاتبه سيظل جديداً فى يد كل قارئ من قرائه فى كل بلد من بلاد العربية التى عرفت كاتبه الأديب العالم .

عصر المنصور الموحدى للأستاذ محمد الرشيد ملين (المطبعة المحمدية بالمغرب)

هذا الكتاب — كما يقول مهديه — هو أحد المؤلفات التى أخرجتها المطبعة المغربية فى هذه السنة ، وهو أثر من آثار النشاط الفكرى بالمغرب . وفى المغرب اليوم نشاط فكرى يرعاه بتشجيعه وعنايته صاحب الجلالة السلطان محمد بن يوسف ، وفى مطبعته المحمدية أذن جلالته بطبع هذا الكتاب ، وعن دار التأليف والنشر السلطانية كانت إذاعته .

وهو حلقة أولى من سلسلة بحوث يقصد منها إطلاع شباب البلاد العربية على المستوى الفائق الذى بلغته المدنية بالمغرب فى عصوره الذهبية ، متدرجة مع التاريخ حتى تبلغ عصر السلطان محمد بن يوسف الجالس على عرش المغرب اليوم .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الاستاذ محمد الرشيد ملين مدير المطبعة المحمدية السلطانية . وأما موضوعه فهو عصر المنصور يعقوب بن عبد المؤمن سلطان الموحدين بالمغرب والأندلس . وقد تولى المنصور عرش الموحدين بعد أبيه يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠ الهجرية ، ونزل عن العرش طائعاً لولده محمد الناصر سنة ٥٩٥ وسنه يومئذ ٤٨ سنة فانقطع للعلم ودراسة الفلسفة وصاحبه يومئذ الفيلسوف ابن رشد ، وكان عصره من العصور الذهبية فى المغرب والأندلس .

وقد قسم المؤلف كتابه بعد المقدمة ثلاثة أقسام :

القسم الاول : الحياة السياسية ، وفيه خمسة فصول ، بسط فيها المؤلف حروب المنصور وفتوحه فى المغرب وفى أسبانيا .

والقسم الثانى : الحياة الفكرية ، وفيه أربعة فصول ، بسط فيها بعض مظاهر الثقافة فى عصر المنصور ، وتحدث عن اللغة والنحو والأدب ، والشعر والشعراء ، والعلم والعلماء فى ذلك العصر .

القسم الثالث : الحياة الدينية .

ثم ألحق بذلك خاتمة فى بضع صفحات تصور آخر حياة المنصور .

وقد عنى المؤلف بذكر مصادر بحثه ، كما أثبت فى آخره طائفة من الفهارس الوافية للموضوعات والأعلام وأسماء المدن ، فجاء وافياً بحاجة كل قارئ يريد أن يقف على تاريخ هذه الحقبة من تاريخ المغرب فى العدوتين .

وأسلوب المؤلف أدبى رشيق يمتع قارئه ويشوقه ، ولغته سائغة عذبة لا يكاد القارئ يشعر معها بمرور الزمن .

على أن أحسن ما ينبغي أن أنوه به حين أذكر هذا الكتاب، هو دقة المؤلف في البحث وحرصه على التحرى، وهو إلى ذلك مغربى يؤرخ حقبه من تاريخ بلاده، فهو قريب من مصادر البحث ومقيم في جوه؛ فلا عجب أن يكون كتابه — كما أراه — شيئاً جديداً من تاريخ تلك البلاد ينبغي أن يعرفه كل عربى.

همزات الشياطين للأستاذ عبد الحميد جودة السحار (مطبعة مكتبة مصر)

هذا كتاب قصص، أو هو كتاب فى القصة؛ فمن شاء فليتخذه لونا من ألوان الانشاء الأدبى يستمتع بما ساق مؤلفه من أقاصيص شائقة ليست بعيدة مما نراه حولنا من صور الحياة أو نحسه فى ذات أنفسنا من صور العاطفة، ومن شاء فليتخذه كتابا يعرف فيه من أوليات فن القصة ما يريد أن يعرف، ليكون قاصا يلتزم القاعدة فى هذا الفن كما يريدها مؤلف هذا الكتاب، أو ليكون ناقداً يزن ما يقرأ من قصص المؤلفين بميزانه.

فقد صدر المؤلف كتابه ببحث مبسوط جعل عنوانه «بين الرواية والأقصوصة» تحدث فيه عن معنى الرواية فى اعتبار أهل ذلك الفن، والشروط التى يرى أن تتوافر فيها، ومراحلها من حيث تبدأ إلى حيث تنتهى، ثم عن الفرق بينها وبين الأقصوصة، وغير ذلك مما قد يحتاج إليه القاص، أو الناقد.

ثم أردف هذا البحث بطائفة من الأقاصيص لعله كان موفقا حين اختار أن يكون عنوانها على الجملة «همزات الشياطين» فكلها تصوير لبعض ما يصطرع فى عواطف الناس من موازع الخير والشر وما يتجاذبهم من دوافع الهوى وعوامل الفضيلة. فالقصة الأولى وعنوانها «وسوسة الشيطان» تصور شابا قد نشأ على الخير والفضيلة، ثم بدت فى حياته امرأة فسولت له نفسه ما سولت حتى أزلته ثم فاء إلى الندم والتوبة.

والقصة الثانية عنوانها «على القبر» وفيها يصف كيف يتغلب الشيطان على عوامل الموعظة والعبرة فينفذ إلى سرائر المشيعين يداعب أمانيهم ويوقظ شهواتهم وواعظ الموت لا يزال ماثلا أمام أعينهم!

وعلى هذا النسق ترى صورا شتى من همزات الشياطين فى كل ما تقرأ من الأقاصيص فى ذلك الكتاب، وعدتها اثنتا عشرة أقصوصة.

وقد يحس القارىء فى بعض ما يقرأ من هذه الأقاصيص أن المؤلف قد أسرف فى التحليل إسرافا فيه بعض الملالة، وبالغ فى وصف بعض البديهيات مبالغة لم تكن إليها حاجة، ولكن ذلك لا يصرف القارىء عن متابعة الموضوع بشوق ولذة.

وقد يحلو لبعض القراء أن يحاول تطبيق ما قرأ فى صدر الكتاب عن فن القصة على ما يطالع بعد ذلك من أقاصيص المؤلف فلا تستقيم له القاعدة ولا يستبين سبيل القياس، ولكن ذلك لا ينقص كثيراً من قيمة البحث الفنى الذى صدر به المؤلف كتابه، ولا يغض من قدره كقاص يحاول فنا من فنون الأدب لا يخضع دائماً للقواعد الموضوعة ولا يتقيد بالتقاليد!

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

بركة الوالدين !

فى عدد مايو الماضى من مجلة « الاديب » — بيروت — مقال بقلم الدكتور نبيه أمين فارس عنوانه « رسالة الشباب العربى » يقول فيه :

« يعيش الشباب العربى اليوم فى بيئة تعودت النظر إلى الماضى والتغنى به دون أن يستفيد من وحى التاريخ شيئاً . وهو أشبه بجندى تجاوز السن فأحيل إلى التقاعد : لا عمل له سوى التحدث عن المعارك الحربية التى خاض غمارها ، وعرض الأوسمة التى نالها ، وانتظار الأجل ! وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ، جميع حياته وراءه وليس أمامه إلا القبر . فعلى الشباب العربى أن يولى وجهه نحو المستقبل ، وأن يعقد النية على أن يكون مستقبل العرب خيراً من ماضيهم ، وإذا اقتضت الحال أن يخرج على الجيل القديم فى بلده فليفعل ؛ لأن بركة الأجيال القادمة خير من بركة الوالدين . . . »

تعريب الأدب العربى !

ويمضى الدكتور نبيه فى مقاله ذاك عن رسالة الشباب العربى حتى ينتهى إلى أن يقول :

« لقد حان الوقت لتعريب أدبنا ولانشاء رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية ، ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانو دى برجراك والبؤساء وغيرها من روايات الأجانب . ومن الصعب أن نرتجى من نشء لم يترعرع إلا على مثل هذه الروايات أن يشب على عقيدة عربية راسخة . ومن واجبنا أن نهيئ للنشء الجديد رواية من طينة عربية ... ويا ليت كتابنا وراء الترجمة والنقل يعنون بالرواية العربية ، لاسيما تلك التى تنسج لحمتها من حياة العرب فى هذا العصر . وتاريخ العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحى والالهام ، ينتظر مصطفى من أرباب الاقلام ليحطم الاصنام ، ويحرر أدب قومه من ربقة الأجانب وتفكير الأعجام ! »

كيف يكتب أندريه جيد . . .

زار الأديب الفرنسى الكبير أندريه جيد لبنان ، فاحتفت به الأوساط الأدبية تقديراً لمكانته فى الأدب العالمى . وقد طلبت إليه اسرة مجلة « الادب الجديد » الناشئة فى بيروت أن يصف لقرائها طريقته فى الكتابة .

فكتب إليها يقول :

« حبذا لو تنبسط فكرتى . . .

« أبقى فى غرفتى دون أن أعمل شيئاً وبودى أن أعمل كل شىء . . .

« أملك عشرين كتاباً ابتدأت فى مطالعتها جميعا وما انتهيت من أحدها . . . أقرأ ثلاثة أسطر ثم أفكر . . .

« فى غرفتى سرير واطئ وطاولة صغيرة مربعة وكرسى . . .

« أتخيل نائماً ، وأؤلف ماشيا ، ثم أكتب واقفاً ، وأنقل ما كتبته فى أوراق جالساً . . .

« الخيال عندى لا يستبق الفكرة فهو بدونها لا يعطى شيئا ، بينما الفكرة هى كل شىء . . . وكثيراً ما تتأخر تلك الفكرة فعلينا حينئذ أن نتمسك بالصبر اللانهائى ، لانه يجب ألا ننتزعها انتزاعاً بل ندعها تأتى مختارة . . .

« فالفكرة المفضلة تأتى عند ما يختفى غيرها .

« فى بعض الاحيان أنتظر مجيئها ساعة ، فان تخلفت أكون قد أضعت ساعة من الزمن .

« الأشياء القائمة بالجمال هى التى يوحيها الجنون ويكتبها العقل . . .

« يجب البقاء بين الاثنين : قريبين من الجنون عند ما نحلم ، ومن العقل عند ما نكتب ! »

روحية الشرق . . .

ويتحدث الدكتور قسطنطين زريق عن « علل التنظيم » فى الجزء السابع من السنة الثانية لمجلة « عالم الغد » التى تصدر فى بغداد فيجعل أول عوامل التنظيم فى الانسان هو العقل ، ولكن الشخصية الانسانية ليست عقلا كلها ، بل إنها تضم إلى جانب العقل عنصراً آخر ليس فى جوهره منظماً وإنما هو الذى يولد الدافع للتنظيم . هذا العنصر الذى يسمونه « الروح » . وحين ينتهى الكاتب من تحديد هذين العنصرين من عناصر التنظيم يقول :

« وقد يخطر للبعض أننا إذا كنا فى مجتمعنا العربى مقصرين فى العنصر العقلى من العنصرين الانسانيين اللذين يخلقان التنظيم ، فليست الحال كذلك فيما يختص بالعنصر الثانى ، أى الروح ؛ كيف لا وقد اعتدنا أن نصف أنفسنا كعرب أو كشرقيين بأننا أغنياء بالفيضان الروحى ، وأن نقابل روحيتنا هذه بمادية الغرب . على أننا إذا أنعمنا النظر وتفحصنا حالنا الحاضرة باخلاص وتجرد لم نستطع أن نقر لانفسنا بهذا الفضل . لقد عرف أجدادنا الروحية العميقة ، وأنشأوا بما بعثت فيهم من قوى بناء شامخاً وحضارة مجيدة . أما اليوم فانك لن تجد لهذه الروحية فينا أثراً باقياً تستطيع الوقوف عنده ، بل ترانا بالعكس غرقى فى خضم من المادية واسع عميق ، وفى نوع من العيش الفردى والتعامل الاجتماعى هو أبعد ما يكون عن خلوص الروح ونقاوة النفس . وأعظم دليل على ما أقول تأخرنا الشائن فى شتى الميادين ، هذا التأخر الذى ما كان ليسطو علينا ويمنعنا عن كل حيوية منتجة لو أننا نعمنا بنعمة الروح واهتدينا بقبسها الوضاء . فلنتضع إذن ، ولنسع إلى أن ننمى فى نفوسنا الخلق الكريم والجد ، وتقدير المسئولية ، وسواها من الصفات الروحية ، التى بدونها لا يكون أى تنظيم ، بل لا يكون أى خلق ، إذ ما التنظيم فى النهاية سوى نوع من الخلق وشكل من الابداع . »

السعادة فن

وفى العدد الثانى من مجلة « البطحاء » البغدادية يحاول الأستاذ دانيال يوسف أن يتحدث عن « السعادة والحياة » فيسائل أين يجد الانسان السعادة ؟ ولكنه قبل أن يجد جواب سؤاله يعود فيسأل : ماهى السعادة نفسها ؟ ويتردد بين السؤالين فى حيرة ينتهى بها إلى أن يقول : « السعادة فن : ليست السعادة فيما تملك ، او ما ترى ، أو ما يحيط بنا ؛ وإنما هى فى كيف نحسن استعمال ما نملكه ، ونحس بالجمال فيما نرى ، ونحظى بما يحيط بنا ؛ فقد يدخل أثنان حديقة ويرى كل منهما وردة جميلة على غصن شجرة صغيرة فيهم أحدهما ليقطفها فيخزه شوكها ، فيقول : ما أقسى الدنيا وما أتعسها حتى الورد قد أحيط بالشوك فلا نستمتع به ! وأما الثانى فيقول : لله در الحياة ! ما أبهجها وأحلاها ، فحتى الشوك قد وضع بينه الورد !

« وقد روى أن أحدهم مر بكلب ملقى فى الطريق رث الهيئة قبيح الشكل ، وكان جميع المارة يشمئزون منه ، فنظر إليه وقال : ما أشد بياض أسنانه ! »

بين جيلين

ويعيب الأديب مارون عبود فى عدد ٣٠ أبريل من مجلة « الطريق » — بيروت — على الأدباء الشيوخ فى لبنان جمودهم بعد نشاط وفتورهم بعد حرارة ، ويعيب على أدباء الشباب ثمة عجزهم وضعف أداتهم وعدم إحسانهم استعمال « الكلمة » فى موضعها من الكلام ، فيقول :

« إننا لمقبلون على سنوات عجاف ، على قحط وجدب أدبيين ؛ فالمحاربون القدماء ألقوا سلاحهم ، والنازلون إلى الساحة فى أيديهم مخاريق لاعبين : ألفاظ معدودات ملمومات من هنا وهناك يرون كل الشعر فيها ، تعابير وألفاظ لا تتجاوز حبات المسبحة ، وهم يتسلون بها مستخبرين آلهة الشعر ، والفن لا يقوم على الخبرة ...

« أما الجيل الطالع — رجال اليوم وغد — فيتخبطون هم وأساتذتهم فى ظلمات المناهج ، يتعلمون ليحملوا شهادات لا ليسدوا فراغا ستتركه الباقية المناضلة حتى الساعة ، ولولا هم لخلت الساحة . يتعلم هؤلاء الناشئون ليجعلوا من شهاداتهم مفاتيح لأبواب « السراى » لا أسواراً تحمى ثقافتنا وتنميها ؛ فماذا يحل بنا متى خلت الجبهة من الأبطال ؟ إن الغد قاتم الأعماق خاوى المخترق : المشاتل خالية من الغرسات التى يعدها البستانى لتحل محل الشجرات التى تنقرض ! »

ويمضى الكاتب فيما يصف من إنتاج أدباء الجيلين ، وفى المجاعة الأدبية التى يتوقع أن تحل بلبنان ، ثم ينشئ حواراً لطيفاً بينه وبين « الكلمة » التى نبا بها موضعها فى كلام أولئك الأدباء ، فلا هم وضعوها حيث أرادت اللغة أن تبين عن معناها صريحا ولا هى كشفت عما يريدون لها من معنى يقسرونها على أدائه .

الأبوة حرفة !

وفى عدد أبريل من مجلة « المعلم الجديد » التى تصدرها وزارة المعارف العراقية بحث للأستاذ سيلى Seelye ترجمة الأستاذ محمد عزيز، يتحدث فيه عن « سياسة الطفل فى مملكة البيت » وعن « تشجيع اللعب » و « المكافأة والعقاب » و « عوامل الافساد » و « تعويد الصدق » و « التدريب على الاستقلال » فيقول عما يسميه « البيت العلمى » :

« من أشد الأماكن افتقارا إلى مثل هذا العلم هو البيت، ففيه الرجال والنساء، وفيه الكبار والصغار، وينبغى لهؤلاء جميعاً أن يتعلموا كيف يعيشون معا فى هناء وتعاون. والكثير من البيوت لا ينتفع بالعلم فى هذا الشأن، على حين أن من الميسور لكل بيت أن يقتبس من العلم ما يشاء ...

« وفى البيت العلمى يعنى بالأطفال خير العناية، وما الطفل إلا مخلوق صغير عاجز يمكن لمستقبله أن يصلح أو يشوه تبعا لضروب العناية التى يتلقاها صغيرا. وقد تحب الأمهات أطفالهن بالغريزة، ولكنهن لا يفقهن شيئاً بالغريزة عن علم العناية بالطفل ...

« المحاماة حرفة، والطب حرفة، والرأى الحديث هو أن الأبوة أو الأمومة حرفة أيضاً ... الأمهات العصريات النبيهات يدرسن حرفتهن، والآباء العصريون الأذكياء يدرسون حرفتهم، وإن المجلات لتنتشر، والجمعيات لتؤسس ليزداد الوالدان علما بصناعتهما، وبهذه الصورة ينساب العلم إلى البيوت بلا انقطاع ... »

دراسات عن المسرح العربى

توالى مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس « دراسات عن المسرح العربى » بقلم الأديب التونسى الأستاذ عثمان الكعاك. وفى عدد فبراير من هذه المجلة يتحدث الأستاذ الكعاك عن تاريخ المسرح المصرى الحديث وعن تمثيليات المؤلفين المصريين والقائمين على فن التمثيل فى مصر، فيتحدث عن المرحوم محمد تيمور، وعن جورج أبيض، وزكى طليمات وروايات شوقى، ومسرحيات توفيق الحكيم ومترجمات خليل مطران، وعاميات ابراهيم رمزى، كما يتحدث عن مجهود وزارة المعارف المصرية فيقول :

« إن مباريات القطع التمثيلية التى نظمتها وزارة المعارف المصرية بين سنتى ١٩٢٥، ١٩٣٢ قد أخفقت إخفاقا تاما، فمن ذلك أن القطعة المسرحية التى فازت بالجائزة الأولى من الوزارة سنة ١٩٣٢ وهى مسرحية « سميرة » تأليف رشاد حافظ، قد رفض تمثيلها عامة مديرى الفرق التمثيلية، والمؤلفون الذين ظفروا بالجوائز الثانية لم يكونوا أسعد حظا ... »

ويتحدث الكاتب عن معهد التمثيل الذى أنشأته وزارة المعارف فى وقت ما ثم أغلقه حلمى عيسى باشا لاعتبارات تتصل بالتقاليد. وهو بحث ممتع طريف فيه رواية المؤرخ ورأى الباحث المدقق .


قصص من الشرق
حكايات فارسية
كتاب يحمل الى قراء العربية عبيرا رقيقا حسن الموقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة
يحيى الخشاب
حكايات فارسية
دار الكاتب المصرى
٢٠
البريد ١٦ مليما
من حولنا
جيل من الناس فى أفراحه والآمه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى اطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه
محمد سعيد العريان
من حولنا
قصص مصرية
دار الكاتب المصرى
في ثوب أنيق خلاب
٢٥
البريد ٢٠ مليما



آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد
صورة دوريان جراي
صراع بين الاثم والضمير
صورة تهرم بينما صاحبها
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الانجليزية
فى مزاج من الهزل والجد
اوسكار وايلد
صورة
دوريان جراى
تعريب لويس عوض
اوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
دار الكاتب المصرى
٣٠ م
والبريد ٤ مليما
اوسكار وايلد
شبح كانترفيل
تعريب لويس عوض
شبح كانترفيل
١٨ قرشا
والبريد ١٦ مليما
مظهر آخر لفن اوسكار وايلد
مغامرات شبح يجول فى ابهاء قصر عتيق
موازنة بين العقل الانجليزى
المحافظ والعقل الامريكى المجدد.
قصة فكاهية مرحة
كتابان مزينان
بصور مختارة
من افلام
م. ج. م


غرام أقرب إلى
العبادة فى
عصر الصليبيين
البواسل
موريس بارس
عضو المجمع اللغوى الفرنسى
جنة على نهر العاصى
تعريب
محمد عبد الحميد وعبد المجيد عابدين
الثمن
١٨
والبريد ١٦ مليما
هل توجد الروح؟
وكم تزن ؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها ؟
وهل يمكن أن تمتزج
بعد الموت روحان كانتا
مؤتلفتين أثناء الحياة؟
اندريه موروا
عضو المجمع اللغوى الفرنسى
وازن الأرواح
تعريب عبد الحليم محمود
٢٠
والبريد ١٦
دار الكاتب



Une traduction de mes livres en votre langue... A quels lecteurs pourra-t-elle s'adresser?
André Gide.
ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ .. الى اى قارئ يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن ان تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية في العالم المسلم فيما بدا لي ، انه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة اكثر مما يثير من اسئلة . المخطئ انا ؟
اندريه جيد
اندريه چيد
الباب الضيق
تعريب
نزيه الحكيم
مقدمة لاندريه چيد وطه حسين
اجهدوا للدخول من الباب الضيق
(انجيل لوقا : ١٣-٢٤)
لم تخطئ انت ، وانما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيرا من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام .... فلو قد تعمقوا الدين تعمقا دقيقا لاظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب .
طه حسين
١٨ قرشا والبريد ١٢ مليما


قصتان من الأدب الروسي الرفيع
فيدور دستويفسكي
المقامر
تعريب
شكري محمد عياد
دار الكاتب المصري
ايفان ترجنيف
الحب الأول
تعريب
محمود عبد المنعم مراد
دار الكاتب المصري
قصة شاب ممتحن
بداء القمار لقي من هذا
الداء في حياته شراً عظيماً.
وهي قصة عنيفة تستأثر
بحاجة القارئ إلى الاستطلاع
الثمن ١٨
البريد ١٦ مليماً
قصة ساذجة
تصور قلب شاب ناشئ
يندفع إلى الحب في غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه من يأس
حينما يعلم أن كان يحب عشيقة أبيه
الثمن ١٥
البريد ١٢ مليماً

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العَقَدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	**عبد العزيز عبد الحق**	**على حسن عبد القادر**
المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الازهر	المدرس بكلية الشريعة بالجامع الازهر	دكتور فى العلوم الاسلامية مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفِرَق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليما)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

انطوان دى سانت اكسوپرى

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده



طبعة مزينة بالصور



الثمن ٢٥ قرشاً
(البريد ٢٠ مليما)



في ارجاء العالم العربي

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية